رحلة ابن جُبَيْر الأندلسى

دراسة فى الأسلوب

د. إبراهيم عوض
آداب عين شمس

١٩٩٢

مقدمة

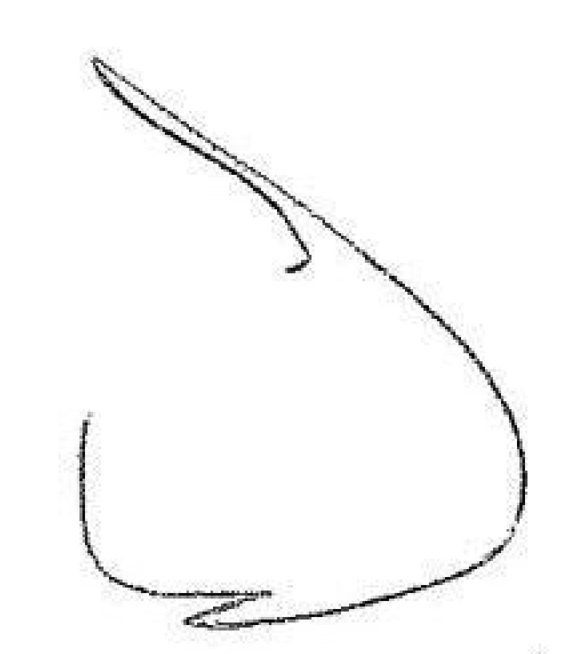
رحلة ابن جبير من أشهر الرحلات فى الأدب العربى . ولعلها هى ورحلة ابن بطوطة أشهرها على الإطلاق .

وقد انفتح لى من خلالها باب على دُنيا من العادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاقتصادية وفن العمارة وشعائر الحج وطرق القوافل فى مصر والجزيرة العربية والعراق والشام فى عصر ابن جبير موارة بالحياة ، شدتنى شدًا لم أستطع له مقاومة حتى فرغت منها وأنا آسف كسيف البال لأنها لم تطل أكثر من ذلك .

وزاد من اهتمامى بهذه الرحلة أن ابن جبير ، فى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة ، قد مرّ على مقربة من المكان الذى تقع فيه قريتى " كتامة الغابة " (بمحافظة الغربية) (١) ، إذ كان من بين المدن والقرى التى اجتازها حينذاك قرية " برما " (" برمة " فى الرحلة) المشهورة بحسبتها التى ضربت بها الأمثال ، وهى تبعد عن قريتنا بنحو ثمانية كيلومترات لاغير . كما توقف فى طنطا (" طندتا " آنذاك) ، وصلى فى أحد جوامعها . ولعله من الجوامع التى صليت فيها أنا أيضا ، فقد تلقيت تعليمى أثناء المرحلتين الإعدادية والثانوية فى تلك المدينة ، وكنت ولا أزال كثير التردد عليها والشعور بأننى أعثر على نفسى وأستردّ ماضىّ حين أتجوّل فيها ، وبخاصة فى شوارعها وحواريها حيث سكنت وسرت ولعبت وحزنت وسُررت فى هذه المرحلة الحساسة والحاسمة من عمرى .

وقد نالت رحلة ابن جبير اهتمام الدارسين من عرب ومستشرقين ، وكلهم أثنى عليها وعلى أسلوبها ، فرأيت أن أدرس هذا الأسلوب وأحلله إلى عناصره الأولى : من مفردات ، وصيغ ألفاظ ، وعبارات ، وتراكيب ، وموسيقى ، وصور ، ووصف ، وفكاهة .

١- لا أدرى أكان لقريتى وجود فى ذلك الحين أم لم تكن قد وُجدت بعد .



ولعل هذه أول مرة يُدرس فيها أسلوب ابن جبير بهذه المنهجية وذلك التفصيل . ورجائى أكون قدمت شيئا نافعا للأدب والنقد . والله الهادى إلى سواء السبيل .

مَنْ كَتَبَ رحلة ابن جبير ؟

قبل أن نتحدث عن أسلوب الرحلة لابدّ أوّلا من مناقشة مدى صحة أو فساد الادعاء القائل إنّ ابن جبير لم يكتب رحلته هذه بنفسه ، وإنما المضمون له والصياغة لغيره . وصاحب هذا الادعاء هو أبو الحسن الشادى(١) ، الذى ذكر لسان الدين بن الخطيب نقلا عن ابن عبدالملك المراكشى أنه " كان يقول إنها ليست من تصانيفه (أى ابن جبير) ، وانما قيد معانـــى ماتضمنته ، فتولى ترتيبها وتنفيذ معانيها بعض الآخذين عنه على ماتلقاه منه " (٢) . وهو كلام واضح الدلالة على أن ابن جبير ليس هو مؤلف الرحلة التى بين أيدينا ، أى أن الأسلوب الذى صيغت به ليس أسلوبه هو ، فدوره فيها على هذا لايعدو أن يكون كدور ابن بطوطة ، الذى قام بحكاية مارآه وسمعه فى رحلاته على ابن جزىّ ، وصاغ هذا الأخير بأسلوبه ماحكاه له الرحالة المشهور . ومن هنا فلا وجه للاحتمال الذى حاول المرحوم عبدالقدوس الأنصارى صرف الكلام إليه ، إذ قال إنه " ربما كان ماتحدث به أبو الحسن الشادى ـ إنما يعنى به أن هذا الآخذ عن ابن جبير إنما قام بنسخ كتاب الرحلة بخط يده نسخا جميلا واضحا خاليا من الشطب والكشط ، ليبرز نسخة الكتاب فى حلة قشيبة بخلاف مسودته الحاوية للكشط والشطب والحواشى والدخلات والخرجات والهوامش على ماهو معروف من صنع المؤلفين الأساتيذ مع تلاميذهم الذين لديهم وعى طيب ويحسنون الخط فيبيضون مسودات مشايخهم بخط جميل " (٣) . ذلك أن

١- فى الطبعة الأولى للرحلة (ط . مصطفى فهمـــى الكتبـــى بمصر ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨/ص ٥ نقلا عن ترجمة ابن جبير فى " الإحاطة " للسان الدين بن الخطيب) ذكر اسمه هكذا : " أبو الحسن الشارى (بالراء) لا الشادى (بالدال) ، وكذلك فى مقدمة د. حسين نصار لرحلة ابن جبير أيضا (بتحقيقه ، صفحة / ط) على ما قال عبدالقدوس الأنصارى (مع ابن جبير فى رحلته / ط ١ المطبعة العربية الحديثة / القاهرة / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م/ ص ٤١) . وأحب أن أنبه من الآن أننى إذا استعملت هذه الطبعة فسأسميها " الطبعة الأولى " . أما إذا قلت " الرحلة " أو " رحلة ابن جبير " بدون الاكتفاءبالنص على الطبعة أو رقم الصفحة فسيكون المقصود طبعة دار صادر ودار بيروت ، وهى التى سيكون جلّ اعتمادى عليها .

٢- لسان الدين بن الخطيب / الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان / مكتبة الخانجى / مجلد ٢/ص ٢٣٠.

٣- عبدالقدوس الأنصارى / ٧٦.

الكلام المنسوب لأبى الحسن الشادى إنما هو عن التصنيف لا النسخ . (١) وبالمناسبة ، فالذ
قال هذا الكلام هوابن عبدالملك لا لسان الدين بن الخطيب ، كما فهم الأستاذ عبدالقدو
الأنصارى (٢) . إنما ابن الخطيب مجرد حاك . وقد عقب لسان الدين بن الخطيب على مانقله ع
ابن عبدالملك بقوله : " والله أعلم " بمايفيد أنه غير مطمئن له . ولم أر أحدا من القدماء ، غ
ابن عبدالملك وابن الخطيب ، قد ذكر هذا الادعاء . أما فى العصر الحديث فقد أورده الزركل
فى ترجمته لابن جبير فى " الأعلام " ، ود. حسنى محمود حسين ، الذى لم يكتف بإيراد الادعاء ب
رجحه أيضا (٣) ، وكذلك الأستاذ حمد الجاسر ، الذى قال عن ابن جبير إنه " كتب بعض مشاهدا
فى إحدى رحلاته إلى الشرق فيما بين سنتى ٥٧٨ و ٥٨١هـ ، فتولى أحد تلاميذه فيما يقال تدوي
الرحلة المعروفة باسمه" (٤) أما الأستاذ الأنصارى فقد فنّد ذلك (٥) .

إن من الصعب للغاية متابعة أبى الحسن الشادى ذاك على ماقاله . ذلك أنه هو الوحيد الذ
قال هـــذا عن رحلة ابن جبير دون سائر من كتبوا عنها . ولا أدرى فى أى ظرف قال الشادى كلا
هذا ، ولا من أين استقاه ، ولا على أى أساس قاله . إنما هو مجرد دعوى خالية من أى دليل أ
بينة . أكثر من هذا أنه لم يذكر لنا اسم من ادعى قيامه بتصنيف الرحلة ولا صلته بابن جبير . ث
لو كان كاتب الرحلة شخصا آخر فلم لم يقل ذلك فى أثناء كتابته لها ، كما فعل ابن جزى (كاتب

١- لاحظت أن العبارة المنسوبة إلى أبى الحسن الشادى والتى نقلها الأستاذ الأنصارى من " الإحاطة " تقول : " وتولى
ترتيبها وتنفيذ معانيها بعض الآخذين عنه " . ولا أدرى عن أى طبعة نقل الأستاذ الأنصارى . أما الطبعة التى رجعت
إليها فتقول : " ...وتنضيد معانيها " . وهذا هو الأليق بالكلام والبيان ، إذ المعانى " تُنضّد " لا " تُنفّذ " .

٢- انظر عبدالقدوس الأنصارى / مع ابن جبير فى رحلته / ص ٦٢.

٣- انظر عبدالقدوس الأنصارى / ص ٦٣.

٤- حمد الجاسر / ملخص رحلتى ابن عبدالسلام الدرعى المغربى / ط ٢/ دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع /
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م/ص١٩.

٥- انظر " مع ابن جبير فى رحلته " ٦٣-٦٧.

رحلة ابن بطوطة) ، الذى أشار إلى هذا بمنتهى الوضوح ، والذى عندما كان يضيف شيئا من عنده
لم يحكه له ابن بطوطة كان ينص عليه قائلا : " قال ابن جزى " .

إن الأمر على العكس من هذا تماما ، فابن جبير ينص فى أول رحلته على أنه " ابتدىء
بتقييدها يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر
بمقابلة جبل شلير ، عرفنا الله السلامة بمنه " (١) ، كما يقول فى آخرها : " فكانت مدة مقامنا
من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصف ، والحمد لله
رب العالمين " (٢) . فهذان النصان دليل على أنه كان يسجل مشاهداته ومسموعاته وأحاسيسه
وأفكاره أولا بأول ، بأسلوبه هو على سبيل التفصيل ، لا الإجمال بنية دفعها بعد ذلك إلى من
يعيد له صياغتها . ثم إن مثل قوله فى أثناء الكلام عن مشاهد الصحابة فى مصر : " والمقيِّد (٣)
يبرأ من القطع بصحة ذلك ، وإنما رسم من أسمائهم ماوجده مرسوما فى تواريخها " (٤) ، وقوله
عن الغوص لصيد اللؤلؤ فى البحر الأحمر عند ميناء عيذاب : " وأوان الغوص عليه فى هذا
التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف ، هو شهر يونيه العجمى والشهر الذى يتلوه " (٥) ، وقوله فى
سياق حديثه عن الكعبة : " وقد كان المقام المطهر أُخرِج من وضعه المستحدث فى البيت العتيق
حسبما تقدم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد ... " (٦) ، وقوله عن غار ثور : " وقد تقدم
ذكــــر الغار وصفته أولا فى هذا التقييد " (٧) ، وقوله وهو ببغداد : " وكنا قد شاهدنا بمكة

١- رحلة ابن جبير / دار صادر ودار بيروت / ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م / ص ٧.

٢- الرحلة / ص ٣٢٠. وتنبه لاسم الإشارة للقريب فى قوله : " إلى وقت إيابنا هذا " ، فهو دليل مؤكد على مانقول .

٣- أى " كاتب هذه السطور " كما نقول نحن الآن .

٤- الرحلة / ص ٢٢.

٥- الرحلة / ص ٤٦.

٦- الرحلة / ص ١٣١.

٧- الرحلة ص/ ١٣٩.

والمدينة .. مجالس من قد ذكرناه فى هذا التقييد " (١) ، وقوله عن الأمير مسعود (٢) : " و تقدم ذكر غنائه فى الإسلام فيما مضى من هذا التقييد " (٣) يؤكد أنه هو الذى صاغ الرح بأسلوبه . (أو بتعبيره هو "قيّدها") ، وأن كان ذلك يتم أولاً بأول .

كذلك فإن ناسخ مخطوطة الرحلة التى اعتمدت عليها دار صادر ودار بيروت فى النشر ، وه عبدالقادر بن عبدالوهاب بن عبدالمؤمن القرشى ، قد صرح فى آخر المخطوطة بمالايحتمل هنا من شك أو تأويل أن الرحلة من " تأليف " ابن جبير (٤) . والمفهوم أنه قد نقل نسخته ع المخطوطة الأولى أو من مخطوطة نقلت عنها أو عن مخطوطة ترجع إليها . ولو كان قد ذُكر ف إحدى هذه المخطوطات أن مؤلف الرحلة هو شخص آخر غير ابن جبير ما فات الناسخ ذلك .

ثم ما الذى سيجعل ابن جبير يعهد بصياغة رحلته إلى غيره وهو الأديب الكاتب الشاعر ؟ قد يقال إن أسامة بن منقذ مثلا ، وهو الشاعر المشهور ، قد حكى مذكراته على من كتبها له (٥) . لكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن ابن منقذ إنما فعل ذلك فى أخريات حياته بعد أن تقدمت به السن وأن المذكرات ليست مصوغة فى أسلوب أدبى مشرق ، بل كُتبت كما حُكيت باللهجة العلمية التى لايراعى فيها جمال صياغة ولا صحة لغة .

أما ابن جبير فلم يكن قد بلغ الأربعين بَعْدُ حين قام برحلته ، التى استغرقت عامين وربع عام تقريبا ، وله فى الرحلة أشعار كثيرة ، كما ظل ينظم الشعر إلى أخريات حياته ، بل إنه كان قد ترك لتوّه الكتابة (الديوانية) لأبى سعيد بن عبدالمؤمن صاحب غرناطة ، مما يدل على أنه كان

١- الرحلة / ص ٢٠٠.

٢- هو فى الحقيقة قلج أرسلان السلجوقى ابن مسعود هذا لامسعود ذاته .

٣- الرحلة / ص ٣١١.

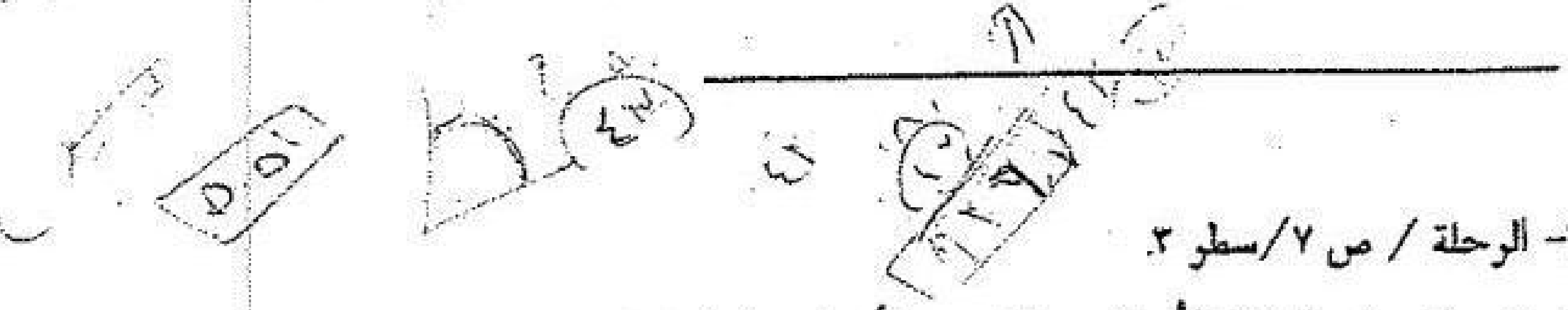
٤- الرحلة / ص ٣٢٠.

٥- انظر مقدمة فيليب حتى للمذكرات المساة بـ " كتاب الاعتبار " / مطبعة جامعة برنستون الأمريكية / ١٩٣٠/تحرير فيليب حتىّ / ص (ت ت) من مقدمة المحرر .

آنئذ فى فورة نشاطه الكتابى والأدبى ، فما الذى يحوجه إلى أن يسلم رحلته إلى من يصوغها له بأسلوبه ؟ إن ابن جُزَىّ مثلا ، كاتب رحلة ابن بطوطة ، كان كاتبا ديوانيا لدى الأمير الذى رغب فى أن تُسَجّل له تلك الرحلة . أما ابن بطوطة فلا يعده أحد بين الكتاب أو الشعراء . لكن الأمر بخلاف ذلك تماما فى حالة ابن جبير . لقد كان هو كاتبا من كتاب الدواوين ، وكان فوق هذا أديبا شاعرا .

هل يكون صاحب الدعوى التى نحن الآن بصددها قد وهم من كلام ابن جبير عن نفسه فى بداية تسجيله للرحلة ، بضمير الغائب (١) أن غيره هو كاتبها ؟ إننى أستبعد ذلك . فالنص يقول : " وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله ، للنية الحجازية المباركة ، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبرير الأعجمى " . ومن السهل ، كما هو واضح ، أن نرى فى إشارة ابن جبير إلى نفسه بضمير الغائب وتأخيره اسمه عن اسم مرافقه لونا من التواضع المنسجم مع مانعرفه من تفصيلات ترجمته وسمات شخصيته لا أكثر (٢) . وهو على أية حال سرعان ما أخذ يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم وظل طوال الرحلة يستخدم هذا الضمير . على أن الأهم من ذلك أن فى النص نفسه برهانا لايُردّ على أن ابن جبير كان يقيد حوادث رحلته تقييدا نهائيا أولا بأول ، إذ ورد فيه الدعاء إلى الله أن ييسر الرحلة ويسهلها .. إلخ . ويستحيل أن يكون هذا الدعاء قد قيل بعد انتهاء الرحلة . وهذا أمر بيّن لايقبل المجادلة .

ومثل هذا الدعاء قد تكرر فى مواضع مختلفة من الرحلة ، كقوله وهو بمصر فى طريق الذهاب إلى البلد الحرام : " استهل هلاله (هلال شهر المحرم) ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس



١- الرحلة / ص ٧/سطر ٣.

٢- تنبه إلى هذه الدلالة الأستاذ عبدالقدوس الأنصارى . انظر كتابه عن رحلة ابن جبير / ص ٦٤.

والعشـــرين مـــن أبريل ونحن بمصر . يّسر الله علينا مولنا " (١) . والمرام المقصود هو الحج مما يقطع بأن الحج لم يكن قد تم بل ولا مجرد الوصول إلى مكة . ولو كانت الرحلة قد أمليت بعد عودته لحل حمد الله مثلا محلّ هذا الدعاء ومثله قوله وهو بقوص (فى رحلة الذهاب):

" استهل هلاله (هلال صفر) ليلة الأربعاء .. ونحن بقوص نروم السفر إلى عيذاب . يسّر الله علينا مولنا بمنّه وكرمه " (٢) . وقوله عن عبور البحر الأحمر من الشاطئ المصرى إلى جدة ، وكان عبورا صعبا : " والله يسهل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير بعزته وكرمه " (٣) . أما بعد الوصول بالسلامة إلى إحدى الجزر فى عُرض البحر فقد تغيرت نغمة الكلام إلى " وله الحمد والشكر على ذلك " (٤) . وهو يشبه ماقيل عند بلوغ جدة ، إذ قال : " والحمد لله على مامنّ به من العصمة وتكفل به من الوقاية " (٥) . وبالمثل فعندما بلغ مكة نراه يدعو بقوله : " فأوزعنا الله شكر هذه المنة .. وختـــم لنا بالقبول" (٦) ، بمايفيد أنه كتب هذا عند أول وصوله البلد الحرام . أما عندما فرغ من أداء الفريضة فإن دعوته تصبح كالآتى : " فكانت مدة مقامنـــا بمكة .. من يوم وصولنا إليها .. إلى يوم إقلاعنا .. ثمانية أشهر وثلث شهر .. جعلها الله لِذَاته ، وجعل القبول لها موافقـــا لمرضاته .. والله لايجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه " (٧) . ويشبه هذا الدعاء ، فى الدلالة على تعلقه بشىء مضى وتمّ ، دعاؤه بعد تمام زيارته للمسجد النبوى الكريم ، ونصه : " بوّأنا الله بزيارة هذا النبى الكريم منزل الكرامة ، وجعله

١- ص / ٣٢.

٢- ص / ٤١.

٣-ص/٥٠.

٤- ص / ٥١.

٥- ص / ٥٢.

٦- ص/٥٩.

٧- ص / ١٦١.

شفيعا لنا يوم القيامة .. إلخ " (١) .

أعتقد أن هذا كله دليل لاينُقض على أن ابن جبير هو الذى كتب رحلته بقلمه هو وأسلوبه ، وأن ذلك كان يتم أوّلا بأول .

وقـد حاول د شوقى ضيف أن يوفق بين كون ابن جبير هو الذى كتب الرحلة بقلمه وبين الرواية التى تشير إلى تلميذه ، فقال : " ويظهر أنه (أى ابن جبير) كتبها فى أوراق منفصلة ولم يجمعها بنفسه ، بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته " (٢) . وهو مجرد اجتهاد منه لم يشأ أن يقطع به فقال : " ويظهر .. إلخ ".

إذن فأسلوب الرحلة هو أسلوب ابن جبير نفسه . ونحب الآن أن نحلل هذا الأسلوب لنتعرف على سماته التى تفرق بينه وبين غيره من أساليب الكتاب الآخرين . والحق أننى لم أصادف من توفر على درس هذا الجانب من أدب ابن جبير ، اللهم إلا ملاحظات عامة وسريعة فى غالب الأحايين هنا وهناك ، من مثل قول ابن عبدالملك المراكشى إن ترسيله بديع (٣) ، وهو نفس ماوصف بـــه لسان الدين بن الخطيب نثره ، مضيفا أن كلامه المرسل سهل حسن ورحلته نسيجة وحدها (٤) . ويقول المقريزى (وردّدها بعده المقرى بنص ألفاظها) إنه " عُنِى بالأدب فبلغ الغاية فيه ، وتقدم فى صناعة القريض وصناعة الكتابة " (٥) . وقريب جدا من ذلك ماأورده الذهبى فى " سير أعلام النبلاء " نقلا عن الأبّار ، الذى قال فى ابن جبير إنه " عُنِى بالآداب فبلغ فيها الغاية ، وبرع فى النظم والنثر " (٦) .

١- ص / ١٨١.

٢- د شوقى ضيف / الرحلات / ط ٣/دار المعارف بمصر / ٧١.

٣- انظر "الإحاطة " / مجلد ٢/ص ٢٣١.

٤- انظر "الإحاطة " / مجلد ٢/ص ٢٣١.

٥- انظر " رحلة ابن جبير " ط ١/ص١٠٩من المقدمة ، و" نفح الطيب " / حـ ٢/ص١٤٢.

٦- سير أعلام النبلاء / تحقيق د بشار معروف ود محيى السرحان / مؤسسة الرسالة / حـ ٢٢/١٤٠٥هـ ١٩٨٥م/ ط١/ص ٤٦.

ويصف. آنخل جنثالث بالنثيا الرحلة بقوله إنها " أشبه بيوميات سفر صاغها ابن جبير
أسلوب بارع ، وصوّر فيها بكلام سهل بسيط الأحاسيس التى اعتلجت فى نفسه فى المواضع ال
زارها أو عند مشاهدته الآثار التى رآها. وأسلوبه سلس جزل ينم على موهبة أدبية أصيلة " (١) .

ويطيل كراتشكوفسكى نوعا ما الكلام فى وصف أسلوب الرحلة ، إذ يقول : " وتعتبر رحلة ا
جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة فى الأدب العربى . وإذا كان وصفه للأد
مملا للقارىء العادى فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير .. أما عر
العام فيستهدف الصنعة والأناقة . وهو كثيرا مايلجأ إلى السجع الذى يعالجه بالكثير
المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارىء إلى تكلف الجهد فى تفهمه . كما يشحن كتا
بالاقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع ح
يضحى مفهوما للقارىء " (٢) .

وفى " تاريخ الشعوب الإسلامية " يقول بروكلمان واصفا أسلوب ابن جبير فى الرحلة
" أسلوب بارع ، ولكنه خال على كل حال من تصنع المحترفين ، من غير أن يتنكر يوما لتقا
الفقهية " (٣).

ويستنبط شارل بلا ، كاتب مادة " ابن جبير " فى الطبعة الجديدة
"Encyclopaedia of Islam" (٤). خصائص أسلوب ابن جبير فى الرحلة فى العبارا
التالية : " إن أسلوبه ، وإن كان فى بعض الفقرات السردية واضحا مملوءا بالحيوية عل
نحو ماهو مشاهد فى طريقة المعلقين فى عصرنا ، هو أسلوب يفرط فى التنميق ويستعين بالسج

١- آنخل جنثالث بالنثيا / تاريخ الفكر الأندلسى / ترجمة د. حسين مؤنس / ط١/ النهضة المصرية / ص ٣١٧.

٢- كراتشكوفسكى / تاريخ الأدب الجغرافى العربى / ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم / لجنة التأليف والترج
والنشر / ١٩٦٥م/ القسم الأول / ص ٣٠١.

٣- تاريخ الشعوب الإسلامية / ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى / ط ٧/ دار العلم للملايين / بيروت / ص ٣٣٩.

٤- وهى غير الطبعة الأولى التى تُرجم معظمها إلى العربية.

فى خلعه الأوصاف العامة على بلد ما ، أو عند تصويره للمدن التى يمر بها ، وكذلك فى التعبير
عن المشاعر التى يثيرها فيه هبوب عاصفة.. ومن ناحية أخرى فإنه بارع فى التقاط السمات
المميزة والملامح البارزة التى تلفت العين فى الجموع الحاشدة . وفى هذه الحالات فإن
أسلوبه الملون البسيط يضفى على مايحكيه طابعا عصريا تاما " (١).

وتصف كل من دائرة المعارف البريطانية (ط ١٩٧٢ م) و " دويّرة المعارف " الملحقة بدائرة
المعارف البريطانية الجديدة الرحلة بأنها صيغت فى " أسلوب حى " (٢).

ويقول محمد عبدالله عنان إن ابن جبير قد وصف مكة والكعبة والبيت الحرام والمناسك
" بإفاضة ودقة وحرارة تنيب قلب المؤمن وأسلوب رفيع من البيان الساحر الأخاذ. ولقد كتب
كثير من الرحّل المسلمين فى وصف هذه الأماكن المقدسة وأفاضوا وأبدعوا. ولكن يندر أن نجد
بين كتاباتهم مثل هذا الوصف البليغ المؤثر الذى تركه لنا ابن جبير " (٣).

وفى تأريخه للأدب المغربى والأندلسى فى عصر المرابطين والموحدين يقول د. عمر فروخ عن
ابن جبير إن " أسلوبه فى رحلته نثر رصين ، جزل الألفاظ ، سهل التركيب ، بارع السبك ، موجز
بليغ ، يصدر عن شعور بمايرى ويتأثر به . والجانب القصصى فى رحلته بارع جدا . كما أن
أوصافه طريفة ناطقة بماتعبّر عنه " (٤).

ويصف د. شوقى ضيف أسلوب ابن جبير قائلا إن " الرحلة مكتوبة بلغة سهلة بسيطة ملائمة
تماما لموضوعها . وطريقته فى السرد محببة إلى النفس . وهو يصف مايشاهده وصفا دقيقا ...

١- Encyclopaedia of Islam , New Edition , Vol. III , Leiden – London , 1979 , Ent. "Ibn Djubayr ", P. 755.

٢- انظر مادة " ابن جبير : " Ibn Jubayr " فى كل من Encyclopaedia Britannica /ط ١٩٧٢م /حـ ١١ / ص ١٢٠٢ و The New Encyclopaeida Britannica Micropaedia , Vol. 5 , 271

٣- محمد عبدالله عنان / تراجم إسلامية / ط ٢/ الخانجى / ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م / ص ٣٣١.

٤- د. عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / حـ ٥/ص٦٠٩ .

وترك نفسه على سجيته فلم يتكلف فى عبارة ولا فى فكرة ، وأدى ماداخله من عواطف وأحاسي
إزاء بعض الحوادث والمواقف أداء صادقا صريحا " (١).

وقد خلع عبدالقدوس الأنصارى على أسلوب ابن جبير فى الرحلة صفات " الجمال والإبــداع
و " الوصف الأدبى الممتاز " (٢) ، و" الروعة " و " البلاغة العربية المرموقة " (٣)و" البلا
النضرة الوارفة الظلال ، والوافرة الجمال " (٤) ، و " الإيجاز غير المخل " فى مواض
والإطناب فى وصف ما " يحوز إعجابه العميق " فى مواضع أخرى (٥) و " الحيوية فى وصف أم
البحر " بطريقة " تجعل القارىء يشعر بمشاطرته فى عاطفته " (٦) ، و " سيطرة روح المر
والنسيب عليه فى بعض الأحيان " (٧) ، و " وجود مصطلحات خاصة قد تغمض على بعض أذها
القراء " إما لأنها ألفاظ مهجورة أو أجنبية دخيلة أو عامية (٨) ، و " الإغراق فى المبالغة
والتهويلات لجذب الأنظار (٩).

هذا ماوقع لى من وصف أسلوب ابن جبير فى الكتب التى حصلت فى يدى وأنا أعد هذا البحث
وهى صفات عامة فى الغالب كما هو بين . بيد أنها كلها تجمع أو تكاد على الإعلاء من شأن ه
الأسلوب على غيره من أساليب الرحلات القديمة،وهو مالخصه د.محمد محمود محمدين فى قوله

١- د شوقى ضيف / الرحلات / ٧١ - ٧٢.
٢- ص/٢٩٦.
٣- ص/ ٢٩٨.
٤- ص/٢٩٩.
٥- ص/٣٠٤.
٦- ص/ ٣٠٨.
٧- ص/ ٣١٠.
٨- ص/ ٣١٥.
٩- ص/٣٤٨.

" ويكاد يجمع الباحثون على أن الأسلوب الذى كتب به (ابن جبير) وصف رحلته من أفضل الأساليب التى كتبت بها الرحلات العربية القديمة " (١).

أما أنا فسبيلى فى دراسة أسلوب ابن جبير هو فرز مايتميز به هذا الأسلوب فى المفردات والصيغ والعبارات والتراكيب والتصوير والتوقيع الموسيقى خيطا خيطا على قدر ماتسعفنى ملاحظتى وانتباهى.

١- د محمد محمود محمدين / الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان / دار العلوم للطباعة والنشر / ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م / ص ١٥٣.

المفردات

ونبدأ بالمفردات . وأول مايتميز به الأسلوب الجبيرى فى هذا الجانب هو تكرر ألفاظ بعينها على مدار الرحلة تكرراً يلفت النظر . ومن هذه الكلمات الفعل " قيّد " (بمعنى " كتب " أو " سجّل ") ومشتقاته .

جاء فى أول سطر فى الرحلة : " ابتدىء بتقييدها (أى كتابتها) يوم الجمعة الموفى لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة " (١) . ويتحدث عن نفسه وأنه لا يستطيع القطع بشىء فى موضوع الصحابة المدفونين فى مصر : " والمقيّد (بصيغة اسم الفاعل ، أى كاتب السطور أو مؤلف الكتاب . يقصد بذلك نفسه) يبرأ من القطع بصحة ذلك " (٢) . ويقول عن مشاهد الصلحاء والعلماء بمصر أيضا إنها " أكثر من أن تضبط بالتقييد (أى التسجيل) أو تتحصل بالإحصاء " (٣) . ومثلها فى المشاهد الموجودة بجامع دمشق : " والمشاهد المباركة فى هذه البلدة أكثر من أن تنضبط بالتقييد " (٤) وفى مواعيد الغوص على اللؤلؤ فى البحر الأحمر : " وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف (يقصد : " فى الوقت الذى كان يكتب فيه تلك السطور ") ، وهو شهر يونيه العجمى والشهر الذى يتلوه " (٥) . وعن اقتراح أحد المحسنين من مسلمى الأعاجم على أمير مكة فى ذلك الوقت أن يكلف واحداً من لدنه بتسجيل ماينفقه هذا المحسن فى تجديد بئر زمزم وبنائه ، حتى إذا فرغ هذا المحسن من التجديد المطلوب أعطى الأمير مقدار ما أنفق : " وقال : ... ولك علىّ فى ذلك شرط ... وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيّد مبلغ النفقة فى ذلك ... فاهتز الأمير طمعا ... وألزمه مقيّدا يحصى قليل

١- الرحلة / ص ٧.

٢- ص / ٢٢.

٣- ص / ٢٤.

٤- ص / ٢٥٤.

٥- ص / ٤٦.

الإنفاق وكثيره ...والمقيّد يسوّد طواميره بالتقييد " (١) ، كل ذلك ولعاب الأمير المذكور يتحلب طمعا وجشعا . وفى النهاية ، بعد أن تم الترميم والتحسين ، اختفى ذلك المحسن وعاد إلى بلاده ، دون أن يعطى الأمير شيئا . وقد لجأ إلى هذه الحيلة لما كان يعلمه من جشع الأمير وأنه لن يمكنه من فعل ماينتوى من الخير إلا بالرشوة . وعن كثرة عدد الهوادج فى موكب حرم الأمير المارّ ذكره وحرم قواده : " إلى غير ذلك من هوادج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء " (٢) . وفى الإشارة إلى شىء سلف الكلام عنه فى مكان سابق من الرحلة : " حسبما تقدم الذكر ... فيما سلف من هذا التقييد (أى الكتاب) " (٣) ، " وقد تقدم ذكر هذا الغار وصفته أولا فى هذا التقييد " (٤) ، " المتقدمة الذكر فى هذا التقييد " (٥) " وقد تقدم ذكر غنائه فى الإسلام فيما مضى من هذا التقييد " (٦) . وقال معقبا على ماساقه من وصف النساء النصرانيات وملابسهن فى " بلارمة " عاصمة " صقلية " : " ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدى إلى أباطيل اللهو ، ونعوذ بالله من تقييد يؤدى إلى تفنيد " (٧) .

وقد وجدت عددا من المعاجم اللغوية لاتذكر لهذه الكلمة هذا المعنى الذى أكثر ابن جبير استعمالها فيه ، ففى " صحاح " الجوهرى مثلا : " القيد : واحد القيود . وقد قيدت الدابة . وقيّدت الكتاب : شكلته ... ويقال للفرس الجواد : قيد الأوابد ، لأنه يمنع الوحش من الفوات

١- ص/ ١٠٥.
٢- ص/ ١٠٧.
٣- ص/ ١٣١.
٤- ص/١٣٩.
٥- ص/ ٢٠٦.
٦- ص/٣١١.
٧- ص/٣٠٧.

لسرعته " (١) . وفى " معجم مقاييس اللغة " لابن فارس : " القَيْد : ... معروف ، ثم يستعار فى كل شىء يَحْبِس . يقال : قيدته أقيّده تقييدا " (٢) . وفى " القاموس المحيط " : القيد : جمع أقياد وقيود ... وقيد الأسنان اللثة . ويقال للفرس : " قيد الأوابد " ، لأنه يلحق الوحوش بسرعته ... وتقييد الكتاب شكله ... وقيّد الإيمانُ الفتك ، أى منع من الفتك بالمؤمن " (٣) . ونفس الحكم يصدق على " لسان العرب " و " أساس البلاغة " ، و " أقرب الموارد " للشرتونى ، و " محيط المحيط " للبستانى ، و " المعجم الوسيط " و " المنجد " ... إلخ .

ومع هذا فقد كانت هذه الكلمة تستعمل فى النصوص العربية القديمة فى هذا المعنى ، معنى الكتابة والتسجيل وما أشبه . أما الآن فقلما تستخدم فيه . إنما أصبحت تستخدم فى معناها الأصلى ، وهو ربط الإنسان (أو الحيوان) ربطا ماديا لمنعه من الحركة أو على الأقل من مغادرة المكان ، أو ربط الشخص معنويا لإلزامه بأمر معين أو منعه عن عمله . وهذه بعض نصوص صادفتها فى عدد من الكتب العربية القديمة وردت فيها هذه الكلمة :

جاء فى الحديث النبوى : " قيدوا (هذا) العلم بالكتاب " (٤) . وقال على بن موسى بن سعيد (صاحب " المغرب ") عن أبيه إنه كان مولعا " بالتقييد والمطالعة للكتب " (٥) . وفى "مستفاد الرحلة والاغتراب " للقاسم بن يوسف التجيبى السبتى استخدمت هذه الكلمة فى هذا

١- الصحاح / مادة " قيد " .
٢- معجم مقاييس اللغة / مادة " قيد " .
٣- القاموس المحيط / مادة " قيد " .
٤- الدارمى / مقدمة / ٤٣ .
٥- انظر المقّرى / مجلد ٣/ص٩٩.

المعنى مرارا (١) كما استعمل ابن جزى ، كاتب رحلة ابن بطوطة ، هذه الكلمة فعلا واسما فى هذا المعنى (٢).

وفى " نفح الطيب " فى كلامه عن ابن عطية : " رحل إلى المشرق فروى وقيّد .. ويقيد شوارد المعانى وغرابتها " (٣).

وثمة كتاب منسوب لأحد المغاربة (وهو عزالدين محمد بن عبدالسلام الهوارى المنستولى ، من القرن السابع والثامن الهجرى) اسمه " تقاييد على مختصر ابن الحاجب " (٤).

وفى " الرحلة الحجازية " لمحمد السنوسى (تونسى من العصر الحديث) : " لمتدت الأيدى إلى مسودات التقاييد " (٥) ، و " تعاطيت من بذل الهمة ما استطعت من جمع شمل ما انتثر من تقاييد هذا الأنموذج المعتبر " (٦).

ومن الكلمات التى يكثر ابن جبير من استعمالها فى رحلته كلمة " حفيل " (بمعنى "ممتلىء" ، " مزدحم " و " فخم " ، " هائل " ، وهى " فعيل " من " حافل : فاعل " ، التى لم ألحظ استعماله لها ، إمّا لعدمه وإمّا لقلته الشديدة.

مثال ذلك قوله عن زحام المصلين يوم الجمعة فى أحد المساجد بطنطا (التى يسميها

١- انظر " مستفاد الرحلة والاغتراب " / تحقيق عبدالحفيظ منصور / الدار العربية للكتاب / ليبيا - تونس / ١٤٩٥هـ - ١٩٧٥م / ص ٤٥٩،٣٠٤،٣٧،١٤،٥. وإن كان قد استخدمها أيضا بمعنى ضبط الكلمات الملتبسة بالشكل. انظر ص/ ٢٣٦،٨٠،٦٥،٣٧ مثلا.

٢- انظر " رحلة ابن بطوطة " / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م / ص ٣٨٣،١٣.وإن كان قد استعملها أيضا بمعنى ضبط الكلمات بالشكل لمنع الالتباس. انظر كراتشكوفسكى /الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول/ ص ٤٢٥.

٣- جـ ٢/ ٢٧٨.

٤- انظر عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / جـ٦/دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٨٣/ص ٦٠.

٥- الرحلة الحجازية /تحقيق على الشنوفى /جـ١/ الشركة التونسية للتوزيع / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م/ ص ٤٢.

٦- ص/ ٤٢.

" طنتنـه ") ، ولعله مسجد السيد أحمد البدوى المشهور : " فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطنته ، وهى من القرى الفسيحة الآهلة ، فأبصرنا بها مجمعا حفيلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة " (١) ، وقوله عن " المنية " (موضع بين قليوب والقاهرة) : " وهو موضع أيضا حفيل " (٢) ، وقوله عن القاهرة : " وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسعة " (٣) ، وقوله عن مقبرة الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة : " قد بُنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولايحيط الإدراك به " (٤) ، وقوله فى وصف كلام : " كلام مسجوع حفيل الدعاء والثناء " (٥) ، وقوله عن ازدحام السوق التى كانت على أيامه بين الصفا والمروة وكان على الساعين بين هذين المشعرين أن يخوضوا فى زحلها خوضا ليؤدوا منسكهم : " ومابين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية" (٦)، وهو نفس الوصف الذى وصف به أسواق مدينة " الحلة " العراقية ، إذ قال : " ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية " (٧) ، وسوق قرية " صرصر " (العراقية أيضا) : " وبهذه القرية سوق حفيلة ومسجد جامع كبير جديد " (٨) ، وأسواق الجانب الشرقى من بغداد : " والشرقية حفيلة الأسواق ، عظيمة الترتيب ، تشتمل من الخلق على بشر لايحصيهم

١- الرحلة / ص ١٨.

٢- ص / ١٨.

٣- ص / ١٨.

٤- ص / ١٩.

٥- ص /٧٥.

٦- ص / ٨٥.

٧- ص / ١٨٩.

٨- ص / ١٩٣.

إلا الله تعالى الذى أحصى كل شىء عددا " (١) . وقوله فى وصف ليلة الأول من أحد الشهور العربية فى المسجد الحرام : " وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالى الحفيلة فى المسجد الحرام " (٢) . وقوله فى سياق وصفه لمسجد مولد النبى فى مكة : " وبإزائه (أى بإزاء مكان ولادته صلى الله عليه وسلم)محراب حفيل القرنصة " (٣) . وقوله فى الكلام عن قبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه : " وفى هذا المشهد بناء حفيل علـــى ماذُكر لنا " . (٤) وهو ماقاله عن مشهد " عون ومعين " : " وفى الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيـــــل البنيان داخل قبر متسع السنام " (٥) . وقوله فىالحديث عن مستشفى : " مارستان حفيل " (٦) . ثم قوله فى الإعجاب بوليمة دُعى إليها فى عكا : " فأضاف (رئيس إحدى الضياع بعكا) جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيرا وكبيرا فى غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألوانـــــا من الطعام قدمها لهم " (٧) ... إلخ .

من هذه النصوص ، وهى مجردأمثلة ، نرى مدى غرام ابن جبير بهذه الكلمة.فهو من ناحية يكثر من استخدامها ، ومن ناحية أخرى يستعملها فى سياق لاتستخدم فيه عادة . إنّ من المألوف وصف سوق مثلا بأنه حفيل . لكن ابن جبير يصف بهذه الكلمة المقبرة والوليمة والكلام ، وكذلك العمائر أيضا ، لا على أنها أمكنة تحفل بالناس ، أى يحتشدون فيها ، بل بوصفها أثرا فنيا يملأ النفس دهشة وإعجابا .

١- ص/ ٢٠٤.

٢- ص/١٣١.

٣- ص/ ١٤١.

٤- ص/ ١٨٩.

٥- ص/ ٢٠٢.

٦- ص/ ٢١٠.

٧- ص/ ٢٧٥.

وتبرز كلمة " البسيط " (بمعنى " الأرض المبسوطة " ، أى السهل الممتد أو الأرض الممهدة الفضاء) أيضا بين مفردات معجم ابن جبير . وقد يؤنثها : " بسيطة " . كما قد ترد عنده مجموعة : " بسائط " . وأحيانا يصف " البسيط " بأنه " أفيح " . وهذه الكلمة ، كلمة " أفيح " ، هى أيضا من الكلمات التى تكررت فى الرحلة على نحو يلفت النظر . وقد كانت مرتبطة فى كل المواضع التى صادفتها فيها على نحو أو على آخر مع كلمة " بسيط " . وأحيانا مايستخدم " البسيط " وصفا لا اسمـــاً.وهذه أمثلة على ذلك : يقول فى دمنهور (عاصمة محافظة البحيرة الآن فى مصر) : " وهو بلد مسوّر فى بسيط من الأرض أفيح متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر . والبسيط كله محروث (أرض تزرع وتُحرث) يعمه النيل بفيضه . والقرى فيه يمينا وشمالا لاتحصى كثرة " (١) . ويقول عن تجمع الحجيج فى عرفات : " فتكامل جمع الناس بعرفات .. و .. وصل أمير الحاج العراقى فضرب أبنيته فى البسيط الأفيح مما يلى الجانب الأيمن من جبل الرحمة فى استقبال القبلة " (٢) . ويقول عن " عُسْفان " : " وهى بسيط من الأرض بين جبال " (٣) ، وهو ماقاله عن " خُلَيْص " (قريبة من عسفان) : " وهى أيضا فى بسيط من الأرض .. وفى البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب " (٤). ويقول فى الكناية عن كثرة التجمع الحاشد وشدة ازدحامه : " يغص بهم البسيط الأفيح ، ويضيق عنهم المهمه الصحصح " (٥) . ويقول عن إحدى مراحل رحلةالعودة إنهم قد نزلوا " فى بسيط من الأرض " (٦) . ويقول بعد ذلك مباشرة ، مستخدما

١- ص/ ١٨.

٢- ص/ ١٥٢.

٣- ص/ ١٦٢.

٤- ص/ ١٦٣.

٥- ص/ ١٦٣.

٦- ص/ ١٦٥.

اللفظة وصفا : " ثم رحلنا فى مهمه أفيح بسيط ممتدّ مدّ البصر " (١) . ويقول عن " نجد " : " وما أرى أن فى المعمور أرضا أفسح بسيطا ولا أوسع أنفا ولا أطيب نسيما ـ ولا أحسن اعتدالا فى كل الأزمان مـــن أرض نجـــد " (٢) . وعن قرية " القَرَاش " العراقية يقول : " وحولها بسيط أخضر جميل المنظر " (٣) . وعن مدينة حمص السورية : " موضوعة فى بسيط من الأرض ـ أفيح أغبر " (٤) . ثم فى كلامه عن " ثنية العقاب " (قرب دمشق) : " وجزنا ثنية العقاب ، ومنها يُشْرَف على بسيط دمشق وغوطتها " (٥) . أما فى النص التالى فإنه يستخدم اللفظ اسمـــا مؤنثا : " ومشينا فى بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ولايبلغ مداها " (٦) . كما استخدمه مرتين اسما مجموعا فى قوله : " والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها فى بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينا وشمالا . ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها " (٧) ، ومرة فى قوله عن دجلة والفرات : " والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين " (٨) . ومثلها فى وصف المدخل إلى بغـــداد : " والمدخل إليها على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها " (٩) .

وفى " الصحاح " للجوهرى : " البَسَاط (بالفتح) : الأرض الواسعة . يقال : مكان بسيط

١- ص/١٦٥.

٢- ص/ ١٨٢.

٣- ص/ ١٩١.

٤- ص/ ٢٣١.

٥- ص/ ٢٣٣.

٦- ص/ ١٨١.

٧- ص/ ١٩٠.

٨- ص/١٩٢.

٩- ص/ ١٩٣.

وبَسَاط " (١) . وفى " معجم مقاييس اللغة " لابن فارس " البَسَـــاط : الأرض ، وهى البسيطة . يقال : مكان بسيط وبَساط ، وهو بسيط الجسم والباع والعلم " (٢) . وفـــى الفيروزابادى : " البَساط (بالفتح) : المنبسطة المستوية من الأرض كالبسيطة ، والأرض الواسعة . وتُكْسَر كالبسيط ـ والبسيطة : الأرض " (٣) .

وقـــد كان من تأثير كثرة استعمال هذه الكلمة ، فيما يبدو ، فى رحلة ابن جبير ، التى رجع محمد رشيد رضا إليها واقتبس منها فيما كتبه عن رحلته إلى أرض الحجاز للحج ، أن وجدتُ هذا الأخير قد استخدمها فى وصف عرفات ثلاث مرات على الأقل : (هكذا : " بسيط عرفات ") (٤) . والذى جعلنى أعزو هذا إلى تأثير ابن جبير أن رضا لم يستعمل هذه اللفظة ، فيما تنبهت ، على مدى رحلاته كلها التى جُمعت فى كتاب بعد وفاته ، إلا فى هذه الصفحات التى تلت مانقله من كلام ابن جبير المتقدم ذكره عن عرفات ، وفيه أنها " بسيط من الأرض " (٥) . وأكد هذا عندى أنه فى كلامه عن نفس موضوع عرفات ، فى سياق إشارته إلى كتاب " دليل الحاج " لمحمد باشا صادق ، عدل عن كلمة " بسيط " إلى قوله : " سطح البقعة المستوية من عرفات " (٦) ، متأثرا أغلب الظن بعبارة محمد باشا صادق نفسه .

ومن الألفاظ التى تكررت فى رحلة ابن جبير كلمة " تمادي " ، التى يستعملها بمعنى " استمر " وهـــذه بعض الشواهد على ذلك : " وتمادى عصوف الريـــاح واشتـــدت حلكـــة الظلمـــة وعمـــت

١- الصحاح / مادة " بسط " .

٢- معجم مقاييس اللغة / مادة " بسط " .

٣- القاموس المحيط / مادة " بسط " .

٤- رحلات الإمام محمد رشيد رضا / جمع وتحقيق د يوسف إيبس / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ط ١/ ١٩٧١/ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦٤.

٥- المرجع السابق / ص ١٥٥.

٦- المرجع السابق / ص ١٥٩.

الآفاق " (١) . " وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب ، وتمادى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقى ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه " (٢) . " وظهر من تزاحمهن ماظهر من السرو اليمنيين... وتمادين على ذلك صدرا من النهار ، وانفسحن فى الطواف والحِجْر، وتشفين من تقبيل الحَجَر واستلام الأركان " (٣) . " وتمادى مقام (أى بقاء) سيف الإسلام فى البيت الكريم مدة طويلة " (٤) . " ياقوم ، حتّام التمادى فى الشهوة ؟ وإلام تستنون فى طرق الهفوة ؟ " (٥) . " فلما كان يوم الخميس بكّر الناس بالصعود إلى منى وتمادوا منها إلى عرفات " (٦) . " فلما كان ظهر يوم الاثنين إثر الصلاة أقلعنا من خليص مرتحلين ، وتمادى سيرنا إلى العشاء الآخرة " (٧) . " فأقلعنا منها (من المدينة المنورة) ظهر يوم السبت المذكور ، وتمادى السير بنا إلى إثر صلاة العشاء الآخرة " (٨) . " والزوارق فيها لاتحصى كثرة . فالناس ليلا ونهارا من تمادى العبور فيها فى نزهة متصلة رجالا ونساء " (٩) . " وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار" (١٠) . " على أن القدر المحمود لم يسبب لنا إلا صحبة الأشبه (أى الأحسن) منهم ومن شكرناه على طول الصحبة وتماديها من مكة ، شرفها الله ، إلى

١- ص/ ٥٠.
٢- ص/ ٩٥.
٣- ص/ ١١٦.
٤- ص/١٢٦.
٥- ص/ ١٤٧.
٦- ص/ ١٥٠.
٧- ص/١٦٥.
٨- ص/١٦٧.
٩- ص/٢٠١.
١٠- ص/٢٠٧.

الموصل " (١) . " فتمادى سيرنا إلى أول الظهر " (٢) . " وأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده ... ورحلنا منها وتمادينا إلى العشى ... ثم رحلنا عند المغرب وأسرينا طول ليلتنا ، وتمادى سيرنا إلى الضحى " (٣) . " وتمادى مُقامنا فيه مدة اثنى عشر يوما لعدم استقامة الريح " (٤) . " وتمادت (الريح اللينة) وانتشرت بفضل الله تعالى " (٥) .

والملاحظ أن السياقات التى وردت فيها هذه الكلمة هى فى الغالب سياقات حركة من سيْرٍ أو سَفَرٍ أو هبوب ريح .

وكلمة " المصنع " هى أيضا من الكلمات التى تكرر ورودها فى الرحلة بمعنى " البناء " كالقصر والمعبد مثلا ، أو بمعنى " الحوض الذى يحفظ فيه الماء " .

يقول واصفا مشهد الحسين رضى الله عنه فى القاهرة : " وعلقت عليه قناديل فضة ، وحُف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا وجمالا " (٦) .

ويقول فى مدينة إخميم المصرية : " وبهذه المدينة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معمورة إلى الآن بالمعاهدين من نصارى القبط " (٧) . وقال عن المعابد المصرية التى يسميها ، كما كان العرب القدماء يسمونها ، " البرابى " : " وكذلك يعرف كل هيكل عندهم وكل مصنع قديم " (٨) . وقال عن جدة : " وبخارج هذه المدينة مصانع قديمة تدل على قدم اختطاطها ،

١- ص/٢١٣.
٢- ص/ ٢١٥.
٣- ص/ ٢٣٣.
٤- ص/ ٢٨٤.
٥- ص/٣١٩.
٦- ص/ ١٩.
٧- ص/ ٣٦.
٨- ص/٣٦.

ويُذكَر أنها كان من مدن الفرس " (١) . " فكم له (ملك صقلية) فيها (أي في بالرم عاصمته) ، لاغُمِرت به ، من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع " (٢) . " ومن أعجب ماشهدناه بها (أي ببالرم) من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي .. ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة ، جدرها الداخلة ذهب كلها " (٣) .

ويقول : " ثم نزلنا يوم الأربعاء .. بموضع يعرف بالنقرة ، وفيها آبار ومصانع كالصهاريج العظام . وجدنا أحدها مملوءا بماء المطر " (٤) . " ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر لمحرم .. على ماء يعرف بالقارورة ، وهي مصانع مملوءة بماء المطر " (٥) . " وفي يوم الخميس المذكور .. بالحاجر ، والماء فيه في مصانع . وربما حفروا عليه حُفَرا قريبة العمق يسمونها أحفارا ، واحدها حَفَر " (٦) . " وأصبحنا على قيدٍ يوم الأحد .. والمياه فيها بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة " (٧) . نزلنا ضحوة يوم الخميس الموفي عشرين لمحرم ، والثالث لمايه (مايو) ، بموضع يعرف بالثعلبية .. وبإزائه مصنع كبير الدور من أوسع مايكون من الصهاريج وأعلاها " (٨) . " وفي ضحوة يوم الجمعة .. نزلنا بموضع يعرف ببركة المرجوم ، وهي مصنع . وقد بنى له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدي الماء إليه على بُعْد .. وكان هذا المصنع مملوءا من ماء المطر ، فعمر الناس وعمهم ، والحمد لله . وهذه المصانع

١- ص/ ٥٣.
٢- ص/ ٣٠٥.
٣- ص/ ٣٠٦.
٤- ص/١٨١.
٥- ص/١٨١-١٨٢.
٦- ص/١٨٢.
٧- ص/١٨٣.
٨- ص/١٨٤.

والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور ، زوج هارون الرشيد وابنة عمه " (١) . " وفي ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع يعرف بالشُقوق ، وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبا صافيا .. وأحد هذين المصنعين صهريج عظيم الدائرة كبيرها لايكاد يقطعه السابح إلا عن جهد ومشقة .. ومن لطائف صنع الله تعالى بوفده وزوار حرمه أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد إلى مكة دون ماء فأرسل الله من سحب رحمته ما أترعها ماء مُعَدًا لصَدَر الحاج " (٢) . " وبتنا بموضع يعرف بالتنانير . وكان فيه أيضا مصنع مملوء ماء .. واجتزنا .. بزُبالة .. وفيها قصر مشيد من قصور الأعراب ومصنعان للماء وآبار .. ونزلنا .. بالهيثمين ، وفيها مصنعان للماء " (٣) . " وأجزنا يوم الأربعاء .. بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء ، وفيه أيضا مصنع ماء .. وكثرت المصانع حتى لاتكاد الكتب تحصرها ولاتضبطها " (٤) .

من هذه النصوص يتبين أن ابن جبير استخدم كلمة " مصنع " في معنى " البناء " كالقصر والحصن وما أشبه ، ومعنى " حوض الماء " كليهما . وبعض المعاجم تنص على أن " المصنع " إنما هو البناء فقط قصرا كان أو حصنا . أما الحوض الذي يُجمع فيه ماء المطر فيسمى " المصنعة " (بفتح النون وضمها) ، بزيادة تاء (٥) .

ترى هل تجوّز ابن جبير فاستخدم كلمة " المصنع " في المعنيين كليهما ؟ لقد أشار مهمّش الكتب وشارح ألفاظه في الهمش الأول من الصفحة الثانية والثمانين بعد المائة في شرح

١- ص/١٨٤-١٨٥.
٢-ص/ ١٨٥.
٣-ص/١٨٥.
٤- ص/ ١٨٦.
٥- انظر مادة " صنع " في " الصحاح " ، وفي " القاموس المحيط " ، وفي " مختار الصحاح " ، وفي المنجد " .

كلمة " مصانع " (من قول ابن جبير : " وهى مصانع مملوءة بماء المطر ") قائلا : " المصانع الواحدة مصنعة : مايجمع فيها ماء المطر كالحوض " . ولم يتنبه أو لم يهتم بأن ينبّه إلى أن ابن جبير كلما استخدم مفرد هذا الجمع لم يستخدمه قط بناء بل بدونها .

مرة ثانية ، هل تجوز ابن جبير فاستخدم كلمة " مصنع " فى المعنيين كليهما ؟ (١) لا ، فإن هناك معاجم أخرى نصت على أن اللفظتين كلتيهما تعنيان الحوض وشبه الصهريج يجمع فيه ماء المطر (٢) . بل إن " أساس البلاغة " مثلا يذكر أن " المصنعة " تعنى " القصر والقرية " ، أى أنها تشترك مع " المصنع " فى المعنيين كليهما : معنى " البناء " ومعنى " حوض الماء " .

هذا ، ولعل القارىء قد لاحظ من النصوص السابقة أن كلمة " الصهريج " هى أيضا من الكلمات التى تكثر فى أسلوب ابن جبير . وهى موجودة فى نصوص أخرى .

وقد أشار د. عبدالرحمن حميدة ، وهو مغربى ، أن كلمة " صهريج " هى استعمال مشرقى ، على حين أن أقطار المغرب العربى تقول " ماجن " (٣) . فإذا صحت هذه الملاحظة فإن ابن جبير (وهو ينتمى إلى المغرب الإسلامى) قد تنكب باطرادٍ الكلمةَ المغربية " ماجن " ولجأ فى كل الأحوال ، كما رأينا إلى كلمة " صهريج " المشرقية وكلمة " مصنع " .

ومن المفردات التى تكررت فى الرحلة أيضا كلمة " دَوْر " ، وأحيانا كلمة " دائر " (بمعنى " محيط الشىء أو قطره ") ، وذلك فى النصوص التالية وغيرها : " ومنتهى دور الجزيرة (أى

١- وجدت أثناء قراءتى ابن بطوطة أنه أيضا استخدم كلمة " مصنع " بمعنى " صهريج المياه " . انظر رحلة ابن بطوطة / ص ١٧٥ .

٢- انظر مادة " صنع " فى " لسان العرب " و " أساس البلاغة " و " محيط المحيط " للبستانى ، و" أقرب الموارد " للشرتونى مثلا .

٣- انظر ترجمته لـ " وصف إفريقيا " للحسن بن محمد الوزان الزياتى / ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / ص١٣٩/هـ ١٤١.

قطر جزيرة سردينية) .. إلى أزيد من مائة ميل " (١) . وجاء فى وصف أحد المعابد الفرعونية فى مدينة إخميم المصرية : " قد قام هذا الهيكل على أربعين سارية .. دور كل سارية منها خمسون شبرا " (٢) . وقال فى البيت الحرام : " ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة المستحسنة " (٣) وقال فى وصف أحد الجدران فيه : " ودور الجدار رخام كله مجزّع بديع الإلصاق " (٤) . وفى وصف بلاط الحجر فى المسجد الحرام أيضا : " وهو مفروش بالرخام المجزع المقطع فى دور الكف إلى دور الدينار إلى مافوق ذلك " (٥) . وفى بئر زمزم : " ودوره أربعون شبرا " (٦) . وفى محراب المسجد : " وسُمّر دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله " (٧) . " فجُعل دائره الأعلى كله شمعا " (٨) . وفى وصف أحد المصانع (أى أحواض الماء) المتناثرة على الطريق : " وبإزائه مصنع كبير الدور من أوسع مايكون من الصهاريج وأعلاها " (٩) . وفى جامع مدينة حرّان : " وفى الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار ، وفى وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا " (١٠) . وفى وصف بعض الأعمدة التى تحمل قبة جامع

١- ص/١٠.

٢- ص/ ٣٦.

٣- ص/٦٠.

٤- ص/٦٤.

٥- ص/٦٤.

٦- ص/٦٦.

٧- ص/١٢٨.

٨- ص/١٢٩.

٩- ص/١٨٤.

١٠- ص/٢٢١.

دمشق والتى يسميها " أرْجُلاً " : " فيكون دور كل رجل منها أثنين وسبعين شبرا " . وفى حوضين رآهما فى جامع دمشق : " ودور كل منهما نحو الأربعين شبرا " (١) . وفى قبة الوصاص فى الجامع المذكور : " ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة " (٢) .. إلخ .

إن " الدّوْر " مصدر " دار يدور " واسم منه أيضا ، " والدائر " اسم فاعل من نفس الفعل . ولم أجدهما فى المعاجم التى رجعت إليها بالمعنى الذى استخدمهما فيه ابن جبير (٣) . ولست أقصد بهذا تخطئته ، ولكنى أشير فقط إلى أن فى لستعماله للغة كما هو واضح حرية لاتجعله يقف عند ما أثبتتـــــه المعاجم فقط . والمعاجم على كل حال إنما تورد ماقاله الأدباء الكبار من شعراء وكتاب . وكان ينبغى ألا تقف عند تسجيل استعمالات الأدباء القدماء فقط ، فإنهم لايمثلون كلّ اللغـــة ، لأن اللغة لم تتوقف عند العصور القديمة ، بل هى مستمرة الحركة والتطور . ولا أدرى لماذا يُنْظَر إلى المتنبى مثلا والجاحظ وابن المقفع والشريف الرضىّ والبهاء زهير وشوقى والعقاد والمنفلوطى وأحمد حسن الزيات .. إلخ على أنهم أدنى معرفة باللغة من امرىء القيس وطرفة والأعشى وحسان والفرزدق وجرير ؟ إن أولئك يعرفون اللغة كما كان هؤلاء يعرفونها ، بل ربّما كان أولئك أكثر تعمقا فيها بحكم ثقافتهم الأوسع وإلمامهم بماجدّ فى ميادين علوم اللغة وغيرها ، مما لم يكن هؤلاء القدماء يلمون ولايعشر معشاره . ثم إن

١-ص/٢٤٦.

٢- ص/ ٢٦٦.

٣- بالنسبة لكلمة " دور " ، ورد فى " أساس البلاغة " الآتى : " وانفسح دور عملته وأدوارها " . كما ورد فى " تكملة المعاجم العربية " لدوزى : " ودور الكواكب : مداره " . ولعلهما أقرب شىء إلى استعمال ابن جبير .

أما " دائر " فلم أجدها فىأى من المعاجم التى رجعت إليها والتى سوف أذكر أسماءها بعد قليل عند وصولى إلى كلمتى " قبلى " و " جوفى " اللتين تكرر استعمال رحالتنا لهما ، اللهم إلا فى " تكملة المعاجم العربية " لرينارت دوزى . جاء فيه : " دائر : حافة ، حاشية ... ، إطار ... ، سياج ، حائط ، سور ، نطاق . (و) دائر المدينة : شارع عريض تكتنفه الأشجار يحيط بالمدينة " .

أولئك عرب كما كان هؤلاء عربا ، واللغة لغتهم كما كانت لغة هؤلاء . ينبغى إذن ألا نخطىء ابن جبير لأنه استخدم كلمتى " دور " و " دائر " فى معنى لم تورده المعاجم لهما ، إذ كل مافعله رحالتنا الأندلسى ، رحمه الله ، هو أنه توسع فى استعمالهما . واللغة لاتأبى هذا ، بل هى فى جانب كبير منها قائمة عليه . إننا لو رفضنا التوسع فى الاستعمال اللغوى كباب من أبواب إغناء اللغة فإنها ستبقى ضيقة خانقة لاتقوم بحاجة مستعمليها .

وبالمناسبـــــة فإن ابن عبدالسلام الدرعى المغربى ، وهو رحالة مغربى شهير جاء بعد ابن جبير بقليل ، ونقل عنه فى رحلته وترجم له ، قد استخدم هذه الكلمة بهذا المعنى ، وذلك فى قوله : " ودور (الصهريج) الكبير نحو الثلاثين ذراعا " (١) .

وقريب من ذلك استخدام أبى دلف (رحالة مشرقى عاش فى القرن الرابع الهجرى) فى رحلته لكلمة " استدارة " بهذا المعنى . قال : " وشاهدت .. بحيرة تكون استدارتها نحو جريب " (٢) .

ومادمنـــا فــى مجال الهندسة والعمارة فإن فى رحلة ابن جبير كلمتين أخريين تترددان وتتصـــــلان بهذا المجال ، وهما كلمتا " التكسير " و " التذريع " ، بمعنى " (حساب) مساحة شىء ما " . وهذه بعض أمثلة :

فمن ذلك قوله عن المسجد الحرام : " والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات .. ذرعها فى الطول أربعمائة ذراع ، وفى العرض ثلاثمائة ذراع ، فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مرجعا " (٣) ، وقوله عن مسجد رسول الله عليه السلام : " وألفيت بخط .. أبى جعفر الفنكى القطبى أن .. طول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع ، وعرضه مئتان .. ، فيكون تكسيره أربعة وعشرين مرجعا من المراجع المغربية ، وهى خمسون ذراعا فى مثلها ،

١- انظر حمد الجاسر / ملخص رحلتى ابن عبدالسلام الدرعى المغربى / ط٢/دار الرفاعى / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣/ص ٥٣.

٢-الرسالة الثانية لأبى دلف / نشر وتحقيق بولغاكوف وخالدون / ترجمة د محمد منير مرسى / ط. عالم الكتب / ١٩٧٠/ص ٧٩.

٣- ص/ ٦٧.

وطول مسجد بيت المقدس سبعمائة وثمانون ذراعا ، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا .. فيكون تكسيره من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعا وخمس مرجع " (١) ، وعنونته للفصل الذى خصصه لقياس أطوال مسجد دمشق : " ذكر تذريعه ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته " (٢) ، وقوله تحت ذلك مباشرة : " ذرعه فى الطول .. مائتا خطوة .. ، وذرعه فى السعة .. مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة .. فيكون تكسيره من المراجع المغربية أربعة وعشرين مرجعا ، وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣) .

وقد وجدت أبادلف مثلا يستخدم هذه الكلمة أكثر من مرة فى " الرسالة الثانية " (٤) ، وكذلك صاحب كتاب " مجموع المفترق " (٥) .

وهذه الكلمة رغم قدم استعمالها فى هذا المعنى ، كما نرى ، لاتوجد فى معجم كـ " القاموس المحيط " ولا فى " المعجم الوسيط " ولا " الصحاح فى اللغة والعلوم " . أما " أساس البلاغة " فكل ماورد فيه : " كسّر : ضرب الحسّاب الكسور بعضها فى بعض " ، وهو معنى يقترب إلى حد ما من المعنى الذى نحن بصدده . وجاء فى "تاج العروس " أن " التكسير " قد يستعمل بمعنى " المساحة " . كما جاء فى " محيط المحيط " للبستانى : " والتكسير عند المهندسين يستعمل بمعنى المساحة " . كما ذُكر هذا المعنى فى " المنجد " ، وهو نفس المعنى الذى استعملها فيه ابن جبير . كما أن المستشرق فانيان Fagnan قد ذكر فى معجمه " إضافات إلى المعاجم العربية :Additions aux dictionnaries arabes" شيئا قريبا من هذا ، إذ فسّر " يكسّر " بأنها " يضرب عددا فى عدد : multiplier" ، وفسر " مكسّر " بأنه " المربع carré cube".

١- ص/٨١.

٢- ص/٢٣٦.

٣-ص/٢٣٦-٢٣٧.

٤-ص/٣٣،٤٨،٧٨مثلا.

٥-انظر " نفح الطيب " للمقرى / تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد / دار الكتاب العربى / بيروت /جـ٢/ص٨٤

ومعروف أن " المساحة " تتأتى من ضرب العدد الذى يمثل "الطول " فى العدد الذى يمثل " العَرْض " ، وإذا كان " الطول " يساوى " العَرْض " فإن المساحة تكون على شكل " مربع " .

وابن جبير يستخدم أحيانا ، بدل كلمة "العرض ، كلمة " السّعة ، كما فى النصوص التالية :

" طوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا ، وسعته مائة وستون ذراعا " (١) . وفى وصفه لباب البيت الحرام : " وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا " (٢) . وفى مقام إبراهيم عليه السلام : " وهو حجر مغشّى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين " (٣) ." وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعُقد " (٤) ." فى ارتفاعه أزيد من شبر ، فى سعته شبران أو أزيد قليلا " (٥) . " وطول الغار ثمانية عشر شبرا ، وسعته أحد عِشر شبرا فى الوسط منه " (٦) .

وقد لاحظت أن ابن جبير قد تكرر استخدامه للفعل " كال " فى قياس أطوال الأشياء كنوع من التوسع فى التعبير ، وإلاّ فـ " كال " معناها فى الأصل قياس الحبّ والدقيق وما أشبه بالكيل .

جاء فى وصف أحد الهياكل المصرية القديمة : " والسوارى كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها . وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبتها التى تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ما كلنا فيه ستة وخمسين شبرا طولا وعشرة أشبار عرضا وثمانية أشبار ارتفاعا " (٧) . ويقول فى الكلام عن المسجد الحرام : " وبين الركن العراقى وبين أول

١- ص/٣٦.

٢- ص/٦٠.

٣-ص/٦٢.

٤-ص/٦٦.

٥- ص/٦٩.

٦-ص/١٤٠.

٧-ص/ ٣٦.

جدار الحِجْر مدخل إلى الحِجْر سعته أربع خطا ، وهى ســـــت أذرع محققة كلناها باليد " (١) . وعن الكعبة : " فدل ذلك على أن الكعبة المقدسة فى وسط المسجد ، وكان يظن بها الانحراف إلى جهة باب الصفا ، فاختبرنا جوانبها المباركة بالكيل ، فوجدنا الأمر صحيحا " (٢) .

ومـــن الكلمات التـــى يكثـــر مـــن استعمالهـــا ابـــن جبير لفظا " القبلى " و " الجوفى " ، أو " القبلة " و " الجوف " ، وذلك فى كلامه عن الجهات الجغرافية (٣) . فأما " القبلة " والنسبة إليها (قبلى) فمفهوم أمرهما . وأما " الجوف " فيبدو أنه فى الأصل جوف المسجد (أى الجهة المقابلة للقبلة) . وقد لوحظ أنه استخدم كلمة " القبلى " و " الجوفى " فى كثير من الأحيان للدلالة على الجنوب والشمال على الترتيب . ولكن كيف تدل كلمة " قبلى " على الجنوب واتجاه القبلة كما نعرف يتغير حسب موقع كل بلد ؟

إن الأستـــاذ عبدالقدوس الأنصارى ، رحمه الله ، يرى أن تفسير ذلك هو أن ابن جبير قد جرى فى هذا " على تعبير أهل المدينة المنورة ومافى شمالها من المدن ، لأن القبلة تقع فى جنوبهم فيسمون مايقع جنوبهم باسم " القبلة " تسميةً للمحل باسم الحالّ فيه ، فهو من المجاز المرسل ويبـــــــدو لنا أن هذه الصيغة من ملتقطات ذاكرة ابن جبير من لهجة أهل المدينة ولاتزال " (٤) . وعـــــلى هـــذا التفسير فينبغى ألا يكون ابن جبير قد استعمل هذه اللفظة قبل وصوله إلى المدينة المنورة والمدن التى فى شمالها ، مادمنا نعرف أنه كان يكتب رحلته أوّلاً بأول على شكل أشبه باليوميات . وكذلك ينبغى ألا يكون استخدمها فى معنى " الجنوب " فى البلاد التى لاتقع فيها الكعبة فى جنوبها . فهل هذا صحيح ؟

١- ص/ ٦٣.

٢- ص/ ٨٦

٣- انظر على سبيل المثال ص/ ٤١،١٥٢،١٧٢،١٨٨،٢٢٧،٢٢٨،٢٣٠،٢٣١،٢٣٢،٢٣٦،٢٣٧،٢٣٨،٢٣٩،٢٤٢،٢٥٢،٢٥٤ ـ إلخ

٤- مع ابن جبير فى رحلته / ص ٢٠٩/هـ ٢.

لقد وصلت الرحلة إلى المدينة المنورة عند الصفحة السابعة والستين بعد المائة ، ومع ذلك فإننا نقرأ قوله يصف موقع أبى الهول فى الجيزة فى الصحفة التاسعة والعشرين ، أى قبل أن يصل إلى المدينة ، بل قبل أن تطأ رجله أرض الجزيزة العربية بوقت طويل :" وجهه إلى الأهرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل " . وبرغم الخطإ فى تحديد اتجاه أبى الهول بالنسبة للأهرام وبرغم اضطراب العبارة فيما يبدو بالنسبة للنيل فمن الواضح أن ابن جبير يربط بين القبلـــة والجنوب ، رغم أن قبلة مصر ليست إلى الجنوب ، بل إلى الجنوب الشرقى كما هو معلوم .

وعنـــد كلامه عن عيذاب (ميناء مصرى قديم على البحر الأحمـــــر) فـــى صفحـــة ٤١ يقـــول : " أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه إلى المبرز ، وهو موضع بقبلى البلد " ، وإن كنا فى الحقيقة لاندرى أى اتجاه يقصد هنا ، لأن السياق لايساعد علـــى ذلك . المهم أنه استخدم كلمة " قبلى " قبل وصوله إلى المدينة المنورة بل إلى الجزيرة العربية . فإذا كان استعملها فـــى معنـــى " الجنوبى " فهو دليل على أنه لم يجر فى هذا على عرف أهل المدينة ومافى شمالها من المدن ، بل على عرف أهل مصر . وإن كان استعملها بمعنى " الغربى " مثلا فهو دليل على أنه لم يكن يستخدم هذه الكلمة دائما بمعنى " الجنوب " .

وفى عرفات نجد ابن جبير يُنبّه إلى أن " القبلة فى عرفات هى إلى مغرب الشمس ، لأن الكعبة المقدسة هى إلى هذه الجهة منها " (١) .

ذلك ، ولا أذكر أنى صادفت كلمة " قبلى " (ولاكلمة " جوفى ") فى غير هذه المواضع الثلاثة . وسبب ذلك فيما أحسب هو أنه لم يصف أى مسجد قبل ذلك (وهو الموضع الذى يهتم فيه غالبا بتحديـــد جهات أقسامه وأجزائه) فيما عدا المسجد الحرام ، الـــذى لايمكـــن أن يقـــال فيه " قبلى " ، إذ لايمكن نسبته إلى نفسه ، لأنه هو نفسه القبلة . إنما كان يستخدم فيه كلمات

١- ص/ ١٥٢.

"شمـــــال" و "جنـــوب" و "شرق" و "غرب"، أو يقول مثلا: "الركن العراقى" و "الركن الشامى" و "الركن اليمانى" (١).

هذا قبل وصوله إلى المدينة، أما بعد تركه لها فإننا نجده مثلا فى حديثه عن جامع الكوفة يقول: "وهو جامع كبير، فى الجانب القبلى منه خمسة أبلطة (أبهاء). وفى سائر الجوانب بلاطان". "وفى الزاوية من هذا البلاط القبلى المتصل بآخر البلاط الغربى شبيـــه مسجد صغير". "ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد". "وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير ... وفى جوفى الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات" (٢).

فهل يراد بالجانب "القبلى" هنا الجنوب وبـ "الجوفى" الشمال؟ لا أظن. ذلك أن الحديث هنا عن مسجد فى الكوفة، وقبلة مساجد الكوفة ليست إلى الجنوب، بل إلى الجنوب الغربى. إنما التجوز فى كلام ابن جبير هو، فيما يبدو لى، فى إشارته هنا إلى "الشرق" و "الغرب"، لأنه إذا كان الجدار القبلى للمسجد هو إلى الجنوب الغربى، والجوفـى إلـــى الشمــــال الشرقى، فإن الجدارين الآخرين هما إلى الشمال الغربى (لا الغرب) والجنوب الشرقى (لا الشرق). ومثله فى هذا قوله: "ويسكن فى إحدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم (جامع مدينة نصيبين) الشيخ أبو اليقظان" (٣).

أما لفظ "القبلى" فى قوله عن نصيبين أيضا: "وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلى" فلا أظنه يعنى إلا "الجنوب"، إذ الكلام عن موقع

١- انظر على سبيل المثال ص/ ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١. ومن الطريف أن التجيبى فى "مستفاد الرحلة والاغتراب" قد استخدم الصفة "قبلى" فى تحديد أحد الجدران بمكة نفسها. ويبدو أنه كان يقصد بذلك الجهة الجنوبية.

٢- ص/ ١٨٧، ١٨٨.

٣- ص/ ٢١٥.

بناء عادى لامسجد (١).

إذن فتفسير الأستاذ الأنصارى لسر استعمال ابن جبير لمصطلـــح "القبلى" غير مقنع فيما يبدو. ويؤكد هذا أننا فى مصر نطلق لفظة "القبلى" على الجنوب، مع أن قبلتنا ليست إلى الجنوب، بل إلى الجنوب الشرقى. وليس هذا الاستعمال المصرى استعمالا حديثا أو مقصورا على العامة، فقد صادفته مثلا عند غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (وكان نائب السلطان بالثغر فى عهد الملك الأشرف وتزوج أخت زوجته) فى كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" (هكذا: "القبلى والبحرى") (٢). كذلك فإن على باشا مبارك يستخدمه فى تحديد مواقع البلاد فى "الخطط التوفيقية".

كذلك فقد وقعت على لفظة "القبلى" مستعملة عند عدد من الكتاب غيـــر ابن جبير مقصودا بها الجنوب، رغم أن قبلتهم ليست إلى هذه الجهة بالضبط. ومن الصعب القول إنهم جميعا قد أخذوا هذا الاستعمال عن أهل المدينة المنورة أو أهل المدن الواقعة شمالها.

يقول اليعقوبى عن أهل القيروان: "ولهم وادٍ يسمى وادى السراويل فى قبلة المدينة" (٣).

ويقول ابن حيان القرطبـــى: "ويأوى ليلة إلى بيت فى دويرة والده محمد بجوفى المسجد الجامع" (٤). ويقول أيضا: "من أبواب القصـــر القبليـــة" (٥). ويقـــول أبـــو عبيـــد

١- أما كلمة "الجوفى" فى النص التالى فتعنى "الشمال"، ذلك أن الكلام فيه عن مواقع مدن لامسجد. ويؤكد هذا أنه لم يستخدم فى مقابل "الجوفى" هنا "القبلى"، بل "الجنوب": "وهذه البلاد ـ المعروفة بديار ربيعة، وحدّها من نصيبين إلى الفرات مع مايلى الجنوب من الطريق وديار بكر التى تليها فى الجانب الجوفى ـ ليس فى ملوكها من يناهض صلاح الدين" ص/ ٢٢٢. ومثله فى ذلك النص التالى أيضا: "ولها (أى منبج) قلعة حصينة فى جوفيها" ص/ ٢٢٤.

٢- ص/ ٢٢٥.

٣- انظر ص/ ١٠٠ من كتابه "البلدان" / ط٢/ النجف الأشرف / ١٩٥٧م.

٤- المقتبس من أبناء أهل الأندلس، لابن حيان القرطبى / تحقيق وتقديم د محمود على مكى / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م/ ص ١٠٥.

٥- أى قصر الخلافة بقرطبة (المقتبس / ص ١٥٩).

البكرى (القرن الخامس الهجرى) : " وهى (أى تلمسان) مدينة مسورة ... ، ولها خم[س] أبواب: ثلاثة منها فى القبلة ... وفى الشرق باب العقبة ، وفى الغرب باب أبى قرة ... ومدينة أرشقول .. لها من الأبواب باب الفتــــوح غربى ، وباب الأمير قبلى ، وباب مرنس شرقى .. وأمنع جهات جوفيها .. ولها ربض من جهة القبلة إلى الجوف " (١).

كما استعمل ابن بطوطة أيضا عبارة " من القبلة إلى الجوف " بنفس المعنى عند ابن جبير (٢) وورد عنده عبارة " الباب الجوفى " ، أى " الشمالى " (٣).

ويقول لسان الدين بن الخطيـــــــب : " ولم يكن إلا كَلاّ ولاَ حتى تداعى النّبا من عرض القبلة " (٤) : وقد فسر محقق الكتــــــاب (دمختار العبادى) فى الهامش كلمة " القبلة هنا هكذا : " المقصود بكلمة القبلة هو الجنوب ، وتقابلها كلمة الجوف بمعنى الشمال " (٥) وقال ابن الخطيب أيضا عن مقبرة المعتمد بن عباد بالمغرب " وهو بالمقبرة القبلية " (٦).

وقد تكرر استخدام تعبير " من القبلــــة إلى الجوف " فى " نفح الطيب " للمقرى (٧).

وفى أثنــــاء حديــث د. السيد عبدالعزيز سالــــم (وهو أستاذ مصرى متخصص فى التاريخ الأندلسى) عن تصميم المدارس السنّية فى المغرب نــــراه يقول : " وتحيط به (أى بصحن المدرسة) من الشمال والشرق غرف صغيرة ضيقة أعدت لإقامة الطلبة . أما الجهة القبلية التى كانت تقع عادة قبالة المدخل الرئيسى فكانت تشتمل على المصلى " (٨).

١- أبوعبيد البكرى / كتاب المسالك والممالك / مكتبة المثنى ببغداد / ٧٦-٧٨.

٢- رحلة ابن بطوطة / ص ٣٧٢،٨٨،٥٧.

٣- ص / ٩٢.

٤- ابن الخطيب / نفاضة الجراب / تحقيق د. أحمد مختار العبادى / دار الكاتب العربى للطباعة والنشر / جـ٢/ص ٢٢٩.

٥- نفس المرجع السابق والصفحة / هـ٢.

٦- نفس المرجع /ص ٥٧.

٧- انظر مثلا ص/٨٧،٨٤حيث ترد على الترتيب فى نصين لصاحب كتاب " مجموع المفترق" وابن بشكوال.

٨- من كتابه " مدارس فاس ". نقلا عن د. حسن الباشا / مدخل إلى الآثار الإسلامية / دار النهضة العربية / القاهرة /١٩٧٩/ص١٦٣.

ويذكر أحمد عبدالرحمن السماوى ، نقلا عن كتب التاريخ ، أن أهل طليطلة ، رغم سقوطها فى أيدى الأسبان فى أواخر القرن الحادى عشر ، قد توارثوا (حتى النصارى منهم) بعض الشعائر الإسلامية ، كنحو الذبائح يوم عيد الأضحى ، والامتناع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ... ، وتحديد حدود الشيء من ناحية الجنوب بالقبلة " (١). وإن عاد فقال إن مما كانت السلطات الأسبانية النصرانية تستدل به على أن المسلم الذى عمده القساوسة قسرا كان لايزال مسلما فى قلبه أن يستقبل المشرق فى صلاته ، أى القبلة (٢) . على أية حال ، فالقبلة فى الأندلس كانت إلى الجنوب الشرقى.

وهناك رواية أوردها كما قرأتها ، دون تعليـــــق رغم استغرابى لها ، تقول إن اتجاه محراب جامع قرطبة (حتى الآن) نحو الجنوب . ويقال إنّ الحكـــم أراد أن يوجه القبلة الاتجاه الصحيح ، ولكن القاضى نصحه بأن يبقيها على ماكانت عليه ، حيث صلى إليها خيار الأمة وعلماؤها منذ موسى بن نصير ، وأن الأفضل الاتباع لا الابتداع (٣).

وفى " معجم المصطلحات الجغرافية " للدكتور يـــوسف تـــونى " (٤) وجدت فى مادة " قبلى " الآتى : " قبلى : ١- من القبلة . وفى مصر يقصد بها الاتجاه الجنوبـــــى أو الجنوبـــــى الشرقى ٢- رياح محلية جنوبية حارة من نوع السيروكو أو الخماسين تهب على ليبيا وشمال إفريقية ".

ولم أجد فيه كلمة " جوفى " ، ولا وجدتها فى " معجم المصطلحات الجغرافية " (إصدار مجمع اللغة العربية) (٥) . الذى لم يورد فى مادة " القبلى " إلا الآتى : " القبلى : ريح محلية ساخنة

١- رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس الفردوس المفقود / دار الفكر بدمشق / ط/١٤٠٣هـ ١٩٨٣م / ص ١٠٩.

٢- ص / ١٦٥.

٣- انظر د. عبدالعزيز الدولاتلى / مسجد قرطبة وقصر الحمراء / دار الجنوب للنشر / تونس /ص٧٨، وأحمد عبدالرحمن السماوى / رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس / ص٧٠-٧١.

٤- ط دار الفكر العربى /١٩٦٤.

٥- الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية / القاهرة / ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

تربة تهب من الجنوب . يغلب استعمال المصطلح فى ليبيا والمغرب ".

أمـــا فـــى المعاجم اللغوية فلم أجد " القبلى والجوفى " بهذا المعنى فى " القاموس المحيط " ولا " معجم مقاييس اللغة " لابن فارس ، ولا فى " جمهرة اللغة " لابن دريد ، ولا فى "المقرّب فى ترتيب المعرّب " للمطرزى ، ولا فى " أساس البلاغة " للزمخشرى ، ولا فـــى " المشوف المعلم فى ترتيب الإصلاح على حروف المعجم " للعكبرى ، ولا فى " معجم متن اللغة " لأحمد رضا ، ولا فى " الإفصاح فى فقه اللغة " لموسى والصعيدى ، ولا فى " أقرب الموارد " للشرتونى ، ولا فى " المعجم الوسيط ".

وكذلك الحال فى " لسان العرب " . ومع ذلك فقد ورد فيه هذا النص الهام (مادة " قبل ") : "وفى حديث ابن عمر : " مابين المشـــرق والمغرب قبلة " أراد به المسافر إذا التبست عليه قبلته ، فأما الحاضر فيجب عليه التحرى والاجتهاد . وهذا إنما يصح لمن كانت القبلة فى جنوبه أو شماله . ويجوز أن يكون أراد به قبلة أهل المدينة ونواحيها فإن الكعبة جنوبها ". وأهمية هذا النص تكمن فى قراءته فى ضوء الرواية التى أوردتها قبل قليل عن كون قبلة جامع قرطبة كانت إلى الجنوب وليس إلى الكعبة بالضبط .

وفى " إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس " لمحمد بن الطيب بن محمد الفاسى : " القبلى منسوبة إلى القبلة .. وهى جهة الصلاة وناحية الكعبة المشرفة " . هذا كل ماهنالك .

وفى " محيط المحيط " للبستانى : " والعامة تستعمل القبلة لجهة الجنوب .. والقبلى : نسبة إلى القبلة ".

وفى " تكملة المعاجم العربية " لرينهارت دوزى : " جوفى : شمالى . ويكثر المصنفون المغاربة من استعمالها . وريح جوفى : ريح الشمال " . وهو الوحيد ، من بين المعاجم التى رجعت إليها ، الذى وجدت فيه هذا . ويتفق عبدالقدوس الأنصارى معه فى ذلك ، إذ يقول : " يقصد ابن جبير بالجهة الجوفية الجهة الشمالية . وهذه الصيغة حملها معه فى رحلته من بلاده ،

التى تسمى جهة الشمال جوفا " (١) .

وفـــى " المنجـــــد " : " الجنوب .. النقطة المقابلة لنقطة الشمال ، وتسمى القبلة " . والغريـــب أننى عثـــرت فيه على ذلك بالمصادفة ، إذ لم أجده فى مادة " قبل " ، بل فى مادة " جنب ".

وفى " الصحاح فى اللغة والعلوم " (لنديم وأسامة مرعشلى) وردت " القبلى " (مادة " قبل ") بمعنى : " ريح محلية ساخنة تربة تهب من الجنوب . ويغلب استعمال المصطلح فى ليبيا والمغرب العربى " . وواضح أنه نقل هذا التعريف من معجم المجمع اللغوى للمصطلحات الجغرافية . أمـــا " الجوفى " (مادة " جوف ") فقد ورد فيه الآتى : " شىء جوفى : واسع الجوف ".

ومن بين الكلمات التى تبرز فى الرحلة كلمة " بلاط " . وقبل أن أشرح معناها أسوق الشواهد عليها :

قال فى وصف المسجد الحرام : " والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد .. ومابين البلاطات فضاء كبير .. وعدد سواريه الرخامية أربعمائة سارية وإحدى وسبعون سارية ، حاشا الجصيّة التى منها فى دار الندوة .. وهى داخلة فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال . وفضاؤها متسع يُدْخَل من البلاط إليه . ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسىّ حنايا يجلس فيها الناسخون والمقرئون وبعض أهل صنعة الخياطة . والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم . وفى جدار البلاط الذى يقابله أيضا مصاطب تحت حنايا على تحت الصفة ، وهو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق . وسائر البلاطات تحت جدرانها مصاطب دون حنايا عليها .. وعند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب .. وباب الصفا يقابل الركن الأسود بالبلاط الذى من الجنوب

١- مع ابن جبير فى رحلته / ص٢٠٩/هـ٢.

إلى الشرق . وفى وسط البلاط المقابل للباب ساريتـــان مقابلتان الركن المذكور " (١) . " و
أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة " (٢) .

وفى وصف جامع حران : " والجامع المكرّم سُقّف بجوائز الخشب والحنايا . وخُشُبه ع
طوال لسعة البلاط . وسعته خمس عشرة خطوة . وهو خمسة أبلطة " (٣) .

وفى جامع حلب : " وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، وقد أطاف بصحنه الواسع بلا
متسع مفتح كله أبوابا قصرية الحسن إلى الصحن .. والبلاط القبلى لامقصورة فيه " (٤) .

وفى جامع دمشق : " وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب ، سعة ك
بلاط منها ثمانى عشرة خطوة .. وقد قامت على ثمانية وستين عمودا .. ويستدير بالصحن بلا
من ثلاث جهاته .. سعته عشر خطا .. وفى الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاط
القبلية عشرون بابا متصلة بطول الجدار . والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات
ثلاث جهات ، على أعمدة " (٥) .

وفى الكلام عن " بالرم " : " وفى خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطا متصلا مشينا ف
مسافة طويلة ، وهو مسقف ، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء ، فأعلمنا أن ذلك البلا
ممشى الملك إلى الكنيسة " (٦) .

والآن بعد هذه النصوص ، ملمعنى "البلاط " عند ابن جبير ؟ يقول د. احمد هيكل
الأنـــدلسيين كانوا يطلقون " البلاط " على " البناء المحسن " (٧) ، فهل هذا معناه فى هذ

١- ص/٦٧-٦٨.

٢- ص/٧٦.

٣- ص / ٢٢١.

٤- ص / ٢٢٧.

٥- ص/٢٢٧،٢٣٩.

٦- ص/٣٠٤.

٧- د.أحمد هيكل / الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة / دار المعارف / ط ٧/١٩٧٩م/ص ٤٢.

النصوص ؟ كلا . فهل يكون معناها ماجاء فى " تاج العروس " و " محيـــط المحيط " من أن "البلاط " هو " الأرض المستوية الملساء ، وكل أرض فوشت بالحجارة والآجُرّ " ؟ ولا ذلك أيضا .

لقد وردت هذه الكلمة فى رحلة ابن بطوطة (١) وفى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى (٢) . لكن النصوص التى وردت فيها فى هذين الكتابين لاتساعد على فهم المراد منها بالضبط . ولولا أننى عثرت فى " نفح الطيب " للمقرى على النص التالى لظللت متحيرا فى معناها . وهذا النص هو قوله عن جامع قرطبة إن " عدد أبهائه .. تسعة عشر بهوا ، وتسمى البلاطات " (٣) .

وقبل وصول ابن جبير (فى طريق العودة) إلى الشام ، نراه يستعمل كلمة " فندق " للبيت الذى ينزله المسافرون : " وكان نزولنا بها (بالإسكندرية) بفندق يعرف بفندق الصفار ، بمقربة من الصّبانة " (٤) . " وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الثناء فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فى حجـــرة كبيـــرة على باب الفندق المذكور " (٥) . " وكان نزولنا فيها (فى قوص) بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى ربض كبير خارج المدينـــــة ، على باب الفندق المذكور" (٦) . " وفيها (أى جدة) فنادق مبنية بالحجارة والطين " (٧) . وقال عن دار الخيزران بمكة : " ويُنْحَل إليها على حَلَق كبير شبيه الفندق " (٨) .

١- ص/ ٩١،١١٤ مثلا.

٢- ص/ ١٦٩،٢٤١،٢٤٢ مثلا.

٣- نفح الطيب / مجلد ٢/ص٨٧.

٤- ص / ١٢.

٥- ص/١٩.

٦- ص/٤٦.

٧- ص/٥٣.

٨- ص/١٤٥.

أما فى العراق والشام فكان يقول " الخان " بدلا من ذلك : " وفى هذه القرية المذكورة (قر الفراش العراقيـة) خان كبير يدور بهجدار عال له شرفات صغار " (١) . " وبنى أيضا داخل ال (الموصل) وفى سوقـه قيساريه للتجار كأنها الخان العظيم " (٢) . " وفى محلات الطريق (من الموصل إلى نصيبيـن) خانات " (٣) . " فكان نزولنا بها (أى بنصيبين) فى خا خارجها " (٤) . " فإن لها (لحلب) ربضا كبيرا فيه من الخانات مالايحصى عدده .. فك نزولنا بربضه فى خان يعرف بخان أبى الشكر " (٥) . " ثم نزلنا (بعد تركهم قنسرين) مريح بموضع يعرف بباقلين فى خان كبير يسمى بخان التركمان . فخانات هذا الطريق كأنها القلا لمتناعا وحصانة .. ثم رحلنا من هذا الموضع وبتنا بموضع يعرف بتمنّى فى خان وثيق عل الصفة المذكورة " (٦) " نزلنا بربضها (أى " حماة ") فى أحد خاناته " (٧) . " وربضها كبير الخانات والديار " (٨) . " فوصلنا إلى مدينة حمص .. فنزلنـا بظاهرها بخان السبيل " (٩) " وبها (أى قرية القارة) خان كبير .. فأرحنا بالخان المذكور .. وأسرينا الليل كله فوصل إلى خان السلطان مع الصباح . وهو خان بناه صلاح الدين .. وفى هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية فى وسط الخان " (١٠) .

١- ص/١٩١.

٢- ص/٢١٠.

٣- ص/٢١٣.

٤- ص/٢١٥.

٥- ص/٢٢٨.

٦- ص/٢٢٩.

٧- ص/٢٢٩.

٨- ص/٢٣٠.

٩- ص/٢٣١.

١٠- ص/٢٣٣.

وهذه الكلمة " خان " فارسية الأصل (١) .

وقـد خصص عبدالقدوس الأنصارى فى كتابه عن رحله ابن جبير ، للفنادق والخانات فى هذه الرحلة فصلا مستقلا . والذى يهمنا مما قاله هو قوله إنه قد توصل من دراسة رحلة ابن جبير أن أهل الشام وأهل العراق وديار بكر يسمون مايعرف لدىأهل مصر والحجاز بالفندق " خانا " . وقد اهتدى فى ذلك بما جاء فى " لسان العرب " و " تاج العروس " (٢) .

إذن فابن جبير قد جرى فى استعمال "الفندق " تارة و " الخان " تارة أخرى على العرف اللغوى فى البلاد التى نزل فيها أو مرّ بها .

ومن الكلمات التى يكثر ابن جبير من استعمالها " الخوانق " و " الزوايا " و " الرُبَط " . وهذا راجع إلى اهتمامه بالأولياء والصالحين والمنقطعين للعبادة فى أبنية لهذا الغرض (٣).

وقد ذكر ابن جبير نفسه أن الخوانق والرُبُط شىء واحد . قال وهو فى العراق : " فالأيمن (أى النهر الأيمـن) يشـق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بإزاء العين ، وهى تسمى الرباط أيضا " (٤) . وقال وهو بالشام : " وأما الرباطات التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية " (٥) . ومما يفهم منه أن " الزوايا " هى الخوانق والربط قوله عن نورالدين زنكـى : " ومن مناقب نورالدين ..أنه كان عيّنَ للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة " (٦) . لكن يبدو أن الزوايا كانت جزءاً من المساجد

١- انظر " محيط المحيط " و " تاج العروس " و " المنجد " .

٢- مع ابن جبير فى رحلته / ص ١١١.

٣- يمكن العثور على الكلمة الأولى فى ص/ ٢٤٨،٢٤٤،٢١٨، ٢٦٣،٢٦٢،٢٥٦،وعلى الكلمة الثانية فى ص /٢٢٠،٢١٥، وعلى الثالثة فى ص/٢٥٧،٢٥٦،٢٤٨،٢١٨،٢١١،٨٢ مثلا .

٤- ص/ ٢١٨.

٥- ص/٢٥٦.

٦- ص/ ٢٥٧.

وليست مستقلة .

ولعله قد لوحظ أن ابن جبير يقول : " خانقة " (على وزن لسم الفاعل) خالعا على الكلمة ثو
عربيا ، أى أنه عرّب الكلمة الفارسية " خانقاه " ، التى كثيرا مانجدها عند غيره كما م
فى أصلها الأعجمى ، بالقاف حينا ، مثل المقدسى ، الذى يقول عن نفسه : " وأكلت مع الصوف
الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد " (١) ، والقاسم بن يوسف التجيبى (٢) ، ود حسن البا
الــذى يجمعها على " خانقاوات " (٣) ، وبالكاف حينا آخر (الخوانك) ، كابن خلدون (٤) .وفى
رحلة ابن بطوطة وردت على التحوين كليهما : معربة (٥) ، وبشكلها الفارسى ، بالقاف (٦) .

وقد ذكر مترجم " وصف إفريقيا " للحسن بن محمد الوزان ، بعد أن شرح معنى " الخانقاه "
بأنها " زاوية الصوفيين "، أنها " تكتب فى أيامنا خطأ على شكل خانقة " (٧) ، وهو ماتناق
النصوص الجبيرية التى سقناها آنفا ، فهى تدل على أن " خانقة " ليست وليدة أيامنا هذه ك
يفهم من كلام المترجم .

وفى أصل هذه الكلمة يقول محمد كرد على : " الخانقة كلمة فارسية ، قيل : أصلها خونكاه أ
الموضع الذى يأكل فيه الملك ، وهى زوايا الصوفية " ، ويمضى فيذكر تاريخ نشوئها فى الإسلا
قائلا إنها " لم تعهد على هذا النمط إلا فى القرن السادس . وأول من بناها من الملوك بمصر

١- كراتشكوفسكى / الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول / ص ٢١٣.

٢- انظر " مستفاد الرحلة والاغتراب " /ص١٠٢ وهو يجمعها على " خانقات " /ص ٤.

٣- مدخل إلى الآثار الإسلامية / ص ١٧٣.

٤- التعريف بحياة ابن خلدون شرقا وغربا / تحقيق محمد الطنجى / القاهرة / ١٩٥١م /ص ٣٢٦. وقد شرحها المحقق
الهامش هكذا : " الخانقاة بالكاف أو القاف : مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة ".

٥- ص/ ٣٧من الرحلة .

٦- ص/٥٩.

٧- د عبدالرحمن حميدة / وصف إفريقيا / ص٨-٦ /هـ ١٧١.

كما قال السيوطى ، السلطان صلاح الدين يوسف . ورتب للفقراء الواردين أرزاقا معلومة .
وقال المقريزى : إن الخوانك حدثت فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة " (١) .

وفى معجمه المسمى " قاموس الفارسية : فارسى - عربى " يقــول د عبدالنعيم محمد حسنين :
" خانقاه : ماكان يجتمع فيه الصوفية للذكر والعبادة ، التكية " (٢) .

وقد تحرفت هذه الكلمة فى العامية المصرية إلى " الخنكة " .

ولنفس السبب الذى تكرر من أجله فـــى رحلـــة ابن جبير كلمات " خانقة " و " رباط "
و " زاوية " ، وهو اهتمامه بزيارة الصالحين والعباد والزاهدين ، نرى كلمة " المشهد "
تـــردد فى الكتاب هى وكلمة " قبور " . والمقصود بـ " المشهد " : البناء الذى يضم قبر
الأولياء أو من يعتقد الناس فيهم الولاية .

يقــول فى بداية كلامه عن القاهرة : " فأول مانبدأ بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التى
بركتها يمسكها الله عز وجل . فمن ذلك المشهد العظيم الشأن ـ حيث رأس الحسين بن على
ابن أبى طالب ، رضى الله عنهما . وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بنى عليه بنيان
حفيل " (٣) . " بتنا بالجبانة المعروفة بالصراخة ، وهى أيضا إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى
عليه من مشاهد الأنبياء ... وآل البيت ... والصحابة والتابعين والعلماء والزهـــاد
والأولياء " (٤) .

ويقــول عن بلدة " زريران " العراقية : " ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها بمقدار
نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسى " (٥) . وعن البصرة : " وفى الطريق إلى باب البصرة مشهد
حفيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ومعين ، من أولاد أمير

١- محمد كرد على / خطط الشام / ط٢/بيروت / ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م/ حـ٦/ص١٣٠.

٢- مادة " خانقاة " .

٣- الرحلة /١٩.

٤- ص/ ٢٠. وقد تكررت هذه الكلمة كثيرا فى ص/٢١-٢٤.

٥- ص/١٩٢.

المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه . وفى الجانب الغربى أيضا قبر موسى بن جعفر رضى الله عنهما ، إلى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الأولياء والصالحين والسلف الكريم " (١) . وعن الرصافة : " وفى تلك المحلة مشهد حفيل البنيان .. فيه قبر الإمام أبى حنيفة .. وبالقرب من تلك المحلة قبر الإمام أحمد بن حنبل .. وفى تلك الجهة أيضا قبر أبى بكر الشبلى .. وقبر الحسين بن منصور الحلاج . وببغداد من قبور الصالحين كثير " (٢). وعن الموصل : " وخص الله هذه البلدة بتربة مقدسة فيها مشهد جرجيس ، صلى الله عليه وسلم . وقد بُنى فيه مسجد . وقبرة فى زاوية من أحد بيوت المسجد عن يمين الداخل إليه " (٣) .. إلخ ، وهو كثير .

وقد وجدت ابن جبير استخدم كلمة " مشهد " أيضا بمعنى " المنظر أو الشىء الذى يستحق المشاهدة " ، كدار الخيزران ودار أبى بكر الصديق وقبة عمر بن عبدالعزيز والبئر التى تحتها ، (وكل ذلك بمكة) (٤) ، وغار ثور (٥) ، وموكب الخاتونين وهما عائدتان من الحج (٦) . و" المشهد" فى الأصل هو " مكان استشهاد الشهيد " و " محضر الناس ومجتمعهم " (٧) ، ثم اتسع فيما يبدو ليشمل أيضا مدفن الشهيد ، ثم مدفن الأولياء والصالحين حيث يحضر الناس ويجتمعون .

وحين يشير ابن جبير إلى المستشفيات لايستعمل (فيما انتبهت) إلا كلمة " المارستان " .

١-ص/٢٠٢.

٢- ص/٢٠٢.

٣- ص/ ٢١١.

٤-ص/٩٢.

٥- ص/٩٣.

٦- ص/٢١٣ مثلا .

٧- انظر مثلا " الصحاح " و " محيط المحيط " و " المنجد "

ولم أره استخدم كلمة أخرى لها ، كالمستشفى أو المشفى أو دار الطب أو دار العلاج مثلا ، مما يمكن استخدامه فى هذا الموضع (١).

وفى " قاموس الفارسية " للدكتور عبدالنعيم حسنين : " المارستان : مستشفى " . وفى " المنجد " : " المارستان (بفتح الراء وكسرها) : دار المرضى . فارسية " . ويفصل صاحب " محيط المحيط " القول فى أصل اللفظ ، فيقول (بعد أن يعطى معناها ، وهو " دار المرضى ") إنه معرب " بيمارستان " بالفارسية ، وإن هذه مركبة من " بيمار " أى مريض ، و "ستان " أى موضع ، وإن جمعه " مارستانات " . كما ذكر أيضا أنه قيل إن هذا اللفظ لم يسمع فى الكلام القديم (٢) .

والفعل " هال " ، الذى يستخدمه ابن جبير للبحر حين يثور وتهيج أمواجه هو أيضا من الكلمات التى تكررت عدة مرات فى الرحلة . ومن ذلك قوله يصف اقترابهم من سردينيا "وقام علينا نوء هال له البحر " (٣) ، وقوله بعد اجتيازهم لهذه الجزيرة : " وفى يوم الأربعاء بعدها من أولها عصفت علينا ريح هال لها البحر " (٤) . ويقول عن أول مرحلة فى طريق العودة عن طريق البحر المتوسط : " والبحر فى أثناء ذلك هائل ، والريح لاتوافق " (٥) .

ولعله من " الهول " (أى " الإفزاع ") ، إذ ورد فى مثل هذه السياقات قوله : " وأجمع جميع من حضر من رؤساء البحر .. وممن شاهد الأسفار والأهوال فى البحر .. أنهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول " (٦) . " وأرانا بحر فرعون (البحر الأحمر) بعض أهواله

١- انظر مثلا ص/٢٦، ٢٠١، ٢١٠...٢١١، ٢١٥، ٢٢١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٠٣.

٢- انظر " محيط المحيط " / مادة " مرس " .

٣- ص/٩.

٤- ص/١٠.

٥- ص/٢٨٧.

٦- ص/١١.

الموصوفة " (١) . " كان نزولنا بجدة حامدين لله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه فى تلك الثمانية الأيام طول مقامنا فى البحر ، وكانت أهوالا شتى " (٢) . وقوله " وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجه وماج مائجه " (٣) . وقوله " ضربت وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب ... وتتابعت علينا عوارض ديم حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظلم ، وعباب البحر تتوالى صدماته ... وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ، ومكابدة أوجال ، ومقاساة أحوال " (٤) فيكون معنى " هال البحر " : " أفزع (المسافرين فيه) " ، من " هال (يهول) " بهذا المعنى . أما تفسير شارح ألفاظ الرحلة (فى ط. دار صادر وبيروت) لهذه الكلمة بـ " ثار وهاج " ، فهو من المجاز المرسل ، إذ البحر يُفزع ويخيف عندما يثور موجه ويهيج .

وهو يسمى " ربان السفينة " أحيانا بـ " الرائس " و " الرئيس " : " وأجمع من حضر من رؤساء البحر من الروم وممن شاهد الأسفار والأهوال فى البحر من المسلمين أنهم لم يعاينوا قط مثل هذا الهول " (٥) . " زعم ربان المركب ، وهو الرائس ، أن بين تلك الجبال التى لاحت لنا وبين جدة يومين " . " وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية فى التصرف بالحلية (نوع من المراكب) أثناءها أمرا ضخما " (٦) . " ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه

١- ص/٥٠.
٢- ص/٥٢.
٣- ص/٢٨٩.
٤- ص/٢٩١.
٥- ص/٥٠.
٦- ص ٥٠

المـــركب ، فأخذ رئيسه ومدبره الرومى الجنوى ... يراوغها تارة يمينا وتارة شمالا " (١) . " وورث هؤلاء الأمواتَ من المسلمين والنصارى البلغريين (أى الحجاج) رئيسُ المركب ، لأنها سنّة عندهم فى كل من يموت فى البحر ، ولاسبيل لوارث الميت إلى ميراثه " (٢) . " فلما ... شارفنا مدينة مسّينة من الجزيرة المذكورة دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين ... فأمر رئيسهم بحط الشراع للحين ، فلم ينحط شراع الصارى المعـــروف بالأردمـــون ... فلما أعياهم مزقه الرائس بالسكين قطعا قطعا " (٣) . " وتعاورت الريح والأمواج صَفع المركب حتى تكسرت رجله الواحدة ، فألقى الرائس مرسى من مراسيه " (٤).

و " الرائس " اسم فاعل من " رأس " ، ويقابـــــل " المرؤوس " .و " الرئيس " هو سيد القوم ومقدمهم (٥) . و " ربان السفينة " هو سيد السفينة ومقدم بحارتها ، وهم مرؤوسوه (٦) .

أما بحارة السفينة فيسميهـــم " البحـــريين " . وقد تكرر منه ذلك حين كلامه عن المركب الجنوية التى سافر عليها فى طريق العودة إلى بلاد الأندلس : " ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قَرّيّة (أى العود المستعرض فى أعلى) الصارى المعروف بالأردمون ... ، فتبادر البحريون إليها ... وصيح بالبحريين ... فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة فى البحر وأخرجوها ... وشرع البحريون فى إصلاح قرّيّة أخرى " (٧) . " ولم يبق للجهات الأربع نفس

١- ص/٢٨٥.
٢- ص/٢٨٧.
٣-ص/٢٩٣.
٤-ص/٢٩٤.
٥- انظر مثلا " الصحاح " و " محيط المحيط " / مادة " رأس " .
٦- وفى مصر يسمونه " الريّس " (بتشديد الياء وكسرها) ، وهى " فَيْعِل " من " رأس " على وزن " سيد " و " طيّب " .
٧- ص/٢٨٥.

يتنسّم .. وهذا الهواء الذي يسميه البحريون الفليني " (١) . " فلما .. شارفنا مدينة مسينة .. دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أمالته الريح بقوة إلى أحد البرين " (٢) " والبحريون قد ضموا الشاري (زورق النجاة) لإخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم " (٣) .

وكان قد ذكر هذه الكلمة من قبل حين حديثه عن قصد الصليبيين الإسكندرية لولا " أن دفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين ، فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم " (٤) .

وقد ذكر صاحب " محيط المحيط " أن كلمة " بحري " تطلق عرفا على " الملاح " .

أما في طريق الذهاب فقد استخدم كلمة " النواتية " وهو يعبر البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة : " وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمرا ضخما " (٥) . وقد جاء في " محيط المحيط " : " النوتي : الملاح .. في البحر خاصة . والجمع نواتي ونوتية " . وأما بالنسبة لأصلها فقد قدم احتمالين : إما أنها من " نات ينوت : تمايل من ضعف " ، وإما أنها معربة عن اليونانية " (٦) .

وهناك تسمية أخرى لـ " ربان السفينة " ، هي " الناخداه " وقد وردت هذه التسمية في عنوان أحد كتب الرحلات القديمة ، وهو " عجائب الهند برّه وبحره وجزائره لبزرك بن شهريار

١- ص/٢٨٦.

٢-ص/٢٩٣.

٣-ص/٢٩٤.

٤-ص/٣٥.

ص/٥١.

٦- انظر " محيط المحيط " / مادة " ن وت ".

الناخداه " . كما ورد عند ابن بطوطة أيضا تسمية رئيس السفينة بـ " الناخداه " (١) . وهذه التسمية لم يستعملها ابن جبير قط .

كما تكررت لفظة " الوظيفـ(ـة) " مرات في الرحلة بمعنى " الراتب " أو " الكلفة السنوية " . قال عمّا خصصه صلاح الدين الأيوبي لأبناء السبيل المغاربة المارين بمصر من الخبز يوميا : " ولهذا كله أوقاف من قبله .. وأكّد على المتولّين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء أن يرجعوا إلى صلب ماله . وأما أهل بلده ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، ولايلزمهم وظيف البتة " (٢) . وعن تسخير أسارى الروم في بناء القلعة وغيرها : و" للسلطان أيضا بمواضع أخر بنيان ، والأعلاج (الروم) يخدمونه فيه . ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مرفّه عن ذلك كله . ولاوظيفة في شيء من ذلك على أحد " (٣) . وعن إزالة صلاح الدين الأيوبي ضريبة الحجاج التي كان الفاطميون قد فرضوها عليهم : " ومن مفاخر هذا السلطان .. إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين " (٤) . وعن نفس الموضوع ، أثناء حديثه عن أهل " عيذاب " (على البحر الأحمر) : " لهم على كل حمل طعام .. ضريبة معلومة خفيفة المئونة ، بالإضافة إلى الوظائف المكوسية التي .. ذكرنا رفع صلاح الدين لها " (٥) . وفي نفس الموضوع ، في أثناء كلامه عن العنت الذي يلقاه الحجاج على أيدي أمير مكة : " رفع (صلاح الدين) ضرائب المكوس عن الحجاج ، وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلهما إلى مُكثر أمير مكة . فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا

١- ص/ ٣٧٩.

٢- ص/ ١٦.

٣- ص/٢٥.

٤- ص/٣٠.

٥- ص/٤٥.

الأمير إلى ترويع الحاج " (١) . وفى نفس الموضوع أيضا عند ذكره دعاء الحجاج لصلاح الدين فى الحرم : " وحق ذلك عليهم لما .. رفعه من وظائف المكوس عنهم " (٢) . وعن تكليف كل سفينة هابطة فى النيل بأن تحمل بعض الحجارة من سور " أنصنا " (مدينة فى صعيد مصر) : " وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين ، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخوره إلى القاهرة ، فنُقل بأسره إليها " (٣) . وعن مأثرة جمال الدين وزير صاحب الموصل فى جلب الماء إلى عرفات : " وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات وقاطع عليه العرب .. بوظيفة من المال كبيرة على ألا يقطعوا الماء عن الحاج " (٤) .

وجاء فى " الصحاح " أن " الوظيفة : مايقدر للإنسان فى كل يوم من طعام أو رزق " ، وهو قريب مما جاء فى " محيط المحيط " . ولم يرد فيهما " الوظيف " إلا بمعنى " مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما " .

أما فى " تاج العروس " فلكلمة " الوظيف " عدة معان من بينها (وهو معنى " الوظيفة " أيضا) : " مايقدر لك فى اليوم وكذا فى السنة والزمان المعين .. من طعام أو رزق ونحوه كشراب أو علف للدابة . يقال : له وظيفة من رزق ، وعليه كل يوم وظيفة من عمل " . ثم ذكر عن أحدهم أن فى أصلها خلافا ، وأن الأظهر أنها مولّدة .

وأما معجم "Additions aux dictionnaires arabes " للمستشرق فانيان (Fagnan) فقد فسّر " الوظيف " بـ " taxe arbitraire " ، أى " الضريبة الاعتسافية " ، وهو معنى قريب مما استخدمها فيه ابن جبير .

وقد قابلتنى كلمة " الوظيف " بنفس هذا المعنى فى عهد كتبه الرسول عليه السلام لبعضهم

١- ص/٥٤.

٢- ص/٧٣.

٣-ص/٣٣.

٤- ص/١٠٢.

وفيه : " فى الوظيفة التى وظفها عليهم " (١) ، وكذلك عند لسان الدين بن الخطيب فى " الإحاطة " ، وذلك فى قوله على لسان بلكين بن باديس بن حبوس : لايلزمها وظيف بوجه ، ولايكلف منها كلفة " (٢) .

وقد قال شارح الألفاظ الصعبة فى الكتاب (٣) عند كلمة " وظيف " : " لعله أراد بالوظيف : الوظيفة ، أى مايقدر لهم من رزق ونحوه " ، وهو مايفيد أنه لم يجد كلمة " وظيف " فى المعاجم التى رجع إليها ، فاعتمد على التخمين .

وجاء فى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى عن أبى الفتح لاجين (من المماليك) : " وأمر بإسقاط ماكان يؤخذ منهم (أى الحجاج) فى جميع بلاده من الوظائف والضرائب " (٤) .

ومثل كلمة " وظيف(ـة)" تكررا فى الرحلة كلمتا " إجراء " و " جراية " ، اللتان تقابلانها فى المعنى . فـ " الوظيفة " يفرضها الحاكم على الناس ، أما "الجراية " فإنه يفرضها لهم : " ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) .. المدارس والمحارس (المساكن المجانية) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد.. فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه،وإجراء يقوم به فىجميع أحواله "(٥). وعن تزيين بعض المتقربين لصلاح الدين أن يُلْغى منحة الخبز المقررة للحجاج:" ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولاحاجة لهم بها " (٦) .

١- الأصفهانى / المجموع المغيث فى غريبى القرآن والحديث / تحقيق عبدالكريم العزباوى / منشورات جامعة أم القرى – معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامى / ط١/١٤٠٨هـ ١٩٨٨م/ حـ٣/ص٤٣٢.

٢- الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان / مجلد ١/ط٢/الخانجى / القاهرة /٤٣٢.

٣- ص/١٦/هـ٢.

٤-ص/٧-٨.

٥- ص/١٥.

٦- ص/١٦.

ولكن صلاح الدين رأى " ألايقطعوا عن العادة التى أجريناها لهم " (١) . وعن مشاهد الأنبيا والصحابة والتابعين فى قرافة مصر : " قد وُكّل بها قَوَمة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظر منظر عجيب . والجرايات متصلة لقُوّامها فى كل شهر " (٢) . وعن مشاهد أهل البيت والصالحين فى القاهرة : " وكّل بها قَوَمة يسكنون فيها ويحفظونها .. والجرايات متصلة لقُوّامها فى كل شهر " (٣) . وعن المشاهد الموجودة بالقرافة (فى القاهرة أيضا) : " والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر .. وحُقّق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفى دينار مصرية فى الشهر " (٤) . وعن صلاح الدين ومافعله للمغاربة : " وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر " (٥) . وعن مآثر صلاح الدين أيضا أنه " أمر بعمارة محاضر (مدارس) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتُجرَى عليهم الجراية الكافية لهم " (٦) . وعن المكافأة المخصصة لمن يقرأون فى جامع دمشق بعد العصر من سورة " الكوثر "إلى آخر القرآن : " وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسمائة إنسان " (٧) . وعن نفس المسجد : " وللمالكية زاوية للتدريس فى الجانب الغربى ، يجتمع فيها طلبة المغاربة ، ولهم إجراء معلوم " (٨) . وعنه أيضا

١- ص/١٧.
٢-ص/٢٠.
٣-ص/٢٢.
٤-ص/٢٤.
٥-ص/٢٦.
٦- ص/٢٧.
٧-ص/٢٤٤.
٨-ص/٢٤٥.

" وللصبيان أيضا (الذين يتعلمون فيه القرآن) على قراءتهم جراية معلومة " (١) .

وواضح أن " الإجراء " والجراية " مأخوذتان من الفعل " أجرى " فى مثل قولنا " أجرى فلان على فلان مائة جنيه فى الشهر " ، أى خصصها له للإنفاق منها . وقد كان الأزهر يوزع على طلبته "جراية "من الخبز . وقد صوّر د. طه حسين ذلك تصويرا حيا آسرا فى الجزء الثانى من " الأيام " . بل إننى أعرف أنه منذ وقت غير بعيد كان الأزهر يوزع على طلبته كل يوم وجبة طعام دسمة من الجبن والبيض والحلاوة الطحينية والفواكه . وربما لاتزال هذه الوجبة توزع على طلبته حتى الآن . وفى " الصحاح " : " الجراية : الجارى من الوظائف " . وقد ضبطت فيه بكسر الجيم ، وهو نفس ماعرّفها به " محيط المحيط " و " المنجد " وإن كانا قد ضبطا الجيم بالفتح كلاهما (٢) .

هذا وقد استخدم ابن جبير الفعل " أجرى " فى سياق آخر غير سياق المال والطعام . ومن ذلك قوله فى الدعاية التى بثها الصليبيون فى الشام عن عزمهم قصد المدينة المشرفة وإخراجه صلى الله عليه وسلم من قبره إنهم " أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم " (٣) .

وبسبب من شعور ابن جبير الدينى نجده يكاد يرى فى كل شىء آية من الآيات الإلهية ، ومن ثم تكثر هذه الكلمة فى الرحلة :

يقول عن حبوط مؤامرة الصليبيين لنبش قبر الرسول عليه السلام وسرقة جثته الشريفة ، وانتهائها بوقوعهم فى أيدى الأسطول المصرى : " وكانت آية من آيات العنايات

١- ص/٢٤٥.
٢-أورد فانيان (Fagnan) فى مادة " جرى " ، فى معجمه " Additions aux dictionnaire arabes " تعبيراً يتصل بهذه الكلمة ، هو " صاحب الجارى " وفسّره بـ "payeur" و "trésorier" ، أى " أمين الصندوق " .
٣- ص/ ٢٥.

الجبارية " (١) .

وعن عدم ضيق الحرم بالحشود الحاشدة : " ومن آياته أن بابه الكريم يفتح فـــى الأيـــام المعلومة المذكـــورة ، والحرم قد غص بالخلق، فيدخله الجميع ولايضيق عنهم بقدرة الله عز وجل .. ولله الآيات البينات والبرهين المعجزات ، سبحانه وتعالى " (٢) .

وبعد وصف خسوف القمر فى مكة يعقب قائلا: "والله يلهمنا الاعتبار بآياته " (٣) .

وعن جمرة العقبة وكيف أنها رغم مايتراكم فيها من حصى الرمى على توالى الدهور قد ظلـــت كما هى لم تتحول إلى جبل من الجبال : " ولولا آيات الله البينات فيها لكانت كالجبال الرواسى لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور وتوالى الأزمنة " (٤) .

وعن تعجبه من اتساع مكة لأعداد الحجاج الهائلة : " فمن الآيات البينات أن يسع هذا الجمع العظيم هذا البد الأمين الذى هو بطن واد سعته غلوة أو دونها .. وماهذه البلدة المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات فى اتساعها لهذا البشر المعجز إحصاؤه إلا كما شبهتها العلماء حقيقة بأنها تتسع لوفودها اتساع الرحم لمولودها " (٥) .

وعن اللون الأحمر فى جبل قاسيون بدمشق وأنه آثار دم هابيل : " وهى من آيات الله تعـالى وآياته لاتحصى " (٦) .

وعن صنعة الفن فى عمارة مسجد دمشق : " فسبحان مـــــن ألهـــم عبـاده إلى هذه الصنائع

١- ص/٣٥.

٢- ص/٧٦.

٣- ص/١٣١.

٤-ص/١٣٦.

٥-ص/١٤٨.

٦- ص/٢٤٧.

العجيبة .. ومظهر آياته على أيدى من يشاء من خلقه ! " (١) .

وعن تحطيم الموج لما كان النصارى فى سفينـــة العودة قد ألقوه فى البحر لتخفيف حملها : " فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذاذا ، ورمت به إلى البرّ أفذاذا ، فعاد عبرة للناظرين ،وآية للمتوسمين " (٢) .

وقد تكرر استخدام ابن جبير لكلمتـــــى " مجمع " و " مجتمع " ، بمعنى " حشد من الناس " أو " احتشادهم " :

" ثم بكرنا منها (من قرية " برما ") (٣) . يوم الثلاثاء وهو يوم عيد النحر من سنـــة ثمـــان وسبعين وخمسمائة المؤرخة ، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطنتتة (أى طنطا) .. فأبصرنا بها مجمعا حفيلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة " (٤) .

" وذلك أنا لمّا حللنا الإسكندرية فى الشهر المؤرخ أولا عاينّا مجتمعـا مـــن الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوهم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق " (٥) .

" والعمرة فى هذا الشهر كله (شهر رجب) متصلة ليلا ونهاراً ، رجالا ونساء . لكن المجتمع كله إنما كان فى الليلة الأولى ، وهى ليلة الموسم عندهم " (٦) .

" وفى هذا الجامع المبارك (جامع دمشق) مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سُبع من القرآن دائما ، ومثله إثر صلاة العصر .. ويحضر فى هذا المجتمع .. كل من لايجيد حفظ

١- ص/٢٦٦.

٢- ص/٢٩٥.

٣- تقع فى منتصف الطريق تقريبا بين قريتنا " كتامة الغابة " و " طنطا " عاصمة محافظة الغربية بمصر .

٤- ص/١٨.

٥- الرحلة /٣٤.

٦-ص/١١٣.

القرآن . وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم " (١) .

" وعند فراغ المجتمع السّبعـــــي (لقراءة القرآن إثر الصبح والعصر فى جامع دمشق) ب
القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم إلى سارية ، ويجلس أمامه صبى يلقنه القرآن " (٢) .

" ومع ذلك فقد استخدم ابن جبير كلمـــة " مجتمع " بمعنى " مكان الاجتماع " فى النصو
التالية :

" والقصـــد إلى عيذاب من قوص على طريقيـــن .. ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من
دنقاش المذكور . ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب " (٣) .

" وكفى بهذا المجتمع الكريم والمنتظم الشريف " (٤) .

" ولم يكن من المتاجر إلا أوان الموسم ، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب " (٥) .

" منى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق .. ، لأنها مجتمع أهل الآفاق " (٦) .

" ويسمون هذه السوق المجتمع إليها من الجهات البازار " (٧) .

وثمـــة كلمة أخرى لها معنى قريب مـــن ذلـــك تكررت بضع مرات فى الرحلة ، هى كل
" الموضوع "التى يستعملها ابن جبير بدلا من " موضع " أحيانا :

يقول ابن جبير عن قرية زريـــران العراقيـة : " وحسبك من شرف موضعها أن دجلة تس
شرقيها ، والفرات يسقى غربيها ، وهى كالعروس بينهما ، والبساط والقرى والمزارع مت

١- ص/٢٤٤.

٢-ص/٢٤٥.

٣- ص/٤٣.

٤- ص/٩٦.

٥- ص/٩٧.

٦- ص/١٥٧.

٧- ص/٢١٧.

بين هنين النهرين الشريفين المباركين " (١) .

ويقـــول عـــن اســـم مدينة " رأس العين " العراقية : " هذا الاسم لها من أصدق الصفات ، وموضوعهـــا به أشرف الموضوعات . وذلك أن الله تعالى فجّر أرضها عيونا وأجراها ماء معينا .. " (٢) .

وعن حلب يقول : " وأما البلـــد فموضوعـه ضخم جدا ، حفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها " (٣) .

وعن حماة : " وموضوع هذه المدينة فى وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق " (٤) .

وفى حمص : " وتجد فى هذه البلدة عنـــد إطلالك عليها من بُعْد ، فى بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها ، بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس " (٥) .

وفى دمشق : " حلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت فـى منصتهـــا أجمـــل تزيين " (٦) .

ومن الألفـــاظ التى تكررت فى الرحلـــة علـى نحو لافت كلمة " تبادر " (أو " بادر " أو " ابتدر ") : " وتبادر الناس إلـــى الحجر فوقفوا تحت الميزاب المبارك متجردين عن ثيابهم " (٧) . " وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفا بأيديهم وهى قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم " (٨) . " فلما .. لم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال

١- ص/١٩٢.

٢- ص/٢١٧.

٣-ص/٢٢٦.

٤- ص/٢٣٠.

٥-ص/٢٣٢.

٦-ص/٢٣٤.

٧-ص/٩٥.

٨-ص/١٠٩.

تبادر النساء إلى الصعود " (١) . " فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال وا
يبادرون إليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه " (٢) . " وهذه الليلة المباركة ، أعنى
النصف من شعبان ، عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم الوارد فيها ، فهم يبادرون فيها إلى ا
البر من العمرة والطواف والصلاة " (٣) . " فأسرع في الفراغ من الطواف وبادر
منزله " (٤) . " وحضر القراء بين يديه (بين يدى خطيب المسجد الحرام) .. وفى
فصول الخطبة يبتدرون القراءة فيسكت خلال إكمالهم الآية التى انتزعوها من القرآن
يعود إلى خطبته " (٥) . " فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة وتلاحين مطربة مشجية "
" وبادروا للحين بماليهم من مرافق الأدم يبيعونها من الحاج " (٧) . " وبادر التائبون
سقوطا على يده ووقوعا " (٨) . " " أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته
مبتدرا " (٩) . " وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل ، وتطير إليه الرقاع " (١٠) . " وبـ
العيون بإرسال الدموع " (١١) . " خاف الإفحام فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر

١- ص/١١٦.
٢- ص/١١٦.
٣- ص/١١٩.
٤- ص/١٢٥.
٥- ص/١٢٩.
٦- ص/١٧٨.
٧- ص/١٨٥.
٨- ص/١٩٥-١٩٦.
٩- ص/١٩٧.
١٠- ص/١٩٨.
١١- ص/١٩٨.

عجلا " (١) . " فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين " (٢) . " فإذا عض الحاج فيه
(أى فى الخبز) اختطفه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له " (٣) . " وبادرنا إلى
النزول فى الزوارق ، والأمواج لشدتها لايمكنها الوصول إلى المركب " (٤) .

١- ص/١٩٩.
٢- ص/٢٤٨.
٣- ص/٢٥٩.
٤- ص/٢٩٥.

صيغ المفردات

فإذا انتقلنا إلى صيغ المفردات فى لغة الرحلة لفت انتباهنا ميل ابن جبير إلى استخدام عدد غير قليل من الصيغ غير المألوفة : مثلا الفعل " وقد - يقد " (بمعنى " يُضيء ") من الصيغ غير الشائعة ، إذ الشائع استعمال " أوقد " (المبنى للمجهول) فى هذه الحالة . ولكن ابن جبير آثر فى عدد من المواضع استعمال مجرد الثلاثى اللازم على مزيده المتعدى المبنى للمجهول :

يقول عن الطريقة التى كانت متبعة فى المسجد الحرام لإعلام أهل مكة أن وقت السحور لايزال ساريا : " وقد نصبت فى أعلى الصومعة (التى فى الركن الشرقى من المسجد الحرام) خشبة طويلة فى رأسها عود كالذراع وفى طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لايزال يقدان مدة التسحير " (١) .

وفى نفس الموضوع : " وفى ديار مكة كلها سطوح مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يقدان فى أعلى الصومعة . فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع " (٢) .

ويقول عن مغارة فى جبل قاسيون (بدمشق): " والسّرُج من الشمع والفتائل تقيد فى المغارة " (٣) .

وعن نفس المغارة يقول : " وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبنى ، وأبصرنا فيه السّرج تقيد نهارا " (٤) .

وقد استخدم ابن جبير كلمة " وقيد " (الشموع الموقدة) المشتقة من هذا الفعل الثلاثى . قال

١-ص/١٢٣.

٢-ص/٣٤٥.

٣-ص/٢٤٧.

٤-ص/٢٤٨.

عن بالروم عاصمة صقلية ومن بها من المسلمين : " ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكلم
وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون فى وقيده فى هذا الشهر المبارك " (١) .

وليس معنى هذا أنه لم يستعمل " أوقد " . فقد استعملها مرارا ، لكنى قصدت أن من ميله إ
تنكب المألوف لجوءه إلى " وقد يقد " فى عدة مواضع .

وفى " الصحاح " : " وَقدت النار تَقِدُ وُقودا (بالضم) ووَقْدا وَقِدَة ووَقَدانا ، أى توقـدت
وفى " تاج العروس " : " وقِدت النار وَقُودا مثل : قبلت الشى قبولا " ، وكذلك " وقدت ال
تقد وُقودا ، كـ (وعد) " . وفيه أيضا : " كل ما أوقدت به فهو وقود ووِقاد (بالكسر) ووقيد " ، وذ
أن عبيد ابن عمر قرأ : " وقيدها الناس والحجارة " .

وفى " المنجد " : " وَقد يقدُ ... : تلألأ . ووقدت النار : اشتعلت ... والوِقاد والوقيد والوَقو
ماتوقدّت به النار " .

وقد وجدت فى " نفح الطيب " من كلام الفتح بن خاقان : " ونارها تقد " (٢) . كما صادفتنى ك
"الوقيد " فى نص للإدريسى يقول فيه إنه كان بمسجد قرطبة على يمين المحراب مخزن تح
فيه العدد والطسوت والحسك الخاص بـ " وَقيد الشموع " فى كل ليلة ... إلخ (٣) .

ومن خروج ابن جبير أحيانا عن المألوف إكثاره من استعمال صيغة " استفعل " حيث تستخ
عادة صيغة أخرى .

يقول عما حـدث لـه فى مكس الإسكندرية : " واستُنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أ
المغرب وسلع المركب " (٤) (بدل " أنزل ") .

ويقول عن نفس الموضوع : " ثم استُحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ماوجدوا لهم أم لا " (٥) (بد

١- ص/٣٠٥.

٢-نفح الطيب / مجلد ٥/ ٣٤٤.

٣-انظر د أحمد رمضان أحمد / الرحلة والرحالة المسلمون / دار البيان العربى / جدة / ص١٧١.

٤-ص/١٣.

٥-ص/١٣.

" حَلفوا ") .

ويقول عن أحد مساجد الإسكندرية : " وشاهدنا من شأن مبناه عجبا لايستوفيه وصف واصف " (١) (بدلا من " يوفّيه ") .

ويقول عن عدل صلاح الدين : " ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس فى بلاده لايخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعنيهم ، ولايستشعرون لسواده هيبة تثنيهم على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية " (٢) (بدلا من " يشعرون ") .

وعن شعور الحاج حول الكعبة : " فكانت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة ثقة بفضله (بفضل الله) وكرمه " (٣) .

ويقـول عـن قمح منفلوط وجودته : " فالتجار يصعدون فى المراكب لاستجلابه " (٤) (بدلا من " جلبه ") . " واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة " (٥) .

ويقول عن عظمة النقوش والتصاوير الفرعونية فى أحد المعابد : " يحسب الناظر استعظاما له أن عمر الزمان لو شُغِل بترقيشه وترصيعه وتزيينه لضاق عنه " (٦) (بدلا " إعظاما له ") .

ويقول فى التنقيب الشديد الذى يقوم به رجال الجمارك بالإسكندرية فى أمتعة القادمين على الميناء : " وهذا أقبح مايؤثر فى الأحاديث الملعنة . وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يُرجى ستر الصون دونه من حال لايريد صاحبها أن يُطّلع عليها ، إما استحقارا أو استنفاسا دون بخل بواجب يلزمها " (٧) (بدل " احتقاراً ") .

١- ص/١٥.

٢-ص/٣١.

٣-ص/٩٥.

٤-ص/٣٥.

٥-ص/١٧٧.

٦-ص/٧٨.

٧-ص/٣٩.

ويقول عن " الشقاديف " ، التى توضع على الإبل ويركب فيها اثنان متقابلين : " ومن شا
من يستجيز اللعب بالشطرنج ، أن يلاعب عديله تفكها وإجماما للنفس لاعبه " (١) (ب
من " يُجَوّز " أو " يُجيز ").

ويقول عن زعيم قبائل البجاة الذين كانوا يسكنون عيذاب : " ومستنابه مع الوالى
البلد " (٢) (يقصد مكان نيابته ،أى إقامته . وذلك بدلا من " منابه ").

وعن شدة الإضاءة فى المسجد الحرام : " فاستنار الحطيم كله حتى لاح فى الهواء كال
العظيم من النور " (٣) (بدلا من " أنار ").

" فجاءت الحال غريبة فى الاختصار ، خارجة عن محض التعاظم والاستكبار ، داخلة مع
التواضع والاستصغار " (٤) (بدلا من " التكبر " و " التصاغر ").

وعن تجار الكوفة الذين ينتظرون الحجاج : " وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة
مستجلبون إليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه " (بدل " جالبون ").

ويقول عن الطرق الموصلة إلى بغداد وتكليف الجند بحراستها : " وعلى أكثرها خيام
رجال محترسون للطريق ، اعتناء من الخليفة بسبيل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بك
أو سواها " (٥) (بدل " انتفاع ").

وعن أحد سدنة الكعبة : " صودر .. بخمسمائة دينار مكية استقرضها ودفعها " (٦) (ب
من " اقترضها ").

١- ص/٤٢.

٢-ص/٤٨.

٣-ص/١٢٩.

٤-ص/١٨٦.

٥-ص/١٩١.

٦-ص/١٤٤-١٤٥.

وعن خطيب شحاذ يوقف الخطبة حتى يجمع رجاله الأموال من المصلين وهو فوق المنبر :
" والخطيب جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على الناس " (١) (بدلا
" الساعين ").

وعن مسير الحجاج بعد تركهم مدينة " الحلة " العراقية : " لايعرج المستعجل على المتعذر ،
ولا المتقدم على المتأخر " (٢) (بدل " المتعجل " ، التى تتمشى صيغتها مع صيغ الصفات
الأخرى فى النص) . " كاد يلتقى طرفاها خفوقا واستعجالا " (٣) . " بداراً للرحيل
واستعجالا للقيام " (٤) .

وعن بغداد : " لاحسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز العقلة (التوقف) والنظر
إلا دجلتها " (٥) (بدلا من " المتوفز ").

وعن أسواق حلب : " فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا " (٦) (بدلا
من " المتوفز ").

وعن أهل بغداد وتفضيلهم لمدينتهم على كل مدينة أخرى : " لايستكرمون فى معمور البسيطة
مثوى غير مثواهم " (٧) (بدل " يكرّمون ").

وعنهم أيضا ومعاملتهم للغريب : " لايجد (الغريب) من أهلها إلا من يعامله بنفاق ، أو يهش
إليه هشاشة انتفاع واسترفاق " (٨) (بدل " ارتفاق ").

١- ص/١٨٠.

٢-ص/١٩٠.

٣-ص/١٣٣.

٤-ص/١٩٠.

٥-ص/١٩٣.

٦-ص/٢٢٧.

٧-ص/١٩٤.

٨-ص/١٩٤.

وعن الخليفة العباسى : " وهو ميمون النقيبة عندهم (عند العامة) ، قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلا وطيب عيش " (١) (بدل " سعدوا ") . وعن سلجوقة ، زوجة نورالدين بن قرا أرسلان ، ملك آمد : " ومن شرف خاتون هذه ، واسمها سلجوقة ، أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نورالدين فترك البلد لها كرامة لأبيها ، وأعطاها المفاتيح " (٢) (بدلا من " فتح ") .

وعن أهل قنسرين لما فُتحت الأندلس : " يذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان تأنسا بشبه الوطن وتعللا به " (٣) .

وعن قلج أرسلان وفتوحاته : "استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا " (٤) .

وعن مدينة " بزاعة " السورية : " رامها أحد ملـــوك الزمن فغلظته باستصعابها " (٥) (بدلا من " صعوبتها " أو " تصعبها ") .

وعن جامع دمشق : " أدركه الحريق مرتين ـ فاستحال رونقه " (٦) (بدلا " حال ") .

وعن بـــلاد الشـــام : " وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفَى فى الحديث عنه " (٧) (بدل " يوفى ") .

وعن دمشق : " وجملة الأمر أن منظرها والوقوف على هيئة وضعها وعظيم الاستقدار فيها ـ من أغرب مايحدّث به من عجائب الدنيا " (٨) (بدل " الاقتدار ") .

١-ص/٢٠٣.

٢-ص/٢٠٧.

٣-ص/٢٢٨.

٤-ص/٢٠٧.

٥-ص/٢٢٤.

٦-ص/٢٤١.

٧-ص/٢٦١.

٨-ص/٢٦٧.

وعن نذر نذره نورالدين زنكى : " وقد كان نورالدين ، رحمه الله ، نذر فى مَرْضة إصابته تفريق اثنى عشر ألف دينار فى فداء أسرى من المغاربة . فلما استبلّ من مرضه أرسل فـى فدائهـم " (١) (بدل " أبلّ ") .

وعن محاولة قياس الماء فى زمزم : " استصحب الدلو وأدلاه " (٢) (بدل " اصطحب ") .

وعن أحد التجـار فى مكة : " وكان قد استصحب الخِف النفيس الخطير مـــع نفسه إلـــى البر " (٣) .

" وأصبـــح الناس بها مقيمين ـ لإرواء الإبل واستصحاب الماء " (٤) . " فبادروا الابتياع لذلك بشِقَق الخام التى يستصحبونها لمشاراة الأعراب لأنهم لايبايعونهم إلا بها " (٥) .

وعن شاب اسمه عبدالمسيح قابلوه فى صقلية ، فلما انفرد بهم صارحهم بِأنه مسلم : " واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطُرف المباركة من مكة والمدينة ، قدسهما الله " (٦) .

" والناس ـ يرجمون الظنون فى مقصد هذا الأسطول الذى يحاول هذه الطاغية (وليم ، ملك صقلية) تعميره ـ ويستصحب معه نحو مائة سفينة (٧) .

وعن طـــول مجـلس الملـك بحاضرة صقلية : " والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها ، فعجبنا من طوله وإشراف مناظره ، فأعلمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه " (٨) (بــــدلا

١-ص/٢٨٠.

٢-ص/١١٩.

٣-ص/١٤٨.

٤-ص/١٦٣.

٥-ص/١٨٢.

٦-ص/٢٩٩.

٧-ص/٣١٠.

٨-ص/٣٠٤.

من " طُول ".

وعن أمير من أمراء البيزنطيين وفد علـى صقلية متنكرا : " فاستُحْضِر عن أمر الملك الصقلى غليام .. واستُنطق واستُفهِم " (١) (بدل " أحْضِر ").

وعن رجل مسلم بصقلية طلب من الحجاج المارّين بذلك البلد أن يختروا بينهم على من يتزوج ابنته ويأخذها بعيدا عن أرض الكفر ، فلما وُجد الرجل المطلوب : " أعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة " (٢) (بدل " اغتنام ").

وهناك أفعال أتى بها ابن جبيـر على صيغ أخرى غير " استفعل " ، والعادة إيرادها على غير الصيغة التى استخدمها أو استعمال كلمة أخرى مكانها .

من ذلك الفعل " تأجّر " (واشتقاقاتـه) ، الـذى تكرر فى الرحلة بضع مرات . والمعتاد استخدام " احتسب " مكانه :

"ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السطان (يقصد صـلاح الدين) المارستان الذى بمدينة القاهـرة . وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا " (٣) . " وكثير من الناس المتأجرين (المبتغين الأجر والثواب) من يعينه على ماهو بسبيله " (٤) . " وكان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك ويخرج إليهن ويعصره فى أيدى البعض منهن ، فيتلقينه شربـا ومسحـا على الوجوه والأبدان " (٥) . " ومن الأمور المحظورة فى هذا الحرم الشريف .. أن النفقة فيه ممنوعة لايجد المتأجر من ذوى اليسار إليها سبيلا فى تجديد بناء أو إقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص

١-ص/٣١١.

٢-ص/٣١٦.

٣-ص/٣٦.

٤-ص/٨٩.

٥-ص/٩٥.

بالحرم المبارك " (١) . " والنساء الماشيات المتأجرات كثير يسابقن الرجال فى تلك السبيل المباركة " (٢) . " ألفى فى يوم من الأيام .. رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه .. فتأجر فيه والتزم تمريضه وخدمته " (٣) . " وللفقراء .. وقف وضعه بعض المتأجرين الموفقين برسمهم " (٤) . " وأمّا فتيانه (أى وليم ملك صقلية) .. فهم مسلمون ، مامنهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا " (٥) . " فتأجر هذا الرجل المرغوب إليه (الرجل الذى قبل تزوج الفتاة الصقليـة المسلمـة ، التى مرّ ذكرها قبل قليل) بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة " (٦) .

هذا وقد عثرت على صيغة أخرى غير شائعة من نفس المادة يُقصَد بها المعنى ذاته ، وهى صيغـة " ائتجر " ، وذلك فى قول محمد بن عبدالله النميرى الطائفى فى زينب أخت الحجاج وبعض النسوة التى خرجن معها حاجّات على أقدامهن :

أعـان الذى فوق السمـاوات عرشه   مـواشى بالبطحـاء مؤتجـرات

وعلى نفس صيغة " تأجّر " جاء ، عند ابن جبير ، الفعل " تأنسّ " ، بـدلا من " استأنـس " :

" يُذكر أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا جيان تأنسّا بشبه الوطن وتعلّلا به " (٧) .

وهناك صيغة " افتعل " ، التى تكرر استعمال ابن جبير لها فى موضـع " فَعَل " :"ويرتقبونها

١-ص/١٠٤.

٢-ص/١١٠.

٣-ص/٢٦٢.

٤-ص/٢٦٤.

٥-ص/٢٩٩.

٦-ص/٣١٦.

٧-ص/٢٢٨.

ارتقاب الســاعة " (١) (بــدلا مـن " يرقب ") : " يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة " (٢). " فنزلنـــا مرتقبين لانتشار الضوء " (٣) " فبحسب المتشب فيه .. مليكسوه هذا الظن الفاضح " (٤) (بدل " الناشب ") . " أقمنا نرتقب الصباح " (٥) . " وسيرة هذا الأمير (طشتكين، أمير الحج) بالرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقلعتهم وساقتهم وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم سيرة محمودة " (٦) (بدل " الحراسة ") . " وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعــض منازل بنا " (٧) . (بدل " رجــونا ") . " أطلقت عليه أيدى الانتهاب " (٨) (بدلا من " النهب ") . " والذى انتُهب له أكثر " (٩) . " ولولا ذلك لانتُهب جميع مافى المركب انتهابا " (١٠) (بدلا من " نُهب نهبا ") . " داره التى ابتناها " (١١) (بدلا " بناها ") . " أذكى عيون الاحتراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه " (١٢). " وزاد البحر اهتياجا " (١٣) (بدلا من " هياجا أو هيجانا "- مصدر الثلاثى المجرد) . " فلُجىء إلى استعمال الشُرُع الصغار فأخذت الريح أحدها

١- ص/٥٧.
٢-ص/٥٧.
٣-ص/٥٨.
٤-ص/٩٤.
٥-ص ٢٩٤.
٦-ص/١٩١.
٧-ص/١٠.
٨-ص/١٣٣.
٩-ص/١٤٨.
١٠-ص/٢٩٥.
١١-ص/١٤٨.
١٢-ص/٣١١.
١٣-ص/١٠.

ومزقته ، وكسرت الخشبة التى ترتبط الشُرُع فيها " (١) (بدلا من " تُربَط " الثلاثى المبنى للمجهول) . " فأخذهم الله باجترائهم عليه " (٢) (بدلا من " جرأتهم ") . " ضَعْف عدة المركب واختلالها واقتصامهـــا المرة بعد المرة " (٣) (بدل " انقصامها " ، بل بدلا من " انكسارها ") . " وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال " (٤) (بدل " سلب ") . " فلما فرغ من السعى استُلّت السيوف أمامه " (٥)(بدلا من " سُلّت " . والصيغتان بالبناء للمجهول) . " ثم بعد ذلك ليلة ثلاث وعشريـــــن ، وكان المختتم (أى الصبى الذى ختم القرآن) فيها أحد أبناء المكيين ذوى اليسار "(٦) " فكان المختتم فيهاالإمام الحنفى " (٧) . " وطائفة التزمت الحجر المبارك للصلاة على انفراد " (٨) (بدلا من " لــزمت ") . " وكـــل من وفقه الله .. يلتزم .. ضيعة من الضياع .. ويلتزم الإملمة " (٩) . " لهم فى ذلك طريقة مباركة مُلتَزَمة " (١٠) " وفى هذه الأيام يُفتَتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين " (١١) (بدل " يُفتَح ") . " وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها ، إلى ما اكتُفِت (أُخِذ) من الأمتعة والذخائر " (١٢).

١-ص/١٠.
٢-ص/٣٥.
٣-ص/٥٢.
٤-ص/٥٥.
٥-ص/١٠٩.
٦-ص/١٢٧.
٧-ص/١٢٩.
٨-ص/١٢٠.
٩-ص/٢٥٩.
١٠-ص/١٩٥.
١١-ص/١٥٨.
١٢-ص/٢٧٢.

" فاحتازت كل يد ملحوت " (١) (بدل " حازت ") . " هؤلاء يَفْتكّهم أهلوهم وجيرانهم " (٢) (بدلا من " يفكّهم ") .

ولست أقصد أن ابن جبير قد أخطأ ، بل أقول إنه تنكب الصيغة الأشيع . ومع ذلك فقد يكون هناك غرض بلاغي أو أسلوبي قصده من وراء صنيعه هذا .

وعلى وزن " انفعل " جاءت الأفعال " انجفل " و " انحشد " و " اندفع " : الأول بدلا من " جفل / أجفل " (بمعنى " نفر أو فرّ مسرعا ") ، والثاني بدلا من " احتشد " ، والثالث بدلا من " دفع " (بالبناء للمجهول) : " انجُفِلَ بين يديه " (٣) . " فانجفل الجميع إليها " (٤) . " خرج إلى العمرة في احتفال لم يسمع مثله انحشد له أهل مكة على بكرة أبيهم " (٥) . " وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم ، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالا ونساء " (٦) . " فإذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز " (٧) .

ويتكرر عنده استخدام صيغة المطاوعة " تفعّل " حيث تستخدم عادة صيغة أخرى ، كما يتضح من النصوص التالية :

" وييسر الله علينا في التخلّص (أي الخلاص) من بحرها " (٨) . " فكنا لانتخلص (نخلص ، أي ننفذ) إلا بين هوادجهن وبين قوائم الإبل الكثيرة الزحام " (٩) . " فكان مرأى هائلا مسموعا

١-ص/٢٧٢.
٢- ص/٢٨٠.
٣-ص/١٠٩.
٤-ص/١١٤.
٥-ص/١٠٨.
٦-ص/١٢٨.
٧-ص/٢٦٣.
٨-ص/١٠.
٩-ص/١٠٨.

رائعا لم يتخلّص (يَخلُص ،أي يمكن) للطائفين بسببه طواف ولا للمصلين صلاة لعلو تلك الأصوات وانشغال الأسماع والأذهان بها " (١) . " فسألنا له من الله عز وجل التخلص مما هو فيه " (٢) . " فإن رضيها تزوجها ، وإن لم يرضها زوّجها ممن رضي لها من أهل بلده ، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها طمعا في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلين . فطاب الأب والإخوة نفسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم " (٣) .

" وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويُحَمّل جميع ما أنزلوه إلى الديوان " (٤) .

" وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم " (٥) .

" يدرسونه (أي قشر جوز الهند) إلى أن يتخيّط ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب " (٦) . أي يصبح خيوطا .

" قد وقع القطع من كل من تطوّف على الآفاق .. أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا " (٧) .

" وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفا بأيديهم وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم وهم في زحام لايمكن فيه المجال " (٨) . أي اتجهت ، من " صوّبه فتصوّب " .

١-ص/١١٨.
٢-ص/٢١٤.
٣-ص/٣١٥-٣١٦. أما في النص التالي مثلا فقد استخدم صيغة مجرد الثلاثي : " خلص أحدنا في ذلك الزحام على صعوبة " ص/١١٩.كما أنه في النص التالي قد استخدم " تخلّص " بمعنى " خلّص " ، بالتشديد : " وتخلّصوا من أسرى المسلمين عددا كثيرا" ص/٢٧٢.
٤-ص/١٣.
٥-ص/١٣.
٦-ص/٤٧.
٧-ص/ ٩٨.
٨-ص/١٠٩.

" أخذ فى الرجوع وقد ترتب العسكران بين يديه " (١).

"وبالجملـــة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمـــرة وسواها . ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز " (٢).

" تشوشت المغارب ، وتعرضت شعرة من الحاجب ، فأبصروا خيالا ظنوه هلالا " (٣).

" وغادر الكل متندما،على نفسه متنحبا " (٤).

" ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصّير إلى الفقهاء المدّرسين بها " (٥).

" وهم يعرفون به (أى بلقـــب " الصاحـب ") كل محتشم متعين عندهم من غير الجند " (٦)، مِنْ " عينه فتعّين ".

ومن الصيـــغ المنتشـرة فى الرحلة والمستعملة فى موضع صيغة أو عبارة أخرى عادة صيغة " فعّل / تفعيلا " :

مـــن ذلك " لزّم (بدلا من " ألزم ") : " لُزّموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا " (٧).

ومن ذلك كلمة " مُرَقّب " (بدلا من " مراقب محروس ") : " فطيف به مُرَقّبا على السلطان أوّلاً ثم على القاضى " (٨).

١- ص/١٠٩.

٢- ص/١١٣.

٣- ص/١٤٦.

٤- ص/٢٠٠.

٥- ص/٢٠٥.

٦- ص/٢٧٥.

٧- ص/١٣.

٨- ص/١٣.

ومن ذلك كلمة " حلّـــق " : " وهو (أى مسجد بن طولون) من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، وجعله السلطان مأوى للغربـــاء من المغاربة : يسكنونه ويحلّقون فيه " (١) (بدلا من " يتحلقون " ، أى يشكلون حلقات للتدريس). " وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما يلقى بعيذاب ونحوها " (٢) (بدلا من " الطواف (فى رحلة طويلة "). " وقد سدّ عليهم بنيات الطريق القاصدة إلى بلادهم ، ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ويبعد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه " (٣) (بدلا من " السير فى طريق طويل دائرى ").

ومنه " جمّع تجميعـــا " : " فجميـــع جوامـــع البلدة المجمع فيها أحد عشر " (٤). " وللمدينة (المَوْصِل) جامعـان ... ، ويجمّع فى هذين الجامعين ... ، ويجمّع أيضا فى جامع الرّبض " (٥).

" والجامع الآخر (فى مدينة " رأس العين " العراقية) داخل البلد . وفيه يجمّع أهله " (٦).

ومنه " حَجّرّ " : " وهذا الموضع الذى لم يحجّر عليه هو الذى تـــركت قريش من البيت " (٧) (أى لم تبن عليه سورا أو حاجزا).

ومنــــه " التوريق والتشجير والتقضيب " : " وبإزائها رخامتان متصلتـــــان بجدار الحِجْر ... أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب مالايحدثه الصّنّع اليدين فى الكاغد قطعا بالجلمين " (٨) (والمقصود : رسم الأشجار وأوراقها وقضبانها).

١- ص/٢٦.

٢- ص/٤٨.

٣- ص/٢٧٢.

٤- ص/٢٠٤.

٥- ص/٢١١.

٦- ص/٢١٩.

٧- ص/٦٣.

٨- ص/٦٤.

ومنه " التغصين " : " ويتصل بينهما رخام أبيض صافى اللون .. قد أحدث الله عز وجل فى أصل خلقته أشكالا غريبة مائلة إلى الزرقة مشجرة مغصّنة " (١) (أى على شكل أشجار وأغصان). " أعدّ له ثريا مصنوعة من الشمع مغصّنة " (٢) . " وأوقدت الثريا المغصّنة ذات الفواكه " (٣). " أحضر .. من ثريات الشمع أربعا مختلفات الصنعة : منها مشجّرة مغصّنة مثمّرة بأنواع الفواكه .. ، ومنها غير مغصّنة " (٤) .

هذا وقد استُعمِلت الكلمة مصطلحا أدبيا فى الأندلس . قال د. إحسان عباس فى أثناء حديثه عن أصل تسمية " الموشح " : " ولقد يوضح هذه التسمية اصطلاح آخر اخترعه أحد النقاد الأندلسيين وهو يتحدث عن نوع من النثر ، وذلك هو اصطلاح " المغصّن " ، الذى استعمله ابن عبدالغفور فى كتاب " إحكام صنعة الكلام " .. ، وقد سماه كذلك لأنه ذو فروع وتولد . ومثاله .. : " وقد يكون من النعم والإحسان مايصدر من الفم واللسان ، ومن النعماء والمعروف مايسمو بالأسماء والحروف " . فالتغصن فى رأيه هو المقابلة بين " النعم (و) الفم / الإحسان (و) اللسان / النعماء (و) الأسماء / المعروف (و) الحروف " . وهوترتيب تفريعى كما ترى ذو شبه بالتوشيح ، أى هو تجزئة فى وحدتين أو ثلاث أو أكثر ، ومقابلة هذه الوحدات بأخرى شبيهة بها . فالموشح فى الشعر ذو أغصان ، والمغصّن فى النثر ذو فروع وأغصان كذلك " (٥) .

١-ص/٧١.

٢-ص/١٢٧.

٣-ص/١٢٨.

٤-ص/١٢٩.ويتصل بهذا الاستعمال قوله عن الطريق بين الحلة وبغداد : " ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات " / ص١٩٠. وكذلك قوله عن حوض فى وسطه أنبوب يدفع الماء بقوة : " وحوله أنابيب صغار ترمى الماء إلى علو ، فيخرج منها كقضبان اللجين ، فكأنهما أغصان تلك الدوحة المائية " / ص٢٤٣.

٥-ص/د. إحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسى / عصر الطوائف والمرابطين / دار الثقافة / بيروت / ط٦/١٩٨١م/ص٢٢٠-٢٢١.

ومنه " التصليب " : " والشّرع مصلبة " (١) ، أى مركبة على شكل صليب .

ومنه " التثمين " : " وهذا المقياس (مقياس النيل) عمود رخام أبيض مُثَمّن " (٢) ، أى ذو ثمانية أركان .

ومنه " التركين والتقطيع والتشريف " : " ورؤوسها (رؤوس أعمدة الهيكل الفرعونى) فى نهاية من العظم والإتقان ، قد نحتت نحتا غريبا ، فجاءت مركّنة بديعة الشكل " (٣) (أى لها أركان) . " وهو (أى سطح الحرم) كله مشرّف بشرفات مبسوطة مركّنة " (٤) . " كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ، ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين ، فجاءت عجيبة المنظر والشكل " (٥) . " وللصوامع أيضا أشكال بديعة .. ، مركنة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش عجيبة الوضع " (٦) . " فيها تخاريم فى الجصّ مستطيلة الشكل كأنها محاريب " (٧) . "التخاريم القرنصية " (٨) . " وظاهرها .. تقاطيع فى الجص " (٩) .

ومنه " الترخيم " : " وفى جوفىّ الروضة المقدسة (بمسجد المدينة حوض صغير مرخّم " (١٠) ، أى مكسو بالرخام . " وقد قامت (البلاطات المتصلة بقبلة جامع دمشق) على ثمانية وستين عمودا ،

١- ص/ ٢٩٠.

٢-ص/٢٩.

٣-ص/٣٦.

٤-ص/٧٦.

٥-ص/٧٦.

٦-ص/٧٧.

٧-ص/٨٣.

٨-ص/٨٣.

٩-ص/٨٣.

١٠-ص/١٧٠.

منها .. اثنتان مرخّمة (كذا) .. وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم " (١).

وبالمناسبة ، فقد ورد هذا الفعل ، فيما صادفت ، فى قول أبى إسحاق الإلبيرى ، يحرّض على اليهود الذين طغوا وبغوا فى إحدى فترات التاريخ الأندلسى :

ورخّـــــم قردهمو دارهم　　　وأجرى إليها نمير العيون

وفى " الاعتبـــــار " لأسامة بن منقذ عن أسير شاب من الصليبيين كان قد نافق بدخوله الإسلام وبقى متظاهرا به سنين طويلة : " وتعلّم الترخيم من مرخّم كان يرخّم دار والدى " (٢).

ومنه " التأريج " بدل " الأريج " (٣).

ومنه " التخشيع " : " ودعاؤهم كثير التخشيع فى النفوس " (٤) ، أى يؤثر فيها تأثيرا شديدا فتخشع لله . " فلمتنع .. (رفيق ابن جبير فى الرحلة ، أحمد بن حسان) من المنام لستمتاعا بحس ذلك المسموع ومافيه من التشويق والتخشيع " (٥) . " قام الخطيب فصدع بخطبة تحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع " (٦) . " فعندما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع يرفعون أصواتهم بيارب يارب " (٧) . " فخطب خطبة بليغة والى فيها الاستغفار ووعظ الناس وذكرهم وخشّعهم وحضهم على التوبة والإنابة لله عز وجل " (٨).

ومنه " التشهير " : " فبنى ذلك المبنى عليه (على منزل حواء أم البشر عند جدة) تشهيرا

١-ص/٢٣٧.

٢-الاعتبار /ص١٣٠-١٣١.

٣-ص/٧٧.

٤-ص/١١٣.

٥-ص/١٢٠.

٦-ص/١٢٨.

٧-ص/١٢٩.

٨-ص/١٣٨.

لبركته وفضله ، والله أعلم بذلك " (١) ، أى إعلانا عن ذلك .

و " التدسيس " : " أذكى عيون الاحتراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه " (٢) (بدلا من " الدّسّ ").

و " التفويز " ، أى قطع المفازة ، وهى الصحراء المهلكة : " يفـــوّزون بصحراء عيذاب " (٣). " وفوّزنا سَحَر يوم الجمعة .. ، وسرنا فى الصحراء حيث جنّ علينا الليل " (٤).

ومنه " التمـــــويل والتسويد " ، أى مناداة الآخرين بـ " يامولاى " و " ياسيدى " : " ومخاطبة أهل هذه الجهات (دمشق) قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد " (٥).

و " التدويح " : " واعترضنا فى نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح " (٦).

و " التثقيف " ، بمعنى " الاعتقال " : " فقام ابن عم له فى الملك وقتل الزوج المذكورة وثقف الابن المذكور، ثم ابنا للثائر المذكور عطفته الرحم على الابن المعتقل فأطلق سبيله " (٧).

و " التعنيـــت والتنكيـــب " : " وربما قُصد بها التعنيت والتنكيب " (٨) (بدلا من " الإعنات " و " النكب ").

و " التبتيـــــل ": " وهذا الجبل .. قلما يخلو من التبتيل والزهادة " (٩) . (بدلا مـــــن

١-ص/٥٣.

٢-ص/٣١١.

٣-ص/٤١.

٤-ص/٤٢.

٥-ص/٢٦٨.

٦-ص/٢٧٣.

٧-ص/٣١١.

٨-ص/١٥٩.

٩-ص/٢٦٠ .

" التبتل ") .

و " التحليـــة والتسميـــة " ، بمعنى "الوصف " : " ويقول المنادى .. : " أبقى الله الملكة خاتون ، ابنة الملك الذى من أمره كذا أو من شأنه كذا " ، ويحلّيه بحلاه ، إعلانا باسمها وإظهارا لفعلها واستجلابا للدعاء لها من الناس " (١) . " ونقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمى البلدة وأعيانهم ويحلّونهم بخططهم الهائلة (أى ألقاب الشرف التى لهم) " (٢) . " وهذه المدينة ، مسّينة ، رأس جزيرة صقلية . وهى كثيرة المدن والعمائر والضياع ، وتسميتها تطول " (٣) .

و " التلزيم " : " فلزّموا أداة زكاة ذلك " (٤) (بدل " ألزموا ") .

و " التعشير " : " وكل من سواهم (من سوى الموحدين) من الملوك فى هذا الأوان .. يعشّرون تجار المسلمين ، كأنهم أهل ذمة لديهم " (٥) ، أى يفرضون عليهم العشر .

و " التبريج والتشريف " (له بروج وشرفات) : " وهى حصن كبير مبرّج مشرّف " (٦) .

و " التزجية " (بدلا من " الإزجاء ") : " وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجّى المراكب تزجية حثيثة " (٧) .

و " التمكيس " (بمعنى " فرض المكوس ") ، وقد تكررت ، ومنه أمثلة عليها : " وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبنين ، وهو موضع تمكيس القوافل " (٨) . " ومكّس الناس

١-ص/١٦٤.
٢-ص/٢٦٧.
٣-ص/٢٩٦.
٤-ص/١٣.
٥-ص/٥٦.
٦-ص/١٨٣.
٧-ص/٣١٧.
٨-ص/٢٧٤.

تمكيسا غير مستقصىً " (١) . " قال لنا ...: تحفّظوا بما عندكم ياحجاج من العمال الممكّسين لئلا يقعوا عليكم . وظن أن عندنا تجارة تقتضى التمكيس " (٢) .

ويدخل فى الصيغ غير المألوفة استعمال ابـــن جبير " بوقات " جمعا لـ " بوق " . وهذه أمثلة على مانقول :

جاء فى كلامه عن ثبوت الهلال فى مكة : " وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات ، إشعارا بأنها ليلة الموسم " (٣) .

وفى الإشارة إلى الإعلان عـــن خلعة خلعها أخو صلاح الدين على أمير مكة : " وفى ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم ، فإذا بأصوات طبول ودبادب وبوقات قد قرعت الآذان وارتجت لها نواحى الحرم الشريف " (٤) .

وفـى الإشارة إلى الإعلان عن ركـــوب الخاتون ونزولها فى قافلة الحجاج العائدين : " ولها الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها " (٥) .

وقـــال فى وصف عرس صليبى فـــى صـــور : " واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية " (٦) .

وعن احتفال المسلمين فى أطرابنش بصقليـــة بالعيـــد : " وخرج أهل البلد إلى مصلاّهم مع صاحب أحكامه وانصرفوا بالطبول والبوقات " (٧) .

لقد أخذ نقاد المتنبى عليه جمع كلمة " بوق " على " بوقات " ، وقالوا إنه كان المفروض أن

١-ص/٢٧٤.
٢-ص/٣٠٤.
٣-ص/١٠٨.
٤-ص/٢١٦.
٥-ص/٢٠٦-٢٠٧.
٦-ص/٢٧٨.
٧-ص/٣١٠.

يجمعها جمع تكسير على " أفعال " مثلا أو غيرها . وقد ردّ المتنبى على هذا الانتقاد بقوله إن هذه الكلمة مولدة ولم يسمع لها جمع إلا بالألف والتاء . والذى يرجع إلى" الوساطة بين المتنبى وخصومه " مثلا يجد أن الجدل الذى أثارته هذه الصيغة الجمعية قد استغرق ثلاث صفحات (١) . وقد عددت هذه الصيغة الجمعية فى كتابى عن "لغة المتنبى " علامة من العلامات الدالة على ميل المتنبى فى كثير من الأحيان إلى التنكب عن المألوف فى الألفاظ والصيغ ، رغبة منه فى إدهاش السامعين ولفت انتباههم لمايقول (٢) . وأعدها هنا أيضا من الدلائل على هذا الميل عند ابن جبير . إن المتنبى إذا كان قد استعمل هذه الصيغة مرة واحدة فقد استعملها ابن جبير عدة مرات . وإذا كان المتنبى حين استعملها لم يكن يدرى أنها ستثير اعتراض النقاد وتهيجهم عليه فلابدّ أن ابن جبير كان يعرف هذا ، ومع ذلك فقد استعملها . إننى لم أخطّىء المتنبى ، ولا أخطىء ابن جبير أيضا ، فليس فى الأمر خطأ كما بينت فى كتابى المذكور . إنما أنا مجرد مستنبط .

على أننى قبل أن أغادر هذه المسألة أودّ أن ألفت الانتباه إلى أن ابن جبير قد استخدم ، رغم ذلك ، صيغة جمع التكسير أيضا . وذلك فى قوله : " عاينّا مجتمعا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد (الإسكندرية) راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق " (٣) .

وثمة صيغة جمعية أخرى يكرر ابن جبير استعمالها فى رحلته ويخرج فيها عن المألوف ، وهى صيغة " مفاعيل " ومايجرى مجراها .

من ذلك " مشاعيل " ، التى كررها خمس مرات على الأقل بالياء ، وذلك فى النصوص التالية :

١- الوساطة بين المتنبى وخصومه/ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى / عيسى البابى الحلبى / ط١/ القاهرة ١٩٤٥م/ ص ٤٥٦-٤٥٩.

٢-انظر د. إبراهيم عوض / لغة المتنبى / مطبعة الشباب الحر ومكتبتها / القاهرة /١٩٨٧م/ ص ٤١-٤٣.

٣-ص/٣٤.

" ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك ، وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات حتى تلألأ الحرم نورا وسطع ضياء " (١) ." وُربطت فى أعلاه عيدان نزلت منها قناديل وأسرجت فى أعلاها مصابيح ومشاعيل " (٢) . " وجُلّل ذلك كله سُرُجا ومشاعيل وشمعا " (٣) . " وأحدقت بالحرم المشاعيل " (٤) . " واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المسرج " (٥) ." وإسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يمسكها الرجّالة بأيديهم ، فلاتبصر قشاوة من القشاوات إلا وأمامها مِشعَل " (٦) . والمألوف أن تُجمع " مشعل " على " مشاعل " ، بغير ياء . وقد جمعها ابن جبير ، مرة على الأقل ، هكذا فعلا : " جرى الرسم فى إيقاد مشاعله (أى المسجد الحرام) وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم " (٧) .

ومنه " الفناديق " : " وهى (قيساريات دمشق) مرتفعات كأنها الفناديق ، متقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور " (٨) . إن جمع كلمة " فندق " ، جريا على المألوف ، هى " فنادق ". أما " فناديق " فالمفروض أنها جمع " فنداق " ، وهى صحيفة (الحساب) (٩) . وقد جمع ابن جبير

١-ص/١٢٢.

٢-ص/١٢٧.

٣-ص/١٢٩.

٤-ص/١٣١.

٥-ص١٥٥.

٦-ص/١٦٥.

٧-ص ١٣٢.

٨-ص/١٦١.

٩-انظر عبدالقدوس الأنصارى / مع رحلة ابن جبير / ص/١١١-١١٢،وتاج العروس ، والمنجد / مادة " فندق ".

كلمة " فندق " أيضا على " فنادق " (١) .

ومنه " قناطيــــر " ، التــــى وردت فـى القرآن جمعا لـ " قنطار " ، وذلك فى قوله تعالى : " والقناطير المقنطرة من الذهب والفضـــة " (٢) ، ولكـن ابن جبير جعلها جمعا لـ " قنطرة " : " ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة فى طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلا إلا وتجد قنطـرة على متفرع من الفرات . فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير " (٣) . " فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها " (٤) . وبالمناسبة فقد استعمل ابن جبير هذه الكلمة جمعا لكلمة " قنطار " أيضا " : " أنفق فيها قناطير الذهب " (٥) .

ومنه " زخاريف " : " وكان هذا الجامع المبارك (جامع دمشق) ... مزخرفا بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة " (٦) .

ومنه " خواتيم " : " وسطحه (سطح قرية بيت لاهية القريبة من دمشق) كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة " (٧) . " وداخل هذه القبة ... خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض ... أبصرنا من تلك الخواتيـــم الخشبية خاتما مطروحا جوف القبة " (٨) .

وقد وردت " خناديق " جمعا لـ " خندق " فى الطبعة العربية الأولى من الرحلة ، وذلك فى قول

١-انظر مثلا ص/١٠٣.

٢-آل عمران /١٤.

٣-ص/١٩١.

٤-ص/١٩١.

٥-ص/٣٠٦.

٦-ص/٢٤١.

٧-ص/٢٤٩.

٨-ص/٢٦٥.

ابن جبير عن مدينة " مسينة " الصقلية : " مستنـــــدة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها " (١) ، ولكنها فى طبعة بيروت : " خنادقها "(٢) .

والآن هل أخطأ ابن جبير فى زيادة " الياء " فى هذه الصيغة الجمعية ؟ لقد سبق أن كررت أن المألوف ألا تكون ثمة ياء . وهو مايعنى أن زيادتها ليست خطأ ، وإن جاءت على خلاف المألوف وأقصد بالمألوف رأى البصريين . الذى كتبت له السيادة فى النحو العربى . أما الكوفيون فإنهـــم يجوزون زيادة هذه الياء (٣) . ابن جبير إذن يجرى فى هذه الجموع على مذهب الكوفيين .

وقد قال الشاعر :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة   نفى الدراهيم تنقادُ الصياريف

جامعا " درهم " و " صيرف " (أو " صيرفى ") على " دراهم " و " صياريف " بزيادة ياء ، بدلا مـــن " دراهم " و " صيارف " (أو " صيارفة ") ، وإن كان قد قيل فى " دراهيم " إنها جمع " درهام " (٤) .

وقد وجدت أيضا محمد السنوسى فى رحلته الحجازية يجمع " باعث " على " بواعيث " ، بإضافة ياء إلى " بواعث " (٥) .

وهذان بعد مجرد مثالين .

وهناك صيغة جمعية أخرى تتكرر على نحو بارز عند ابن جبير وهى صيغة "أفعلة " .

من ذلك " أزودة " (جمع " زاد ") : " وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا

١-رحلة ابن جبير / ط ١/ص٣٠٦.

٢-رحلة ابن جبير /ط. بيروت / ص/٢٩٦.

٣-انظر فى هذا محمد عبدالعزيز النجار / ضياء السالك إلى أوضح المسالك / حـ ٤/ص٢١٤،٢١٨،و إبراهيم عوض / لغة المتنبى / ص٤٤.

٤-هذا البيت نسبه سيبويه للفرزدق ، وإن كان هناك من يقول إنه ليس له . انظر فى الأمر كله " شرح قطر الندى وبل الصدى " لابن هشام / تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد / شاهد ١٢٤،و " تاج العروس " / مادة " صرف " و " درهم " .

٥- الرحلة الحجازية / حـ١/ص٩٤.

سوى زاد لطريقهم .. وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ومافضل من أزودتهم " (١) . " ولخاتون هذه أفعال من البر كثيرة فى طريق الحاج : منها سقى الماء للسبيل . عينت لذلك نحو الثلاثين ناضحـــــة ، ومثلها للزاد . واستجلبت لما تختص بـــه من الكسوة والأزودة نحو المائة بعير " (٢) . " ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عندهم " (٣) .

ومـــــن ذلـــك " أصبغة " (جمع " صِبْغ ") : " وقد انتظمت جميعَه التصاويرُ البديعة والأصبغة الغريبة " (٤) . " قد زُيّنا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة " (٥) . " وخُلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة " (٦) .

ومنـــــه " الأنصبـــة " (جمعٌ " نصاب " ، وهو المقبض) : " فى أيديهم المسالّ الطوال ذوات الأنصبة " (٧) .

ومنه " أنعله " (جمع " نعل ") : " تطؤها الأقدام وتمتهنها بأنعلتها العوام " (٨) .

ومنـــه كذلـــك " أسمطـــة " (جمـع " سماط " ، أى المائدة) : " يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة " (٩) .

ومنـــه أيضا " الأكرية " (جمع " كراء ") : " وابتنى (جمال الدين ، وزير صاحب الموصل) ..

١-ص/١٢.
٢-ص/١٦٢.
٣-ص/١٨٣.
٤-ص/٣٦.
٥-ص/١٧٢.
٦-ص/٢٣٥.
٧-ص/٣٩.
٨-ص/٩٠.
٩- ص/٩٨.

فناديق عينها لنزول الفقراء أبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية " (١) .

ومنه " الأبنية " (جمع " بناء ") : " وقد شاع الخبر بنزول سيف الإسلام الزاهر ، وضرب أبنيته فيه ، ومقدمته من العسكر قد وصلت إلى الحرم " (٢) .

ومنه " أبلطة " (جمع " بلاط ") : " فى الجانب القبلى منه خمســـة أبلطة ".(٣) . " وهو خمسة أبلطة " (٤) . ومع ذلك ، فالغالب جمعه " بلاط " على " بلاطات " .

ومن ذلك " أسورة " (جمع " سوار ") : تحفها سُوَيْريات (سوار صغيرة) مفتولات فتل الأسورة ، كأنها مخروطة " (٥) .

ومنـــه " أكسية " (جمع " كساء ") : " وللربوة المباركة أوقاف كثيـــرة .. فمنها .. ماهو معين للأكسية برسم الأغطية بالليل " (٦) .

ومنه " أزمّة " (جمع " زمام ") : " دله قَوَمة (مشرفون قائمون عليــــه . والكلام عن مارستان) بأيديهم الأزمّة (السجلات) المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك " (٧) .

هذا ما استطعت جمعه . وإذا كان بعض هذه الجموع لاتثير أى تعليق فإن بعضها الآخر يستدعى ذلك . إن المعتاد هو إفراد " كراء " فى مثل السياق الذى وردت فيه عند ابن جبير ، لاجمعها . كما أن جمع " زاد " و " صبغ " و " نعل " القياسى هو على الترتيب : " أزواد " و " أصبـــاغ "

١-ص/١٠٣.
٢-ص/١٢٤.
٣-ص/١٨٧-١٨٨.
٤-ص/٢٢١.
٥-ص/٢٤١.
٦-ص/٢٥٠.
٧-ص/٢٥٥.

و " نعال " . هل نقول إن " أزودة " هى جمع غير قياسى لـ " زاد " . ولكن لماذا ترك القياسى ؟ وهل نقول إن " أصبغة " جمع " صباغ " ؟ فلماذا ترك " صبغ " ، ونوى " صباغ " ؟ ثم هل نقول إن " أنعلة " هى جمع الجمع ؟ ولكن لماذا جمع الجمع ؟ لاجواب إلا أنه ترك المألوف إلى غيره . أما " بلاط " فالذى ترتاح إليه الأذن هو " بلاطات " ، التى استخدمها فى معظم الأحيان فعلا . ومع ذلك فقد قال : " أبلطة " أيضا .

ومن صيغ الجمع أيضا التى تلفت الانتباه بكثرة تكررها فى الرحلة صيغة " فَعَلَة " (بفتح الفاء والعين) ، التى تكرر استخدامه لها جمعا لـ " فاعل " بدلا من صيغة الجمع السالم فى بعض الأحيان أو صيغة جمع تكسير أخرى أكثر شيوعا .

من ذلك " قَوَمة " (بدل " قائمون " ، أى المشرفون) : " قد وُكّل بها قَوَمة يسكنون فيها ويحفظونها " (١) . " وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائد نحو الثلاثين دينارا مصرية فى كل يوم تتفرق فى مصلحته ومرتبات قَوَمته وسَدَنته وأئمته والقَرَأة فيه " (٢) . " يتهادى رويدا بين رايتين سوداويين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، وبين يديه ساعيا أحد القَوَمة " (٣) . " وأجرى على قَوَمة تلك الفنادق والمنازل مايقوم بمعيشتهم " (٤) . " وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية " (٥) .

١-ص/٢٢،٢٠. وقد استخدم " قُوّام " فى صفحة ٢٠: " والجرايات متصلة لقوّامها فى كل شهر " .

٢-ص/٢٤.وقد جاء فى " نزهة المشتاق " للإدريسى (الجغرافى العربى المسلم المشهور) عن مصحف عثمان ، الذى كان موجودا فى جامع قرطبة : " وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قَوَمة المسجد " ، نقلا عن كتاب " الشريف الإدريسى " لعبدالله كنون / مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى / بيروت / ص٤٤.وجاء فى ص ١١ من " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى ، عن جامع السيدة نفيسة بمصر : " وله أيضاخُدّام وقومة " .

٣-ص/٧٢.

٤-ص/١٠٣ -١٠٤.

٥- ص/٢٠١.

ومنه " حَزَمة " : " له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة " (١) .

ومنه " ظَلَمة " (بدلا " ظالمون ") : " والله الآخذ على أيدى هؤلاء الظلمة " (٢) .

ومنه " خَدَمة " : " وبين يدى ذلك القيّم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية " (٣) . " وبين يديه فى درجات المنبر طائفة من الخدمة يمسكون أنوار الشمع بأيديهم " (٤) . " وأمر هذا الرجل عجيب فى قعدده وأبهته .. وكثرة عبيدة وخَدَمته " (٥) . " وابتدر الجمع مردة من الخدمة يخترقون الصفوف ويتخطون الرقاب " (٦) . " أعلمنا به أحد خَدَمته المتخصين به " (٧) .

وقد صادفت هذه الكلمة فى " الرحلة الحجازية " لمحمد السنوسى عدة مرات (٨) .

و " السَّرَاة " : " ولهذا الرجل .. من الآثار السنية .. التى لم يسبقه إليها الأكابر الأجواد وسراة الأمجاد .. مايفوت الإحصاء " (٩) .

ومنه " قرأة " (بدل " قُرّاء ") : فيرتج المسجد لأصوات القَرَأة من كل ناحية " (١٠) . " فتغص الخانقة بالقرأة كل جمعة " (١١) .

ومن الكتاب القدماء الذين كانوا يستعملون هذه اللفظة كثيرا ابن جرير الطبرى ، وذلك فى

١-ص/٢٧.

٢-ص/٣٩.

٣-ص/٢٦.

٤-ص/١٢٩.

٥-ص/١٧٩.

٦-ص/١٧٩. وقد استخدم فى نفس الصفحة كلمة " خُدّام " أيضا .

٧-ص/٢٩٨.وقد ورد هذا الجمع فى " مستفاد الرحلة والاغتراب " /ص٣٢٠.

٨-محمد السنوسى / الرحلة الحجازية / حـ١/ص٢٤٣ ,٢٧٥.

٩-ص/١٠٣.

١٠-ص/١٢٢.

١١-ص/٢٦٣.وقد استخدم فى نفس الصفحة كلمة " قُرّاء " أيضا ، وكذلك فى ص/٢٤،١٢٩،١٧٨،٢٥٧على سبيل المثال .

تفسيره المشهور عند كلامه عن القراءات المختلفة.

ومن ذلك أيضا " نَشَأة " (بدل " ناشئون ") : " فمن شاء الفَلاَح من نَشَأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد " (١).

وعلى هذه الصيغة الجمعية وردت فى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى " حَجَبة " ، جمع " حاجب (القصر) " ، (٢) ، و " وَزَعَة " ، جمع " وازع " (٣).

ومن هذا الباب أيضا استخدامه للفعل " عاد " أحيانا فى معنى " صار " و " أعاد " فى معنى " صيّر " . ولا أقول إن هذا خطأ ، فإنه أحد معانى هذا الفعل ، ولكن ذلك خلاف المشهور الشائع . وهذه بعض أمثلة :

" واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المُسْرَج . وأما مسجده المذكور فعاد كله نورا ، فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به " (٤) . " وعلى هذه الصفة (صفة الإضاءة الساطعة) عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه " (٥) . " فتعود جمرة العقبة فى هذين اليومين أخيرة ، وهى يوم النحر أولى منفردة " (٦) . " وفى أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام .. سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق إلى العقيق ، ومن البرّ إلى الدرّ، إلى غير ذلك من السلع " (٧) . " وكانت مقصورة الصحابة أولا فى نصف الحدّ الإسلامى من الكنيسة ... فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة الصحابة طرفا فى الجانب

١-ص/٢٥٨.

٢-مستفاد الرحلة والاغتراب / ص٢٦٤،٢٧٩،٤٤٥.

٣-ص/٣٠٨.

٤-ص/١٥٥.

٥-ص/١٥٥.

٦-ص/١٥٦.

٧-ص/١٦٠.

الشرقى " (١) " وهى (وهدة متصلة بمدفن الأنبياء والصالحين خارج دمشق) لاتخلو من الماء حتى عادت قرارة له " (٢) . " ومن أعجب ماحدثنا به خديمه المذكور (خديم ملك صقلية ، وهو مسلم) أن الإفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة : تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة " (٣) .

ومما يلحق بخروج ابن جبير فى أسلوبه عن المألوف أحيانا أنه يستخدم بعض الألفاظ التى ألف تأنيثها ، بصيغة التذكير ، والعكس بالعكس.

مثال ذلك " نعلة " (بدل " نعل ") : " فعند صعوده فى أول درجة قلده المؤذن المذكور السيف. ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين " (٤) . مع أنه سبق أن استخدمها بصيغة التذكير ، فى وصف موقف مماثل : " وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها إيذان بالإنصات " (٥) .

و " قرصة " (بدل " قرص ") : " والمتحفظ لاينفر من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس " (٦) . " لأن مذهب مالك رضى الله عنه ، يقتضى ألاّ يَنْفِر حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس ويحين وقت المغرب " (٧) . ورغم ذلك فقد استعملها أيضا بدون التاء فى نفس الصفحة وفى موضع آخر بعد ذلك : " فمازال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم إلى أن سقط

١-ص/٢٣٨-٢٣٩.

٢-ص/٢٤٧.

٣-ص/٢٩٩.

٤-ص/٧٢.

٥-ص/٢٥.

٦-ص/١٥١.

٧-ص/١٥٣.

قرصها وتمكّنَ وقت المغرب " (١) . " فلايزالون واقفين داعين متضرعين إلى أن يسقط قرص الشمس " (٢) . ولعل القـارىء قد لاحظ أن العبارة واحدة فى كل هذه المواضع ، وهى " سقوط قرص(ـة) الشمس " .

ومنه كلمة " فائد " (بدل " فائدة ") : " ولافائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبّسة المعيّنة من قِبَله لهذه الوجوه " (٣) . " إن له من ذلك فائدا كبيرا " (٤) .

و " مطبخة " (بدل " مطبخ ") : " الناظر فى مطبخته رجل من المسلمين " (٥) . وقد قابلت هذه الكلمة فى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى : " ورانب مطبخته (أى ابن طولون) كل يوم ألف دينار " (٦) .

و " الاستطاع " (فى مكان "الاستطاعة ") : وأحكم ذلك إحكاما يدل على قدرة الاتساع وقوة الاستطاع " (٧) . وقد علق شارح ألفاظ الرحلة فى الهامش قائلا : " لعلها المستطاع ، لأنه لاوجود للفظة (الاستطاع) فى اللغة " . ولكن ماقوله فى استعمال ابن جبير لها مرة ثانية على الأقل ، وذلك فى قوله : " تدل على عظم الاستطاع والقدرة " (٨) .

ومنه " مَجْهلة " (بدل " مَجْهَل " ، أى المفازة التى لايُهْتَدَى بها) : " وربما كان من الحجـاج

١-ص/ ١٥٣.
٢-ص/٢٦٤.
٣-ص/١٦.
٤-ص/٨٩.
٥-ص/٢٩٨.
٦- مستفاد الرحلة والاغتراب / ص ٦.
٧-ص/١٨٤.
٨-ص/١٨٩.

من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشا " (١) .

ومنه " صَفح " (فى موضع " صَفْحة " أحيانا ، بمعنى " الجانب " و " الوجه ") : "ارتفاعه (أى البيت الحرام) فى الهواء من الصّفح (أى الجانب) الذى يقابل باب الصفا .. إلى الركن اليمانى تسع وعشرون ذراعا " (٢) . " فأحد الأعمدة .. يقابل نصف الصّفح الذى يحف به الركنان اليمانيان . وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا . والعمود .. يقابل الصفح الذى يحف به الركنان العراقى والشامى " (٣) . " وفى الصفحين الكبيرين منها ثمانية عشر (سترا) ، وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر " (٤) .. إلخ .

ومنه قوله : " ومشينا فى بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أدناها ولايبلغ مداها " (٥) . بدلا من " بسيط " ، التى يغلب استعماله إياها .

ومنه " مَحَلّة " (بدل " مَحَل " (أى مكان النزول والإقامة) فى كثير من الأحيان) : " وكانت محلة الأمير العراقى جميلة المنظر " (٦) . " سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقى إلى مكة " (٧) . " وفى عشىّ يوم الأحد .. كان مسيرنا إلى محلة الأمير العراقى " (٨) . " وبهذه المحلة العراقية .. جمع لايحصى عدده " (٩) .. إلخ .

١-ص/٤٦.
٢-ص/٥٩.
٣-ص/٦٠.
٤-ص/٦١.
٥-ص/١٨١.
٦-ص/١٥١.
٧-ص/١٥٧.
٨-ص/١٦٠.
٩-ص/١٦٢.

و " دائر " (محل " دائرة " أحيانا) : " ودائر البيت كلـــــه مــن نصفه الأعلى مطلى بالفضة المذهبة المستحسنة " (١) . " وسمّر دائر المحراب كله بمسامير حديدة الأطراف غرز فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله " (٢).

و " ترُب " (بدل " تربــــة ") : " وقفنا بإزائها مسلمين ، ولترب جنباتها مستلمين " (٣).

و " الصقالب " (بدل " الصقالبة ") : " والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد " (٤).

و " أنبوب " (بدل " أنبوبة ") : " ووُضعت فيها الزجاجات ذوات الأنـــابيب .. لايزيد منها أنبوب على أنبوب فى القد " (٥) ." وفى وسط الحوض الرخامى أنبوب صُفر (نحاس) يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة " (٦).

و " لجاج " (بدل " لجاجة ") : " والريح الغربية على أول لجاجه " (٧). " والبرح بها قد جُنّ واستشرى لجاجُه " (٨).

كمـــا رأينا ابن جبير ، فيما مرّ ، يستخدم أكثر من مرة كلمة " وظيف " بدل " وظيفة " ، وإن كان استخدم الأخيرة أيضا.

ومثل ذلك يقال عن استعماله " مَصْنَع " (بمعنى " حوض الماء المبنى لتجميع مياه المطر ") عدة مرات فى مكان " مَصْنعة " ، وإن كان قد استخدم هذه أيضا.

١-ص/٦٠.

٢-ص/١٢٨.

٣-ص/١٦٧.

٤-ص/١٧٧،وقد سبقت فى ص/١٧١.

٥-ص/١٣٠.

٦-ص/٢٤٣.

٧-ص/٢٨٥.

٨-ص/٢٨٨.

ومنه أيضا قوله : " ودموعه تكف ، وصوته ترقّ وتضعف " (١) ، بتأنيث " الصوت " . وقد ظننت فى البداية أن هذا من خطإ النسخ ، لكنى لما رجعتُ إلى الطبعة الأولى ، وهى مأخوذة عن طبعة المستشرقين ، ووجدت أنها بالتأنيث أيضا ، وكنت أعلم مما قاله عبدالقدوس الأنصارى أن طبعة بيروت ، وهى التى عليها معولى ، تكاد أن تكون هى هى طبعة د.حسين نصار (٢) ، تزعزع هذا الظن ، إذ لايعقل أن يسكت كل هؤلاء المحققين على هذا الخطإ . ثم رجعت إلى بعض المعاجم العربية لأستبين وجه الحقّ فى ذلك ، فإذا بى أعثر على هذا البيت من الشعر ، وهو لرويشد بن كثير الطائى :

يا أيها الراكب المزجى مطيتــــه سائل بنى أسد : ماهذه الصوت ؟ (٣)

فعندئذ قوى عندى احتمال أن يكون ابن جبير قد قصد تأنيث الصوت قصدا، متابعا فى ذلك هذا البيت أو غيره مما يمكن أن يكون صادفه فى قراءاته ، رغبة منه فى تجنب الشائع المألوف ، كما هو ديدنه فى كثير من الأحيان مثلما رأينا.

وقد استقبح بعض اللغويين، كابن سيدة التأنيث هنا رغم حمله على الضرورة الشعرية . وقد وجّه الجوهرى فى " الصحاح " التأنيث فى البيت إلى أن الشاعر أراد " الضوضاء والجلبة والاستغاثة " ، وتابعه فى ذلك فيما يبدو صاحب " تاج العروس " . ومع ذلك ، فربما كان تأنيث الصوت لغة لم يتنبه إليها هؤلاء العلماء . وهنالك فى اللغة العربية أسماء تذكر وتؤنث فى الوقت ذاته ، مثل " السوق " و " البطن " و " الطريق " و " السبيل " و " والصـــــراط " و " الزقاق " (٤) . وقد يكون الصوت من بينها.

ولايقف خروج ابن جبير على المألوف عند هذا الحد ، بل إنه كثيرا مايترك اللفظة المأنوسة

١-ص/١٢٠، وفى الطبعة الأولى ص/ ١١٧.

٢-انظر مع ابن جبير فى رحلته / ص٢٤٢.

٣-انظر "الصحاح " و " تاج العروس " /مادة " صات ".

٤- انظر مثلا " تاج العروس " / مادة " ساق " ، و " الصحاح " /مادة " زقق ".

إلى أخرى قليلة الحظ من الأنس والشيوع .

مثلا نراه يقول " الجَلَمـــــان " بدلا من " المقص " : " وبإزائها رخلمتان متصلتان بجدار الحجر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب ما لايحدثه الصَّنَع اليدين فى الكاغد قطعا بالجَلَمَين " (١) . " فيلقون نواصيهم بين يديه ، فيستدعى جَلَمين ويجزها ناصية ناصية " (٢) .

وهذه الكلمة مأخوذة من " جَلَم " ، أى قطع . وسمى المقص " جَلَمين " ، لأن " الجَلَم " هو أحد شقيه . وهو فى هذا يشبه كلمات " trousers " و " glasses " و " shoes " الإنجليزية .

وهناك بيت لعنترة العبسى ، الشاعر الجاهلى المشهور ، وردت فيه هذه الكلمة ، وهو :

حَرِق الجناح ، كأن لَحْيَىْ رأسه　　　جَلَمان ، بالأخبار هش مولـــع

مما يدل على أن هذه التسمية لـ " المقص " قديمة .

ويقول " قَضَافة " ، بدل " نحافة " : " ثم يعالج إدخال سائر جسده ، فمنهم من يتأتى له بحسب قضافة بدنه " (٣) .

و " اللزّ " بـــــدل " الضغط " : " وحفت به أعمدة الرصاص الملصقة إليه إبلاغا فى قوة لزّه ورصه " (٤) . " زائدا إلى مايكابده بدنه من اللزّ فى ذلك المضيق " (٥) . " فكابد من لزّ الزحام عنتا ومشقة " (٦) .

و " نُكَــــت " بدل " نُقَط " : " وكلتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة

١-ص/٦٤.

٢-ص/١٧٨.

٣-ص/٩٤.

٤-ص/٦٦.

٥-ص/٩٤.

٦-ص/١١٨.

قليلا كأنها تجزيع ، وهى أشبه الأشياء بالنكت التى تبقى فى البيدق من حلّ الذهب فيه " (١) .

و " رَفَع " بدلا من " ارتحل " ، و " وضح " بدل " وسط الطريق ومحجته الواضحة " : " فلإذا كان فى عشية رفعوا وأسروا ليلتهم " (٢) . " وفى ظهر يوم الثلاثاء ـ كان رَفعُنا من مجاج ... سالكين على الوضح " (٣) .

و " تأثّل " بدل " لمتلك " : " تأثلوا بها النيار والرباع " (٤) .

و " الناضّ " بدل " نقد الذهب والفضة " : " وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناضّ ليؤدى زكاة ذلك كله " (٥) . " قدّم نفيس ذخائره وناضّ ماله " (٦) .

و " الإشفَى " بدل " المِخْرَز " : " ومافيه مغرز إشفى ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش " (٧) .

و " الأوزاع " بدل " أتباع " : " الخدّام والأتباع والأوزاع " (٨) .

و " الأوزاع " هى الفرق من الناس والجماعات ، ولا واحد لها من لفظها . وقد تصادف أن فتحت وأنا أكتب هذه الفقرات كتاب الأديب السعودى المرحوم أحمد السباعى " أيامى " (٩) ، فإذا به فى الصفحة السادسة عشرة يقول : " وكنا (يقصد تلامذة الكتاب) فى نظر فقيه الكتاب أوزاعا ،

١-ص/٦٥.

٢-ص/٥٧. وفى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للقاسم التجيبى السبتى نجد الفعل " رفعنا من (المكان الفلانى) " قد تكرر عددا من المرات . ص/٢٠٠،٢٠٣،٢٠٤ مثلا .

٣-ص/٤٤.

٤-ص/٤٥-٤٦.

٥-ص/١٣.

٦-ص/١٤٨.

٧-ص/٣٧.

٨-ص/٧٤.

٩- ط١/سلسلة " الكتاب العربى السعودى " رقم ٧٨/جدة / ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

تتنوع حقائقنا بتنوع أقيلمنا الاجتماعية " . مستخدما " الأوزاع " فى معناها كما نص عليه المعجم . ولم يتجوز فيه كما فعل ابن جبير .

و " الطوامير " بدل " الصحف " : " والمقيّد (أى الكاتب) يسود طواميره بالتقييد " (١)

و " الوجبة " بدل " السقطة " : " فقام ابن حسان مذكورا .. مترددا فى حياة الرجل أو موته لشدة تلك الوجبة " (٢)

و " الأسبوع " بدل " السبعة " : " فإذافرغ من الأسبوع وركع عاد لإقامة تراويح أخر " (٣). "فإذافرغوا من تسليمتين عادوا لطواف أسبوع " (٤) . وقد لاحظت أن محمد رشيد رضا فى رحلته إلى الحجاز يستخدم هذه اللفظة عند الكلام عن الطواف إفرادا وجمعا (أسبوع - أسابيع) (٥) . ويبدو لى أنه متأثر فى ذلك بابن جبير ، كما فى كلمة " بسيط " ، التى مرت . ذلك أنه أكثر فى هذه الرحلة النقل عن ابن جبير . كما وجدتها فى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى (٦) . وبالمناسبة فإن هذا المؤلف كان يصطحب معه رحلة ابن جبير فى سفرته هذه إلى الحجاز ، وعلق عليها فى أكثر من موضع فى كتابه .

و " السليط " بدل " الزيت " : " وقد وُضعت بيد كلّ منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات " (٧) .

و" الأحوال " بدل " الثروات " : " وركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة وأموال

١-ص/١٠٥.
٢-ص/١٣١.
٣-ص/١٢٢-١٢٣.
٤-ص/١٢٢.
٥-انظر " رحلات الإمام محمد رشيد رضا " /ص ١٣٣.
٦- مستفاد الرحلة / ص ٢٢٧.
٧-ص/١٣١.

لاتحصى كثرة " (١) . " وبالجملة فحاله لاتوصف كثرة واتساعا ، والذى انتهب له أكثر " (٢) .

و " يُهْطِع " بدل " يسرع " و " المرملون " بدل " الذين نفد منهم الزاد " : " فيهطع إليه المرملون من الزاد والماء بقربهم وأباريقهم فيملأونها " (٣) .

و " العقلة " بدل " التوقف " : " فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفز العقلة والنظر إلا دجلتها " (٤) .

" ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل بجزيرته .. فليس لمركب سبيل للسفر " (٥) .

و" أسأد " بدل " أسرع فى السير " : " فهوّمنا هنيهة ، ورحلنا وأسأدنا إلى الصباح " (٦) .

و " الخصة " بدل " الحوض " : " وفى أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة " (٧) .

و " الأشبه " بدل " الأحسن " : " على أن القَدَر المحمود لم يسبب لنا إلا صحبة الأشبه منهم " (٨) .

و " المِلاك " بدل " الزواج " : " تُخطَب بعدهم فلايتعذر ملاكها " (٩) .

و" أشفّ " بدل " أكثر " ، و " سرارة " بدل " أطيب " : " بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف

١-ص/١٤٨.
٢-ص/١٤٨.
٣-ص/١٦٤.
٤-ص/١٩٣.
٥-ص/٣١٠.
٦-ص/٢٠٨.
٧-ص/٢١١.
٨-ص/٣١٣.
٩-ص/٢٢٥.

قليلا ، وهو سوارة أرض فلسطين " (١) .

و " ذَيَّـــر " بدل " غضب وَهاج " : " ونحن نجرى برياح شمالية شرقية فنذُرت وعصفت فطار لها المركب بجناحى شراعه " (٢) .

و " الحصاة " بـــدل " العقل " : " واستمال نفوسنا بشرف منزعه ، وخصوصية شمائله ، ورزانة حصاته " (٣) ... وهذه ليست إلا أمثلة .

بعد هذا نجد أن من الصعب موافقة الدكتورشوقى ضيف فيما يصف به رحلة ابن جبير من أنهـا "مكتوبةبلغة سهلة بسيطة ملائمة تملما لموضوعها " (٤) . فإن ابن جبير كثيرا مايتنكب الشائع المأنوس من الألفاظ والصيغ إلى المهجور أو على الأقل ماهو أقل شيوعا . ثم إنه لم يستخدم أسلوبا مترسلا طول الوقت ، بل لجأ إلى السجع فى مواطن كثيرة على ماسأبين فيما بعد ، وإن لم يكن سجعه من النوع الثقيل الذى يجثم فوق صدر العبارة ويجعل القراءة عملية مرهقة ، كما هو الحال فى أسجاع لسان الدين بن الخطيب مثلا . ومع هذا ، فإن حيوية أسلوبه وتواضع نفسه ورغبته فى أن يشرك القارىء معه فى كل مايشاهد ويجرّب ، كل ذلك يعفّى على هذا السمة فى أسلوبه ، ويجعل لكلامه علقة فى النفس ، وبخاصة أنه فى تنكبه للشائع المألوف أحيانا لايفعل ذلك ، فيما هو ظاهر ، تفاصحا ، بل يواتى قلمه هذا النوع من الألفاظ على نحو طبيعى . ونظرة إلى مابلغنا من نثره الآخر (غير الرحلة) توقفنا على صدق هذه الملاحظة ، فإن التكلف باد عليه .

ومما لُوحظ على لغة ابن جبير تكرر إيراده بضع كلمات أعجمية إسبانية (غير الأخرى التى من غير الإسبانية كـ " البربا " (المقبرة) ، وهى كلمة مصرية قديمة (٥) ، و " الخان " (بيت

١-ص/٢٦٠.

٢-ص/٢٨٨.

٣-ص/٣١٤.

٤-د. شوقى ضيف / الرحلات / ص/٧١.

٥-ص/٣٦.

المسافرين) ، وهى فارسية كما مرّ) .

وقد قابلنى من هذا النوع من الألفاظ كلمة " بَطَسَه " ، أى عمّده ، بمعنى رش عليه الماء عند تنصره أو تنصيره : " فمازال الشيطان يستهويه ويغويه إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور ، فانصرفنا إلى مكة وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بُطِس ورُجِس " (١) .

و " القومس " ، وهو الكونت : " القومس اللعين صاحب طرابلس وطبرية " (٢) .

و " البلغريون " ، أى الحجـاج (حجاج بيت المقدس) . " صعدنا إلى المركب ... ، وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين ، وهم حجاج بيت المقدس " (٣) . " وورث هؤلاء الأمواتَ من المسلمين والنصارى البلغريين رئيسُ المركب " (٤) . " وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين ... ، وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده " (٥) .

و " القَنْبانية " ، وهى مـــا لا أدرى معناه : " وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا ، فشبهناها بقَنْبانية قرطبة " (٦) .

وهنـــــاك كلمـة أخرى معرّبة سمعها وهو فى السفينة عائدا إلى بلاده ، وهى سفينة جنوية ، ولا أدرى من أية لغة . ولعها لاتينية أو من إحدى اللغات المتصلة بها ، وهى كلمة " الغلينى " ، أى الهواء الساكن : " ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين على صفحة ماء ... وهذا الهواء الذى يسميه البحريون الغلينى " (٧) . ولا أظن أن هناك كلمات أخرى من هذا النوع .

١-ص/٢٨١.

٢-ص/٢٨٢.

٣-ص/٢٨٣.

٤-ص/٢٨٧.

٥-ص/٢٩٢.

٦- ص/٣٠٧.

٧-ص/٢٨٦.

لقد كان ابن جبير أندلسيا ، وفى الأندلس كانت تتعايش العربية الفصحى وعاميتها مع اللاتينية والرومانثية . وكان كثير من المسلمين ، وبخاصة رجال الدولة وعلماؤها ، يعرفون العامية الإسبانية (الرومانثية) عن طريق المصاهرة والاحتكاك اليومى والرسمى بأهل الذمة من نصارى الأندلس ويهودها ، الذين كانوا يتكلمون فى بيوتهم وبين أهليهم وفى الشارع أحيانا بلغتهم (١) . فمن الطبيعى أن تعلق بذهنه ولسانه بعض الكلمات الإسبانية .

ومعروف أن كثيرا من خرجات الموشحات الأندلسية كانت تضم كلمات رومانثية . ومع هذا فالكلمات الأعجمية التى من هذا النوع ، كما ترى ، كلمات جد قليلة لاتسوّغ قول عبدالقدوس الأنصارى إنه كان يسترسل فى استعمالها (٢) .

أما الشىء المتعلق بالألفاظ الأعجمية والذى لم أجد فيه لابن جبير ، فيما قرأت للكتاب العرب القدماء ، نظيرا فهو تأريخه لحوادث رحلته فى معظم الأحيان بالتاريخ الإفرنجى (أو الأعجمى كما يسميه) مع التاريخ الهجرى . وهاهى ذى بعض أمثلة على ما أقول :

" أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور (سنة ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية) ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمى " (٣) .

" يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور ، وهو الثامن عشر من يوليه " (٤) .

" استهل هلاله (هلال جمادى الآخرة) ليلة الأربعاء ،وهو الحادى والعشرون من شهر شتنبر العجمى ونحن بالحرم المقدس " (٥) .

١-انظر فى هذا النقطة د. أحمد ميكل / الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة / دار المعارف / القاهرة /١٩٧٩م/ ص٤٦-٤٧.

٢- انظر " مع ابن جبير فى رحلته " / ٣٤٨.

٣- ص/٧.

٤- ص/٤٩.

٥-ص/١٠١.

" استهل هلاله (أى شهر ذى الحجة) ليلة الخميس بموافقة الخامس عشر من مارس " (١) .

" هلاله على الكمال من ليلة الاثنين ، بموافقة الرابع عشر من مايه " (٢) .

" وأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده ، وهو الثانى ليوليه " (٣) .

" استهل هلاله (شهر رجب) ليلة الثلاثاء بموافقة التاسع لشهر أكتوبر " (٤) .

" ليلة التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لأكتوبر " (٥) .

بل إنه فى بعض الأحيان كان يؤرخ بالإفرنجى فقط (٦) .

قلت إننى لم أجد أحد ، فيما قرأت للكتاب العرب القدماء ، نظيرا لابن جبير فى التأريخ بالشهور الإفرنجية إلى جانب الشهور العربية . فابن بطوطة مثلا (وهو مثله من المغرب الإسلامى) لايستخدم إلا التاريخ الهجرى اللهم إلا مرة واحدة ، وذلك عند كلامه عن زيادة النيل ، فقد أرخ لذلك بشهر حزيران ، وأعقب ذلك قائلا : " وهو يونيه " (٧) . فابن بطوطة لم يلجأ إلى الشهر الشمسى إلا عند كلامه عن زيادة النيل ، وهى ظاهرة مرتبطة بالشهور الشمسية الثابتة مع الفصول ، لا القمرية المتغيرة . وقد ذكر الاسم السريانى للشهر أولا ، ثم أعقبه بالاسم الإفرنجى .

وعند البغدادى تقابلنا أسماء بعض الشهور القبطية ، وذلك عند تأريخه للتفريخ فى

١- ص/١٤٦.

٢-ص/١٩٠.

٣-ص/٢٣٣.

٤-ص/٢٨٤.

٥-ص/٢٨٥.

٦-مثلا ص/٣٢،٢٩.

٧-رحلة ابن بطوطة / ص٤١.

مصر (١) . وهذا مفهوم ، فمن الواضح أن عملية التفريخ فى مصر كان يؤرخ لها بهذه الشهور ، بل إن الفلاحين المصريين حتى الآن مازالوا يؤرخون للزراعة بها

وفى " أحسن التقاسيم " للمقدسى لانجد أسماء شهور إفرنجية ، ولكنه وهو فى مصر ذكر شهور السنة القبطية (٢) .

وفى " اتعاظ الحنفا " ، وهو كتاب تأريخ حَوْلــــى للدولة الفاطمية ، لانجد المقريزى يؤرخ بغير الشهـــور الهجرية ، اللهم إلا عند تأريخه لولادة الحاكم بأمر الله (دون الخلفاء الفاطميين الآخرين جميعا) ، فإنه أرخ له بالهجرى والسريانى ، وزاد فذكر الساعة ومنازل الشمس والقمر وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والرأس (٣) ، وكذلك عند تأريخه لفتح خليج النيل ووفاته ، إذ ذكر الشهر القبطى (٤) .

كما التزم غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى فى كتابه " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " التأريخ بالشهور الهجرية ، حتى وهو يتحدث عن المعارك التى دارت بين المسلمين والقبارصة فى قبرص النصرانية ذاتها (٥) .

بل إن معطف روجر الثانى ملك صقلية (النصرانـــــى) الذى صنعه له عامله العربى عبدالله نساج الذهب ، ليتوّج فيه ملكا إثر ضمه جنوبى إيطالية إلى صقلية ، كان عليه تاريخ صنعه

١-انظر نصا للبغدادى ورد فيه أسماء الشهور " أمشير وبرمهات وبرمودة " فى " الرحلة والرحالة المسلمون " للدكتور أحمد رمضان أحمد / دار البيان العربى / جدة / ص ٢٩٦ .

٢-انظر " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " / ط ٢/ / ١٩٠٩م/ ص٢١١-٢١٢.

٣- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا / حـ٢/تحقيق د محمد حلمى / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م/ ص٣

٤- نفس المرجع السابق /ص٧٤،٧٦،٨٩.

٥-انظر ص/٢٤٣ من كتابه المذكور .

بالتاريخ الهجرى وحده (١) .

أما القاسم بن محمد التجيبى السبتى فقد أرخ بالعربـــــى والإفرنجى مرة (٢) . كما أنه فى أثناء كلامه عن مواعيد فيضان النيل قد استخدم أسماء الشهور الإفرنجية ، وهى : " يونيه وأغشت وأكتوبر " (٣) .

ومع ذلك فقد استخدم ابن جبير كلمة " نيسان " مرة (مرة واحدة) لتسمية شهر إبريل (٤) .

وثمــــــة ملاحظة ثانية ، وهى أن طريقة كتابة أسماء هذه الشهور ونطقها مختلفة فى كثير من الأحيان عن طريقتنا اليوم . وهاهى ذى كما وجدتها عنده :

" ينير " (٥) ، و " فبرير " (٦) ، و " مارس " (٧) ، " وأبريـــــــل " (٨) ، و " مايـــــه " (٩) ، و " يونيــــــه " (١٠) ، و " يوليه " (١١) ، و " أغشت " (١٢) " وشتنبر " (١٣) و " أكتوبـــــر " (١٤) .

١- انظر زيغريــــــد هونكه / شمس العرب تسطع على الغرب / ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقى / المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر / ط ١/١٩٦٤م/ ص٤٠٩-٤١٠.

٢-مستفاد الرحلة والاغتراب /ص٢٢٥.

٣-مستفاد الرحلة والاغتراب /١٦٥.

٤-ص/٣١٩،قبل نهاية الرحلة بقليل .

٥-يناير /ص١٣٢،٣٠٩ مثلا .

٦-فبراير /ص١٣٥،٧،١٣٨ ، ١٤٠ مثلا .

٧-مارس /ص ١٠٨،١٢ مثلا .

٨- ص/١٧،١٨،٣٢،١٦٠ مثلا .

٩-مايو /ص٣٢،٤٠،٤١،٨٣،١٩٣،٢٠٦،٢٨٤ مثلا .

١٠-ص/٤١،٤٦،٢٠٨،٢١٩ مثلا .

١١-ص/٤٩،٢٣١،٢٣٤.

١٢-أغسطس /٢٩،٥٧،٥٨،٢٥٤.

١٣-سبتمبر /٩٥،١٠١،٢٧١،٢٧٧ مثلا .

١٤-ص/١٠٦،٢٨٣،٢٨٤،٢٨٥ مثلا .

و " نونبر " (١) ، و " دجنبر " (٢) .

وقد تصادف وأنا أعد هذه الدراسة عن ابن جبير ، أن قابلت كلمة " ينير " (بهذا الشكل) عند ابن حيان المؤرخ الأندلسى المشهور " (٣) ، وكذلك عند الإدريسى ، الجغرافى المسلم الشهير الذى كان يعيش فى بلاط ملك صقلية وكنفه (٤) .

وعند كاتب مغربى حديث قرأته وأنا بصـــدد الاشتغال فى هذا البحث أيضا ، وهو د. إبراهيم السولامى ، قابلتنى الشهور الآتية (وأرجو أن يلاحظ القارىء مدى توافق بعضها واختلاف بعضها الآخر مع أسماء الشهور عند ابن جبير ، وكلاهما من المغرب الإسلامى ، وإن كان أحدهما ينتمى إلى القــرن الســادس الهجــرى وأوائل السابع والثانى إلى العصر الحديث) وهــى : " يناير " (٥) ، و " فبرايـــر " (٦) ، و " مـــارس " (٧) ، و " مــــــاى " (٨) ، و " يونيـــه " (٩) ، و " يوليـوز(؟) "(١٠) ، و " شتنبر " (١١) ، ونونمبر " (١٢) ، و " ديجنبر " (١٣) .

١-نوفمبر /ص١١٧،٢٨٦،٢٨٨،٢٩١ مثلا .

٢-ديسمبر /ص ٢٩١،٢٩٢،٣٠٠،٣٠٧ مثلا .

٣-انظر النص الذى ورد فيه اسم الشهر فى " تراجم إسلامية " لمحمد عبدالله عنان / ط٢/الخانجى / ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م/ص٢٧٠.

٤-انظر كراتشكوفسكي / تاريخ الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول /٢٨١.

٥-د إبراهيم السولامى / تأملات فىالأدب المعاصر / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٧٩/ص١٦٥.

٦-المرجع السابق /ص٢٧،١٢٩.

٧-ص/٢٤،١٩٢،١٩٥.

٨-ص/٢٤، وإن كان قد كتبه فى موضع آخر: " مايو " / ص١٩٣.

٩-ص/٢٦،٢٧،٢٨.

١٠-ص/١٥٥،١٦١،١٦٥.

١١-ص/٣١،٣٢.

١٢-ص١٥٠،١٥٣،١٦١،١٦٣.

١٣- ص/٢٥.

ويكثر عند ابن جبير استعمال المصدر الميمى واسم الزمان والمكان . وهذه أمثلة :

" وتركنا المركب المذكور فى موضع إرسائه ، بسبب مغيب أصحابه فى البلد " (١) .

" ومنتهى دور الجزيرة .. إلى أزيد من خمسمائة ميل " (٢) .

" واليأس بلغ منا مبلغه " (٣) .

" وأما داخله فمرأى هائل ، اتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن " (٤) .

" ومـــن مناقب هذا البلد ومفاخره .. المدارس والمحـــارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه " (٥) .

" ولا محرس من المحارس ولامدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعمّ من يأوى إليها " (٦)

" اعتسفوا هـــذه المجاهل " (٧) ." وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه ويهلك عطشا " (٨) .

" والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه " (٩) . " وبلادهم .. خصيبة .. وسعة المحرث وافرة الغلات " (١٠) . " ولها (للنيصر العراقية) المحرث الواسع " (١١) . " ولكن قراها (أى قنسرين)

١- رحلة بن جبير / ص/١٠.

٢- ص / ١٠.

٣- ص / ١٠.

٤- ص / ١٥.

٥- ص/١٥.والمحارس : جمع " محرس " ، وهو مأوى للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء .

٦- ص/٢٧.

٧- ص / ١٧. ومجاهل : جمع " مجهلة " ، وهى الصحراء التى لاعلامة فيها يُهْتَدَى بها .

٨- ص / ٤٦.

٩- ص/١٨. والمحرث : الأرض التى تصلح للحرث والزراعة .

١٠- ص / ١١١.

١١- ص/٢١٦.

عامرة منتظمة، لأنها على محرث عظيم مدّ البصر " (١) . " بها ماء جـــار ومحـــرث متسع " (٢) .
" وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا " (٣) .

" وبـــالجملة فما أظن فى الوجود كله .. مرأى من البناء أعجب ولا أبدع " (٤) . " وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ماتضل فيـه الجماعات من الناس ... وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ومرآه إحدى عجائب الدنيا " (٥) .

" فيالك مرأى لايتخيله المتخيل، ولا يتوهمه المتوهم " (٦) .

" وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعا تتخلع له النفوس خشية ورقة " (٧) . " والهول قد عظم مرأى ومستمعا " (٨) . " فشاهدنا ... مرأى عجيبا " (٩) . " لايتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائى الرياضية " (١٠) .

" ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرّة يتخذها المرضى مضاجع كاملة المكس " (١١) .

١- ص/٢٢٨.
٢- ص/٢٣٣.
٣- ص/٢٠٧.
٤- ص/٢٠.
٥- ص/٢٧.
٦- ص/١٣٠.
٧- ص/١٢٢.
٨- ص/١٢٥.
٩- ص/٢٢١.
١٠- ص/٢٢٧.
١١- ص/٢٦.

" فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت " (١) .

" ويتصـــل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت مجالس للمجانين " (٢) .

" وله (لعمرو بن العاص) أيضا بالإسكندرية جامع آخر هو مصلى الجمعـــة للمالكين " (٣) .
" فلما كان صبيحتها ... لبس الناس أثواب عيدهم وبادروا لأخذ مصافّهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام . لأن السنّة جرت بالصلاة فيه دون مصلّى يخرج الناس إليه " (٤) . " وبإزاء محرابها لجهة اليمين مصلى أبى الدرداء " (٥) . " وبإزائها بيت يقال إنه مصلى الخضر " (٦) .

" وجهـــه إلى الإهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النيل " (٧) . " وكفاها (أى مكة) أنها منشأ النبى . صلى الله عليه وسلم ، ... وأول مهبط الروح الأمين " (٨) . " فقعدت (الخاتون) فى الموضـــع الذى يقال إنه كان مهبط جبريل عليه السلام " (٩) . " والمهبط إليها على أدراج كثيرة " (١٠) .

" ومافيه مغرز إشفـــــى (١١) ولا إبـــــرة إلا وفيـه صورة أو نقش أو خط بالمسند

١- ص/٢٧.
٢- ص/٢٦.
٣- ص/٢٩.
٤- ص/١٣٤.
٥- ص/٢٣٨.
٦- ص/٢٤٨.
٧- ص/٢٩.
٨- ص/٩١.
٩- ص/١٧٧.
١٠- ص/١٨٤.
١١- الإشفى : المثقب أو المخرز

لايفهم " (١).

" فكان مُقامنا فى النيل ثمانية عشر يوما " (٢). " شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفة " (٣). " طال مقامه فى تلك الولاية " (٤). " مدة مقامهم به " (٥). " فكان مقامنا بها يومين " (٦). " فكان مقامنا فى هذه البلدة أربعة أيام " (٧). " فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور " (٨). " فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام " (٩).

" (قوص) مخطر للجميـــــع ، ومحط للرحال ، ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج " (١٠). " وهى (دنيصر العراقية) مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التى تلى طاعة الأمير مسعود وماليليها " (١١).

" والمغاص فيها قريب القعر ليس ببعيد " (١٢).

" ومستنابه مع الوالى فى البلد " (١٣).

١- ص/٣٧.

٢- ص/٤٠.

٣- ص/٤٧.

٤- ص/١٤٨.

٥- ص/١٥٥.

٦- ص/٢٧٧.

٧- ص/٢١٢.

٨- ص/٢٨١.

٩- ص/٣٠٧.

١٠- ص/٤١. والمخطر: موضع اجتماع الناس وبيعهم وشرائهم.

١١- ص/٢١٦.

١٢- ص/٤٦.

١٣- ص/٤٨. والمستناب. مكان النيابة، أى محل الإقامة.

" فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود البحر ومغيب النواتية " (١)

" فتمادى سيرنا فى البحر ـ بريح فاترة المهبّ " (٢).

" وبقى الحوض المذكور مصبّا لماء البيت إذا غُسل " (٣).

" وله خمسة مضاوىء ... ، ومع كل ركن مضوأ " (٤).

" ومجتمـــــع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقلش المذكور. ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب " (٥). " لكن المجتمع كله إنما كان فى الليلة الأولى " (٦). " منى ـ مجتمع أهل الآفاق " (٧). " ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور " (٨). " وفى هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سُبع من القرآن دائما " (٩). " وعند فراغ المجتمع السبعى ... يستند كل إنسان منهم إلى سارية " (١٠).

وقد أحـــــدث فى المكان مطاهر وسقاية للمعتمرين " (١١). " هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات " (١٢). " وتفضى منه جـــــداول إلـــــى مطاهـــــرها

١- ص/٤٩.

٢- ص/٥٠.

٣- ص/٦٣.

٤- ص/٦١. والمضوأ: موضع ينفذ منه الضوء.

٥- ص/٤٣.

٦- ص/١١٣.

٧- ص/١٥٧.

٨- ص/٢١٨.

٩- ص/٢٤٤.

١٠- ص/٢٤٥.

١١- ص/٨٩. والمطاهر: جمع " مطهر "، وهو مكان التطهر.

١٢- ص/٢١١.

ومرافقها " (١) . " وبأحد شطيه مطاهر منتظمة بيوتا عدة " (٢) . " ولها مطاهر يجرى الماء فى بيوتها .. ولها مطاهر على الصفة المذكورة " (٣) . " وخلف ذلك مطاهر يجرى الماء فى كل بيت منها " (٤) . " وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب " (٥) .

" تمكن له الصعود إلى ذلك المرتقى الصعب " (٦) .

" حرم الله العظيم ، ومبوّأ الخليل إبراهيم " (٧) .

" وهذا الموضع (أى القرين) هو منزل الحاج ومحط رحالهم " (٨) .

" ولايظهر فى الحرم إلا لمستهل هلال آخر " (٩) . " عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضا ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض ، كفعلهم فى الأعياد " (١٠) .

" ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد (مكان ولادة) النبى ، صلى الله عليه وسلم " (١١).

" وهى .. مسقط رؤوس جماعة من الصحابة المهاجرين " (١٢) . " فيالها تربة شرفها الله بأن

١- ص/٢١٨.
٢- ص/٢٣٠.
٣- ص/٢٤٤.
٤- ص/٢٤٨.
٥- ص/٢٤٩.
٦- ص/١٥٠.
٧-ص/٥٨.
٨- ص/٥٨.
٩-ص/٧٥.
١٠- ص/١٠١-١٠٢.
١١- ص/٩١.
١٢- ص/٩١.

جعلها مسقط أطهر الأجسام ومولد خير الأنام " (١) . " ومسحنا الخدود فى ذلك الموضع المقدس الذى هو مسقط لأكرم مولد على الأرض وممسّ لأطهر سلالة وأشرفها " (٢) .

" وفى الزقاق .. مصطبة فيها متكأ " (٣) .

" والمحلق حولها ، والمنحر فى كل موضع من منى ، لأن منى كلها منحر " (٤) .

" وصل الزوار فضاق بهم المتسع " (٥) .

" وفيه مقعد فى الأرض عميق شبيه الحفرة .. وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور " (٦) .

" وإلى الله المشتكى " (٧) .

" فيها مقعد النبى ، صلى الله عليه وسلم ، والصخرة التى كان إليها مستنده " (٨) .

" وعشره الأولى مجتمع الأمم وموسم الحج الأعظم .. ، وملتقى وفود الله " (٩) . " وملتقاهما (دجلة والفرات) مابين واسط والبصرة " (١٠) . " هو ملتقى آخر البلاط الشمالى مع أول البلاط الغربى " (١١)

١- ص/٩٣.
٢-ص/١٤١.
٣-ص/٩٣.
٤-ص/١٣٦.
٥-ص/١٤٣.
٦-ص/١٤٢.
٧-ص/١٤٥.
٨-ص/١٤٥.
٩-ص/١٤٧.
١٠-ص/١٩٣.
١١-ص/٢٤١.

" ومجراهما من الشمال إلـــى الجنوب " (١) . " وخالفنا المجرى المعهود الميمون " (٢) .

" لو كان محشرا للخلائق لوسعهم " (٣) .

" وقد فُقد منهم فى ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله " (٤) .

" نضجت جلودمن طبخا فى مضيق ذلك المعترك .. والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته " (٥) .

" فكان مبيع الدقيق بدار الندوة " (٦) .

" وفى وسطه مبرك الناقة بالنبى ، صلى الله عليه وسلم " (٧) .

" وسُمّى ذلك التل عرفات لأنه كان موقف النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يوم عرفة ، ومنه زُويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات " (٨) .

" الداخلة مدخل السمعة و الشهرة " (٩) .

" وبقـى .. مـــن المناهــل.. ثلاثة : .. ، والثالث منهل من ماء الفرات .. وبين هذه المناهل مياه موجودة ولكنها لا تعم .. وفى هذا المنهل الذى للثعلبية شاهدنا .. أمـــرا

١-ص/١٩٣.

٢-ص/٢٨٩.

٣-ص/١٥١.

٤-ص/١٥٩.

٥-ص/١٥٩.

٦-ص/١٦٠.

٧-ص/١٧٥.

٨-ص/١٧٥.

٩-ص/١٧٧.

بلاد " (١) . " وهى من مناهل الطريق المشهورة " (١) . " وهى آخر مناهل الطريق " (٢) .

" وفى الزاوية من آخر هذه البلاط القبلى .. موضع مغار التنور " (٣) .

" وفى ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعبد إدريس " (٤) .

" ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد يقال إنه منشأ السفينة " (٥) .

" وبتنا ليلة الأحد منسلخ محرم بمقربة من الحلة (مدينة عراقية)" (٦) .

" فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح " (٧) .

" وهــو قلما يظهر للعامـــة اشتغالا بماهو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها ، والتكفل بمعاقلها وتفقدها ليلا ونهارا " (٨) .

" ونزلنــا .. بمقربة مـــن حصـــن يعرف بالمعشوق . ويقال إنه كان متفرّجا لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه ، رحمه الله " (٩) .

" وكان مقيلا مباركا " (١٠) . " ولاتجــد فيه مقيلا ، ولاتتنفس منه إلا نفسا ثقيلا " (١١) . " هلموا

١-ص/١٨٤.

٢-ص/١٨٥.

٣-ص/١٨٦.

٤-ص/١٨٨.

٥-ص/١٨٨.

٦-ص/١٨٩.

٧-ص/١٩٠.

٨-ص/٢٠٣.

٩-ص/٢٠٧.

١٠-ص/٢١٣.

١١-ص/٢١٩.

هلموا إلى معرّس للحُسْن ، ومَقيل " (١) .

" والبساتين حولها ، فهى مدرسة ومأنسة " (٢) .

" فلما كان عند المغيب .. رحلنا منها رغبة فى الإسآد وبرد الليل " (٣) .

" لايخترقه النسيم بمسراه " (٤) .

" ولها (للسقاية) منافس ينصب منها الماء إلى سقاية صغيرة مستديرة " (٥) . " وأعلمنا أن خروجها (أى النار) من منافس فى ا لجبلين المذكورين يصعد منها نفس نارى " (٦) .

" ومن مناقب هذا البلد ومفاخره .. المدارس والمحارس .. (٧) . " ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان " (٨) . " وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرّم " (٩) . " وهذا من المفاخر الإسلامية " (١٠) ." وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام " (١١) .

" وهذا الجبل مشهور بالبركة فى القديم لأنه مصعد الأنبياء ، صلوات الله عليهم ،

١-ص/٢٣٤.

٢- ص/٢١٦.

٣- ص/٢١٩.

٤-ص/٢٣٣.

٥-ص/٣٠١.

٦-ص/١٥. هذا ، وقد وجدت كلمة " محارس " فى نص لابن حوقل ، وذلك فى قوله عن صفاقس : " وفيها محارس مبنية للرباط بها "/ ص ١٣٤ من "الرحلة والرحالة المسلمون " للدكتور أحمد رمضان أحمد.

٧- ص/٢٦.

٨-ص/١٠٢.

٩-ص/٢٤٤.

١٠-ص/٢٤٥.

١١- ص/٢٥٦.

ومطالعهم " (١) .

" وكان متنزها لأحد الملوك " (٢) .

" المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان " (٣) .

" لامنجى ولامجال لسالكه عن يد الطالب فيه " (٤) . " ونجونا إلى البّر منجى أبى نصر عن قدر " (٥) .

" وهذه الربعة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار " (٦) .

" وربما انغمس الجسور من سُبّاح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة فى النهر ، واندفع تحت الماء حتى يشق متسوّبه تحت الربوة ويخرج أسفلها . وهى مخاطرة كبيرة " (٧) .

" صعدنا .. من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط الصحن " (٨) .

" كأنه الخندق السحيق المهوى " (٩) .

" وصوامعها مضارب للنواقيس " (١٠) .

" قد أعدها (أى صور) الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم ... ، وأهلها

١- ص/٢٤٦.

٢- ص/٢٥٧.

٣-ص/٢٧٤.

٤-ص/٢٧٤.

٥-ص/٢٩٥.

٦-ص/٢٤٨.

٧-ص/٢٤٩.

٨-ص/٢٦٥.

٩-ص/٢٧٤.

١٠- ص/٢٨٦.

ألين فى الكفر طبائع ، وأجوى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع " (١) .

" وهو صاحب المجبى ، وإليه ترتفع الأموال " (٢) .

" هذه المدينــــة (مسينة) موسم تجار الكفار ، ومقصد جوارى البحر من جميع الأقطار " (٣) .

" وهى (أى جزيرة مالطة) مقصد العدوّ " (٤) .

" فأعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة " (٥) .

" فماشئت بها من جمال مخبر ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر " (٦) .

" فعُلم أن الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة " (٧) ، أى من الدخول كالسوقة .

وتكثـــر فى رحلـــة ابن جبير الأرقام كثرة مدهشة ، فمن حديث عن النفقات : النفقات الفردية أو نفقات الدولة ونفقات الجيوش ، إلى ذكر للمسافات بين البلاد والمدن ، إلى تسجيل لأطوال المبانى وعروضها وارتفاعاتها .. وهكذا .

١- ص/٢٧٧.

٢-ص/٢٨٢.

٣-ص/٢٩٦.

٤-ص/٣١٨.

٥-ص/٣٠٤.

٦-ص/٣٠٥.

٧-ص/٣١١.

العبارات

على أن مايمتاز به أى أسلوب لايقتصر على المفردات وصيغها ، بل يدخل فيه كذلك العبارات [التر]اكيب والصور وطريقة الوصف وغير ذلك .

ولنبدأ بالعبارات وقد لاحظت أن هناك طائفة من العبارات قد تردد كل منها فى الكتاب على [نحو] لافت للانتباه .

[و]من ذلـــــك قـــوله : " صـــادرة وواردة (بنفس اللفظ أو بلفظ قريب منه) : " وهذه المدينة [(عيذاب]) .. كثيرة الخلق ، لكثرة الصادر والوراد من الحجاج والتجار " (١) . " ومنها (من [عيذاب] أيضا) يفوّزون بصحراء عيذاب ، وإليها انقلابهم فى صدورهم من الحج " (٢) . " والقوافل [القو]صية والعيذابية صادرة وواردة " (٣) . " ورمنا فى هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة [والص]ادرة فما تمكن لنا " (٤) . " وهى (عيذاب) من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند [واليم]ن تحط فيها وتقلـــــع منهــــا ، زائدا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة " (٥) . " [و]الصادرون من الحجاج ينزلون به (أى بالقرين) أيضا " (٦) . " فالطريق إليها (إلى مكة) [عـ]لى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة " (٧) . " ويرد الصادر والوارد فى ظلها (أى

[١-]ص/٤٠.

[٢-]ص/٤١.

[٣-]ص/٤٢.

[٤-]ص/٤٣.

[٥-]ص/٤٥.

[٦-]ص/٥٧.

[٧-]ص/٩٧.

فى ظل جمال الدين ، وزير صاحب الموصل) عيشا هنيا " (١) . " والصادر من عرفات إلى منى أول مايلقى الجمرة الأولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة " (٢) " . " فأرسل الله من سحب رحمته ما أترعها ماء معدّا صدر الحاج " (٣) . " فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما " (٤) . " وسرنا فى طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد " (٥) .

ومن العبــارات التى تكورت فى الرحلة كثيرا قوله : " برسم الـ ... (أى " مخصص لـ ... " أو " لأجل ... ") أو " جرى الرسم بـ ... " (أى "الترتيب والنظام أو الأمر والوضع .. إلخ ") ، وما إلى ذلك : " وقد رُتّب فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة " (٦) . " وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف الموسومة شىء أن يرجعوا إلى صلب ماله " (٧) . " وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينــــه " (٨) . " ومن مفاخر هذا السلطان .. إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجـــاج " (٩) . " لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة " (١٠) . " كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو مايدرك النصاب منها " (١١) . " فإن ورد الماء والطعام اللذان برسمه (برسم أمير مكة) من قبل صلاح الدين ، وإلا فهو لايترك ماله قبــل الحاج " (١٢) .

١- ص/١٣٧.
٢- ص/١٨٥.
٣- ص/٢٨١.
٤- ص/٣٠٢.
٥- ص/١٥-١٦.
٦- ص/١٦.
٧- ص/٢٦.
٨- ص/٣٠.
٩- ص/٣١.
١٠- ص/٢٨.
١١- ص/١٠٤.
١٢- ص/٥٤.

وفى صبيحة الليلة المذكورة وافى الأمير مكثر بأتباعه وأشياعه ، على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول ، وعلى ذلك الرسم بعينه " (١) . " فماراعنا إلا الأمير مكثر طالعا بحرما .. تبركا بذلك اليوم وجريا فيه على الرسم " (٢) . " وفى صبيحته بكّر الأمير مكثر على العادة فى ذلك رأس كل شهـــر مع أخيه وبنيه ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والأشياع والأتباع " (٣) . " وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول " (٤) . " جرى الإمام إثره على الرسم ـــن الإطعام لمن حضر من أعيان المكان " (٥) . " ورسم طوافهم إثر كل تسليمتين باق على حاله " (٦) . " جرى الرسم فـــى إبقاء مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم " (٧) . " وهاتان الخاتونان .. لهما أخبار برسمهما " (٨) . " وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات ؟ " (٩) : " وأما الربطات التى يسمونها الخوانـــق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية " (١٠) . " فلم يزل حتى استوهب (استوهب نورالدين زنكى القصر) من صاحبه ووقفه برسم الصوفية " (١١) . " وهذه البلاد الشرقية كلها على هذا الرسم " (١٢) . " فابتــــاع الدار المذكورة ... ، وبناها خانقـــة ،

١- ص/١٠١.
٢- ص/١١٤.
٣- ص/١١٧.
٤- ص/١٢٩.
٥- ص/١٢٩.
٦- ص/١٣٢.
٧- ص/١٣٣.
٨- ص/٢٠٦.
٩- ص/٢٣٢.
١٠- ص/٢٥٦.
١١- ص/٢٥٧.
١٢- ص/٢٥٨.

للصوفية .. وجعلها برسم الصوفية " (١) . " وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام ، نفع الله بها راسميها " (٢) . " وللفقراء .. وَقْفٌ وضعه بعض المتأجرين الموفقين برسمهم " (٣)

وقد قابلنى هذا التعبير عند القزوينى فى " آثار البلاد وأخبار العباد " : " برسم الخليفة " أى خاص به (٤) . وفى رحلة ابن بطوطة عدة مرات ، منها : " قصدتُ مدينـــة بلس .. برسم رواية الحديث المسلسل " (٥) . " كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجـاز الشريف " (٦) . " أمر (الملك الناصر) بعمل منبر .. برسم المسجد الحرام " (٧) .

وفى " اتعاظ الحنفا " للمقريزى " خرج (الحاكم بأمر الله) .. فطاف ليلته كلها على رسمـه (أى على عادته ونظامه) " . (٨) . " وجروا على رسمهم " (٩) . " فإذا استدعاك على الرسم لغمزه ونام فقم كأنك تهريق ماء " (١٠) . " قد جُعل هؤلاء القوم .. برسمك (أى من أجلك) ، إكراما لك وتنويها بك " (١١) .

وفى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى السبتى : " أنذر أن أدفع برسم تربتها (أى قبرها) قنطارا من المشمع " (١٢) .

١- ص/٢٦٣.

٢- ص/٢٦٤.

٣- ص/٢٦٤.

٤- نقلا عن د أحمد رمضان أحمد / الرحلة والرحالة المسلمون / ص٢٩٩.

٥- رحلة ابن بطوطه / ص١٧.

٦-رحلة ابن بطوطة / ص٤٧.

٧- رحلة ابن بطوطة / ص٥٠.

٨- اتعاظ الحنفا / حـ ٢/ص١١٩.

٩- اتعاظ الحنفا / حـ٢/ص١٢٢.

١٠- اتعاظ الحنفا / حـ٢/ص١٣٠.

١١-اتعاظ الحنفا / حـ٢/ص١٢٧.

١٢- مستفاد الرحلة والاغتراب /١١

كمـــــا تكررت عند ابن جبير عبارة " آية للمتوسمين " ، أى المعتبرين المتفكرين فى خلق الله قال عن منار الإسكندرية : " ومن أعظم ماشاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين " (١) . وعن الحجاج الذين يقودهم البُجاة عبر الصحراء المهلكة والأخطار الرهيبة التى تتربص بهم : " ومن يسلم منهم يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن . شاهدنا منهم مدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفة فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة ، آية للمتوسمين " (٢) . وعما فعله النصارى ، حين أوشكت المركب أن تغرق بهم عند صقلية فى طريق العودة ، من إلقائهم متاعهم فى البحر بغية التخفيف من حمل السفية : " فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذاذا ، ورمت به إلى البر أفلاذا ، فعاد عبرة للناظرين " (٣) .

وقد فسر شارح الألفاظ الصعبة فى الكتاب لفظ " المتوسمين " بأنه " لعله من : توسم فيـــــه الخير ، أى طلب فيه أثره " (٤) . وهذا التفسير إنما يصلح للفعل " يتوسم " فى قول ابن جبير عن ادعاء الحجاج زيادة بئر زمزم كل ليلة ومحاولة أحدهم أن يتأكد من ذلك : " فجعل يقصد إلى من يتوسم فيه بعض عقل ونظر .. فيسأله عن ذلك " (٥) . أما " المتوسمون " فى الشواهد الثلاثة فهم الذين يفكرون فى خلق الله ويستخرجون منه العظة ويرون فيه قدرة المبدع . وقد ورد هذا التعبير فى القرآن الكريم . قال تعالى : " إن فى ذلك لآيات المتوسمين " (٦) ، فأخذها ابن

رحلة بن جبير / ص١٤.

ص/٤٧.

ص/٢٩٥.

ص١٤/هـ٣.

ص/١١٨.

الحجر /٧٥.

جبير ووضع " آية " مكان " آيات ".

ومن ذلك " استهل هلاله " ، وهى كثيرة ، إذ لا أظنه شاهد طلوع هلال شهر جديد إلا وسجله فى الغالب بهذه العبارة ، وذلك مثل : " استهل هلالــــه (محــرم ٩٩ هجرية) ليلة الثلاثـــاء " (١). استهل هلاله (صفر التالى له) ليلة الأربعاء " (٢) . " استهل هلاله (ربيع الأول ، التالـــى له) ليلـــة الجمعة " (٣) . " استهل هلاله (جمادى الآخرة ، من نفس العام) ليلة الأربعـــاء " (٤). " استهل هلاله (رجب التالى) ليلة الخميس " (٥) . "استهل هلاله (شعبان) ليلة السبـــت " (٦). " استهل هلاله (رمضان) ليلة الاثنين " (٧) . " استهل هلاله (شوال) ليلة الثلاثاء " (٨) . " استهل هلالــــه (ذى القعدة) ليلة الأربعاء " (٩) ." استهل هلاله (ذى الحجة) ليلة الخميس " (١٠) وعلى ذلك فقس بقية الرحلة.

ومنها " جن الليل " : فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور " (١١) . " وسرنا فى الصحراء

١- ص/٣٢.
٢- ص/٤١.
٣- ص/٤٤.
٤- ص/٥١.
٥- ص/١٠١.
٦- ص/١٠٦.
٧- ص/١١٧.
٨- ص/١٢٢.
٩- ص/١٣٢.
١٠ - ص/١٤٠.
١١- ص/١٤٦.
١٢- ص/١٠.

بيت منها حيث جن علينا الليل " (١) . " فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جلة " (٢) . " فلما جن الليل اشتـــد تلاطمه ، وصكت الآذانَ غمّا غمُه " (٣) . " أتتنا إلى أول المضيق والليل قـــد جن " (٤).

ومنهـــا عبـــارة " هده من الليل " : " وفي ليلة الأربعاء .. خسف القمر خسوفا كليا من أول الليل ، وتمادى إلى هده منه " (٥) . " فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للسعى بين الصفا والمروة ، وقد مضى هده من الليْل ، أبصرناه (الحرم) كله سُرُجا ونيرانا وقد غصّ بالساعين والساعيات " (٦) . " فتأخر وصوله إلى هده من الليل " (٧) . " نزلناهـــــا وقد مضى هدء من الليل " (٨).

وعبارة " العشاء الآخرة " أو "صلاة العتمة " (بنفس المعنى) : فلما " كان إثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجز فبتنا به " (٩) . " فلما كان العشاء الآخرة .. لمع برق من جهة البر " (١٠) . " فشاهدنا ليلة السبت .. احتفالا عظيما فى الحرم المقدس إثر صلاة العتمة " (١١) . " وهذه الفرقعة (السّوط) .. يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان

١- ص/٤٢.
٢- ص/٥١.
٣- ص/٢٨٩.
٤- ص٢٩٣.
٥- ص/٤١.
٦- ص/١٠٨.
٧- ص/١٧٧.
٨- ص/٢٠٧.
٩- ص/٤١.
١٠- ص/٥٠.
١١- ص/ ١١٩.

المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة " (١) . " وتقدم القاضى فصلى فريضة العشاء الآخرة " (٢) . " وصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة ، فجمعوا بها بيـــن العشاءين " (٣) . " وفى ليلة الخميس ... إثر صلاة العتمة نصب منبر الوعظ أمام المقام " (٤) . "فصعد إثر صلاة العتمة شيخ أبيض السبال " (٥) . " وتمادى سيرنا إلى العشاء الآخرة " (٦) . " وكان نزولنا بالصفراء إثر صلاة العشاء الآخرة " (٧) . " وتمـــادى بنـــا السير إلى إثر صلاة العشاء الآخرة " (٨) . " يرحل وينزل مع العشاء الآخرة " (٩) . " ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة " (١٠) . " لايزالون على هذه الحال ... إلى انقضاء العشاء الآخرة " (١١) .

وتكثر عبارة " العشاء الآخرة " ، فيما أذكر فى " أيام " طه حسين . كما تكرر فى الحديث الشريف تسمية صلاة العشاء بـ " صلاة العتمة " .

و " بُنَيّات الطريق / الدهر " : " لأنهم على جادة واضحة لابنيات لها " (١٢) . " معاملاتهم صحيحة ، وأحوالهم مستقيمة ، وجادتهم الواضحة فى دينهم من اعتراض بنيات الطريق

١- ص/١٢٣.
٢- ص/١٣١.
٣- ص/١٥٥.
٤- ص/١٥٩.
٥- ص/١٥٩.
٦- ص/١٦٥.
٧- ص/١٦٦.
٨- ص/١٦٧.
٩- ص/١٨١.
١٠- ص/١٨٤.
١١- ص/٢٣٩.
١٢- ص/٥٥.

سليمة " (١) . " سدّ عليهم بنيات الطريق القاصدة إلى بلادهم " (٢) . " هى (مكة) عروس ليالى العمر ، وبكر بنيات الدهر " (٣) .

و " بنيّات الطـــريق " : هى الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة (٤) . ومنه : " دع بنيات الطريق " ، أى عليك بمعظم الأمر ودع الروغان (٥) .

و " بنيات الدهر " : حوادثه وصروفه . وقد جاء مفردها فى بيت المتنبى الشهير الذى يخاطب فيه الحمى ، ولكن مكبرا لامصغرا :

أبنت الدهر ، عندى كل بنـــت فكيف وصلتِ أنتِ من الزحام ؟

وكذلـــــك هـــذا التعبير الذى لا أذكر أنى قابلته قبل ذلك ، وهو " ماكان إلا كلا ولا ... " ، ومعناه : " على الفور ... " : " وقع فى نفس أحمد بن حسان ... أنه سيغشى عليه ، فما كان بين اعتــــراض هذا الخاطر بنفسه وبين وقوع الرجل مغشيا عليه من المصطبة إلى الأرض إلا كلا ولا " (٦) . " لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحالها وركابها إلا كلا ولا " (٧) ." فما كان إلا كلا ولا حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب " (٨) . " فلم يكن إلا كلا ولا حتى أتتنا (الريح) إلى أول المضيق " (٩) .

١-ص/٢٢٤.
٢- ص/٢٧٢.
٣-ص/٥٨.
٤-تاج العروس / مادة " بنى " .
٥-المنجد / مادة " بنى " .
٦- ص/١٢١.
٧-ص/١٦٤.
٨-ص/٢٩١.
٩- ص/٢٩٢.

ومن عجائب المصادفات أن هذا التعبير الذى لا أذكر أنه مرّ علىّ من قبل قد قابلنى فى عدد من الكتب التى قرأتها وأنا أعدّ هذه الدراسة . صادفنـــى مثلا فى " طوق الحمامة " لابن حزم (١) وفى " نفاضة الجراب " للسان الدين بن الخطيب : " ولمن يكن إلا كلا ولا حتى تداعى النّبا من عربان القبلة " (٢) . وفى " تاريخ دمشق " لابن القلانســـى ، فى حوادث سنة ٥٤١هـ : " وأحدق بهم (بالصليبيين فى الرها) المسلمون من جهاته ، وشرعوا فى النقب عليهم . (و) ماكان إلا بقدر كلا ولا حتى تعرقب البرج وانهزم ابن جوسلين " (٣) . ومن نفس الكتاب ، فى التأريخ لحوادث ٥٥٢هـ : " فحنئذ ترجل الملك نورالدين وترجلت معه الأبطال ، وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح فماكان إلا كلا ولا حتى تزلزلت بهم الأقدام ، ودهمهم البوار والحمام " (٤) .

ومن عبـارات ابن جبير التى تكررت بصورة لافتــــه للانتباه قوله : " تفوت الإحصاء كثرة " أو " لاتُحْصَى كثرة " ونحو ذلك :

" ومآثر هذا السلطان .. لاتحصى كثرة " (٥) . " إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التى يضيق عنها الحصر " (٦) . " والقرى فيه يمينا وشمالا لاتحصى كثرة " (٧) . " والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن .. تتحصل بالإحصاء " (٨) . " وعددهم لايحصى كثرة " (٩) . " فيُلقى بها من دماء

١- ص/٢٠١ من الجزء الأول من " رسائل ابن حزم الأندلسى " / تحقيق د. إحسان عباس / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت .

٢- نفاضة الجراب / جـ٢/ص/٢٢٩.

٣- نقلا عن د. سهيل زكار / الحروب الصليبية / دار حسان للطباعة والنشر / دمشق / ط١/١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م /جـ٢/ص ٦٢٦.

٤- نقلا عن " الحروب الصليبية " للدكتور سهيل زكار / جـ٢/ص ٦٥٣.

٥- ص/١٧.

٦- ص/١٧.

٧- ص/١٨.

٨- ص/٢٤.

٩- ص/٢٥.

الوارد مالايحصى كثرة " (١) . " وبها جباب .. تفوت الإحصاء كثرة " (٢) . " وعاينّا نحن جملة كثيرة لايأخذها الإحصاء " (٣) . " وحمام الحرم لاتحصى كثرة " (٤) . " أنفق فيها أموالا لاتحصى كثرة " (٥) . " ولهذا الرجل .. من الآثار السنية .. مايفوت الإحصاء " (٦) . " لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء " (٧) . " فاجتمع منهم عدد لايحصى كثرة " (٨) . " هذا البشر المعجز إحصاؤه " (٩) . " ووصفها يطول ، والأخبار عنها لاتنحصر " (١٠) . " ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى كثرة " (١١) . " وأما البرك والقرارات فلاتنحصر " (١٢) . " وكثرت المصانع حتى لاتكاد الكتـــب تحصـــــرها ولاتضبطها " (١٣) . " وأما عبادهم وزهادهم .. فأكثر من أن يقيدهم الإحصاء " (١٤) . " ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء " (١٥) . " وأما

١-ص/٤٢.

٢- ص/٥٣-٥٤.

٣-ص/٥٤.

٤-ص/٧٥.

٥-ص/١٠٣.

٦-ص/١٠٣.

٧-ص/١٠٧.

٨-ص/١٠٨.

٩-ص/١٤٨.

١٠-ص/١٦٥.

١١-ص/١٧٤.

١٢-ص/١٨٢.

١٣-ص/١٨٦.

١٤-ص/٢٢٠.

١٥-ص/٢٥٨.

المساجد فكثيرة لاتحصى " (١) . " ونقلت أموالها كلها ، وهى ما لايأخذه الإحصاء " (٢) .

كذلك تكرر عند ابن جبير هذا التعبير : " ناهيك مـــن / بـ ... " ، وهو تعبير يُراد به المدح أو التعجب عموماً . يقال : هذا رجل ناهيك من رجل ، أو ناهيك به رجلا ، أى أنه من بلوغه الغاية ينهاك عن أن تبحث عن غيره ، ففيه الكفاية لما تطلب ، وإليك شواهد هذا التعبير .

" يجلـــــس النـاس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع ... ، لأن الحجر الأسود أمامك والباب الكريم مع البيت قبالتك والمقام عن يمينـــك وباب الصفا عن يسارك وبئر زمزم وراء ظهرك . وناهيـــك بهذا ! " (٣) . " وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يُخرج منها إليه وناهيك بهذا الجوار الكريم ! " (٤) . " صعدنا إلى جبل أبى قبيس ... ، وصلينا فى المسجد المبارك ، وفيه موضع موقف النبى صلى الله عليه وسلم عند انشقاق القمر بقدرة الله عز وجل . وناهيك بهذه الفضيلة والبركة ! " (٥) . " فينتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولاخطفة شمس تصيبهما . وناهيك من هذا الترفيه ! " (٦) . " ومن شرف خاتون هذه ، واسمها سلجوقة ، أن صلاح الدين استفتح آمد بلد زوجها نور الدين ، وهى من أعظم بلاد الدنيا ، فترك البلد لها كرامة لأبيها وأعطاها المفاتيح ، فبقى ملك زوجها بسببها . وناهيك من هذا الشأن ! " . (٧) . " وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين .

١-ص/٣٠٥.

٢-ص/٣١٢.

٣- ص/٧٨.

٤-ص/٨١.

٥- ص/٨٥.

٦- ص/١٥٥.

٧- ص/٢٠٧.

وناهيك من هذا الاعتدال فى السياسة ! " (١) .

ويكثر فى الرحلة هذا التعبيران : " ومن عجيب ... " ، " ومن أعظم ... " وأشباهما : " ومن العجب فى وصفه (أى بلد الإسكندرية) أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها " (٢) . " ومن أعظم ما شهدناه من عجائبها (أى الإسكندرية) المنار " (٣) . " ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عيّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان " (٤) . " ومن أعجب ما اتفق للغرباء أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذ جراية الخبز ولا حاجة لهم بها " (٥) . " ومن الغريب أيضا فى أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم " (٦) . " ومن أعجب ماشاهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد (مسجد الحسين) المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل " (٧) . " ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء " (٨) . " ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة . وذلك أنهم (أى الصليبيين) كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح

١- ص/٢٧٢.

٢-ص/١٤.

٣- ص/١٤.

٤- ص/١٦.

٥- ص/١٦.

٦- ص/١٧.

٧- ص/٢٠.

٨- ص/٢٤.

المقدس " (١) . " ومن أعظم الهياكل المتحدث بغرابتها فى الدنيا هيكل عظيم فى شرقى المدينة المذكورة (إخميم) وتحت سورها " (٢) . " ومن أشنع ماشاهدناه من ذلك خروج شرفمة من مردة الزكاة فى أيديهم المسالّ الطوال " (٣) . " ومن عجيب ماشهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها .. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المارّ عليهـــــا من أطوار الناس " (٤) . " ومن عجيب ماشاهدناه فى أمر الدعوة المؤمنية الموحدية وانتشار كلمتها بهذه البلاد (الحجاز) واستشعار أهلهـــا لملكتها أن أكثر أهلها .. يرمزون بذلك رمزا خفيا " (٥) " ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به (البيت الحرام) أنه لايخلو من الطائفين ساعة من النهار ولاوقتا من الليل " (٦) . " ومن عجيب ما عرض علينا بباب بنى شيبة المذكور عتب من الحجارة العظام طوال كأنها مصاطب .. ذكر أنها الأصنام التى كانت قريش تعبدها فى جاهليتها " (٧) . " ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل " (٨) . " ومن أغرب ما ألفينـــــاه فاستمتعنا بأكله .. الرّطَب " (٩) . " ومن أغرب ما اتفق لأحد دماة الأعاجم .. إلخ " (١٠) " ومن أغرب ماشاهدناه من ذلــــــك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير

١- ص/٣٤.

٢- ص/٣٦.

٣- ص/٣٩.

٤- ص/٤٣-٤٤.

٥- ص/٥٦.

٦- ص/٧٦.

٧- ص/٩٠.

٨- ص/٩٨.

٩- ص/٩٩.

١٠- ص/١٠٥.

بكثر " (١) . " ومن العجيب أن كان منهم من قال : .. " (٢) . " ومن عجيب هذه المحلة أيضا .. أنها إذا حطت رحالها .. ثم ضرب الأمير طبله للإنذار بالرحيل لم يكن بين استقرار الرواحل بأوقارها ورحالها إلا كلا ولا " (٣) . " ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور البديعة .. أن إحدى الخواتين المذكورات .. "(٤) . " ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدىء القراء بالقرآن .. إلخ " (٥) . " ومن أحفل المشاهــــــــد الدنيوية .. بروز شاهدناه يوم الأربعاء " (٦) . " ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلــــــــى بن أبى طالب ، رضى الله عنه " (٧) . " ومن العجيب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم " (٨) . " ومن أعجب مايحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى (أى الصليبين) .. ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم " (٩) . " ومن أعظم ماشهدناه من مناظر الدنيا الغريبـــة الشأن .. الصعود إلى أعلى قبة الرصاص " (١٠) . " ومن عجيب حال الصغير عندهم (الدمشقيين) والكبير .. أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى " (١١) . " وهو من

١- ص/١٠٧.

٢- ص/١١٩.

٣- ص/١٦٤.

٤- ص/١٧٧.

٥- ص/١٩٧.

٦- ص/٢١٣.

٧- ص/٢٥٢.

٨- ص/٢٥٩.

٩- ص/٢٦٠.

١٠- ص/٢٦٤.

١١- ص/٢٦٩.

أظـــــرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها " (١) . " فأما حصانتها ومناعتها فأعجب مايتحدث به " (٢) . " ومن العجب فى الاتفاقات فى الأسفار البحرية أنا استطلنا على ظهور البحر أملة ثلاثة أشهر " (٣) . " ومـــــن أعجب ماشاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكى " (٤) . " ومن أعظم ماعنى به أهل هذه الجزيرة أن ... " (٥) . " ومن أعجب ماشاهدناه من أحوالهم ... " (٦) .

وقد انتقد هذا بعض من كتبوا عن ابن جبير ، وعدوه منه مبالغــــة غيـــر مقبولة (٧) . ورأى عبدالقدوس الأنصارى أن " كتب الرحلات هى أولى بأن تتجنب جملة وتفصيلا هذه التهويلات وهذه المبالغات غير المعقولة وغير المقبولة لتكون على مستوى المسؤولية والموضوع ، وليطابق كل مافيها أو جلّــــه الحقائق بدون زيادة ولانقص " ، وأن " ذلك خير ألوان البيان " (٨) .

وقـــد فات هؤلاء المنتقدين أن معظم ما رآه ابن جبير فى رحلته كان جديدا عليه ، وأنه حين استعمل هذه العبارات القوية إنما استعملها لأول رؤيته لما وصفه . ولو أنه انتظر فلم يسجل انفعالاته بمايشاهد فى الحال ، وأجّلها إلى مابعد تكرر رؤيته لها لخف انفعاله بها وجاءت عباراته أهدأ . ثم لاتنس أن أهل المغرب الأندلسى كان ينظرون عادة إلى المشرق الإسلامى بعيـــــن

١- ص/٢٧٣.
٢- ص/٢٧٧.
٣- ص/٢٩٣.
٤- ص/٣٠٦.
٥- ص/٣١٥.
٦- ص/٣١٥.
٧- انظر عبدالقدوس الأنصارى / مع ابن جبير فى رحلته / ص ٣٤٧-٣٤٨.
٨- المرجع السابق / ٣٤٨.

الانبهار والإعظام ، فلاعجب أن يكون انفعال ابن جبير بما رآه قويا .

على أن ثمة اعتبارا آخر ينبغى ألا يهمل ، ألا وهو أن ابن جبير لم يكـــن يرصد ظاهرة طبيعية بقصد تسجيلها كما هى لا كما تنعكس على صفحة نفسه وضميره . لقد كان أديبا فى المقام الأول . ومع هذا فإنه فى الأمور التى تخضع للقياس قد لجأ إلى القياس والتزم الحقائق الموضوعية . وللأسف فإن هذا اللون من الوصف هو أقل صفحات الكتاب إثارة وإمتاعا . وقد يكون لنا عودة إلى هذه النقطة .

وهو كثيرا مايستخــــدم عبارة : " انفصلنا من ... " أو " رفعنا من ... " أو " أقلعنا من ... " بمعنى " ارتحلنا ... " : " وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة ... للنية الحجازية ... أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال (٥٩٨هـ) " (١) . " ثم إنا أقلعنا منه ظهر يوم الأحد " (٢) . " ثم كان الانفصال عنها (الإسكندرية) ... صبيحة يوم الأحد الثامن لذى الحجة المذكور " (٣) . " وفى صبيحة يوم الأحد ... كـــان انفصالنا من مصر وصعودنا فى النيل " (٤) . " ووافق يوم إقلاعنا المذكور أول يوم من مايه بحول الله عز وجل " (٥) . " فلما كان إثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجز فبتنا به " (٦) . " فلما كان عشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ورفعنا إلى ماء بموضع يعرف بشاغب " (٧) . " ثم كان رفعنا من

١- ص/٧.
٢- ص/٩.
٣- ص/١٧.
٤- ص/٣٢.
٥- ص/٣٢.
٦- ص/٤١.
٧- ص/٤٣.

أمتان المذكور صبيحة يوم الاثنين " (١) . " وفى ظهر يوم الثلاثاء ... كان رفعنا من مجاج المذكور سالكين على الوضح " (٢) . " وفى عشيّ يوم الثلاثاء ... كان انفصالنا من جدة " (٣) . " فإذا كان فى عشية رفعوا وأسروا ليلتهم وصبحوا الحرم الشريف " (٤) . " وفى إثر ذلك ينفصل الحاج إلى مكة من ذلك اليوم " .(٥) . " وأعلمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل وقع لثلاثة أناس فى ذلك اليوم بعينه " (٦). " ثم أقلعنا ظهر يوم السبت " (٧). " فلما كان إثر صلاة الظهر أقلعنا إلى خليص " (٨) . " فلما كان ظهر يوم الاثنين إثر الصلاة أقلعنا من خليص مرتحلين " (٩) . " فأقلعنا منها ظهر يوم السبت " (١٠) . " ثم أقعلنا نصف الليل " (١١) . " وأقلعنا منه نصف الليل إلى تربان " (١٢) . " ثم نزلنا فى الصحراء على ماء جب وأرحنا قليلا ، ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد " (١٣) . " ونزلنا

١- ص/٤٤.
٢- ص/٤٤.
٣- ص/٥٧.
٤- ص/٥٧.
٥- ص/١٣٦.
٦- ص/١٣٩.
٧- ص/١٦٢.
٨- ص/١٦٣.
٩- ص/١٦٥.
١٠- ص/١٦٧.
١١- ص/١٦٧.
١٢- ص/١٦٧.
١٣- ص/٢١٩.

قريب العصر على ماء بئر ... فبتنا به ، ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة " (١) . " فلما كا... حر يوم الخميس ... أقلع المركب " (٢) . " وكان انفصالنا عنها عشى يوم الخميس المذكور " (٣) . " ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوما " (٤) . " وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين " (٥) . " فأُقلعنا على بركة الله تعالى فى ثلاثة مراكب من الروم " (٦) . " وفى ضحوة يوم الثلاثاء ... أقلعنا على اليمن والبركة " (٧).

ومن العبارات التى تلفت النظر فى أسلوب الرحلة بكثرة ترددها قوله : " فنزلنا مريحين " و " أقمنا مريحين " وما إلى ذلك : " فأقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين " (٨) . " فاجتزناها بأميال ونزلنا مريحين قائلين " (٩) . " ثم نزلنا مريحين قائلين ... وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين " (١٠) . " فأصبحنا يوم السبت ... مقيمين مريحين بها " (١١). " فنزلنا ببئر ذات العلم " (١٢) . " وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها إلى ظهر

١- ص/٢١٩.
٢-ص/٢٨٤.
٣- ص/٢٧١.
٤- ص/٢٨٧.
٥- ص/٢٩١.
٦- ص/٣١٧.
٧- ص/٣١٩.
٨- ص/٥٨.
٩-ص/١٦٢.
١٠-ص/١٦٥.
١١-ص/١٦٦-١٦٧.
١٢-ص/١٦٧.

الاثنين بعده " (١) . " فتنحينا مريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحم " (٢) . " وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار ، فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل " (٣) . فأقمنا بهذا الموضع طول يوما مستريحين .. ثم رحلنا .. فصبحنا تكريت .. فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليـــوم " (٤) " وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الأول بها مريحين " (٥) . " فكان نزولنا ظاهر البلد وأقمنا مريحين " (٦) . " فأسرينا إلى الصباح ونزلنا مريحين بتل عبدة " (٧) . " أقمنا بها يوم الخميس .. مريحين خلال ما تكمل القافلة العبور " (٨) . " وأقمنا يوما مريحين ثم رحلنا نصف الليل " (٩) . " فأسرينا وسرنا إلى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين " (١٠) . " فأقمنا بها يوم الأربعاء .. بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر " (١١) .

هذا ، ولم ألاحظ أن ابن جبير لستخدم أيا من هاتين العبارتين في أي بلـــد غيـــر إسلامي أو البلاد التي كان الصليبيون مستولين عليها . فهل ، إذا صحت هذه الملاحظة ، يكون لغياب هذين التعبيرين في تلك البلاد دلالته النفسية من أنه لم يكن يشعر بالراحة فيها ؟

١-ص/١٨٣.
٢-ص/١٩٠.
٣-ص/٢٠٧.
٤-ص/٢٠٨.
٥-ص/٢١٦.
٦-ص/٢٢٢.
٧-ص/٢٢٢.
٨-ص/٢٢٣.
٩- ص/٢٢٤.
١٠- ص/٢٢٨.
١١-ص/٢٢٣.

وقـــد تكرر من ابن جبير وصفه للريح التي تدفع السفينة إلى الأمام بـ " الريح الموافقة " . وهذه هي الشواهد : " وتركنا المركب المذكور في موضع إرسائـــــه .. عند هبوب الريح الموافقة " (١) . " ونحن به (بالمركب) منتظرون موافقة الريح " (٢) . " واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام " (٣) . " والبحر في أثناء ذلـــــك كله هائل ، والريح لا توافق " (٤) . " وفي يوم السبت .. انقطع عنا بر الجزيرة ونحن نجري بريـــــح شمالية موافقة " (٥) . " وأقلعنا من المرسى المذكور .. بريح طيبة موافقة " (٦) . " ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة " (٧) . " ورمنا الإقلاع فلم توافق الريح " (٨) . " ثم إن الريح الموافقة ركدت عنا " (٩) . " وأصبحنا يوم الأحد .. بالمرسى المذكور والريح غربية ، ونحن ننتظر تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة " (١٠) .

وهو يكثـــر من التسبيح والتحميد ، لدرجة أنه ما من موقف تقريبا إلا ويسارع فيه إلى تمجيد الله عز وجل على هذا النحو : " فلما كان ظهر يوم الثلاثاء يسر الله علينا في عبور البحر .. تيسيرا عجيبا ، والحمد لله " (١١) " وطرأ علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم

١-ص/١٠.
٢- ص/٢٨٢.
٣- ص/٢٨٥.
٤-ص/٢٨٧.
٥-ص/٢٨٨.
٦-ص/٢٩١.
٧-ص/٢٩٣.
٨-ص/٣١٦.
٩-ص/٣١٨.
١٠-ص/٣١٩.
١١-ص/٨.

الاثنين بعده " (١) . " فتنحينا مريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحم " (٢) . " وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار ، فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل " (٣) . فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين ... ثم رحلنا ... فصبحنا تكريت ... فنزلنا ظاهرها مستريحين ذلك اليوم " (٤) . " وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الأول بها مريحين " (٥) . " فكان نزولنا ظاهر البلد وأقمنا مريحين " (٦) . " فأسرينا إلى الصباح ونزلنا مريحين بتل عبدة " (٧) . " أقمنا بها يوم الخميس ... مريحين خلال ما تكمل القافلة العبور " (٨) . " وأقمنا يوما مريحين ثم رحلنا نصف الليل " (٩) . " فأسرينا وسرنا إلى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين " (١٠) . " فأقمنا بها يوم الأربعاء ... بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر " (١١) .

هذا ، ولم ألاحظ أن ابن جبير استخدم أيا من هاتين العبارتين فى أى بلد غير إسلامى أو البلاد التى كان الصليبيون مستولين عليها فهل ، إذا صحت هذه الملاحظة ، يكون لغياب هذين التعبيرين فى تلك البلاد دلالته النفسية من أنه لم يكن يشعر بالراحة فيها ؟

١-ص/١٨٣.

٢-ص/١٩٠.

٣-ص/٢٠٧.

٤-ص/٢٠٨.

٥-ص/٢١٦.

٦-ص/٢٢٢.

٧-ص/٢٢٢.

٨-ص/٢٢٣.

٩- ص/٢٢٤.

١٠- ص/٢٢٨.

١١-ص/٢٣٣.

وقد تكرر من ابن جبير وصفه للريح التى تدفع السفينة إلى الأمام بـ " الريح الموافقة " . وهذه هى الشواهد : " وتركنا المركب المذكور فى موضع إرسائه ... عند هبوب الريح الموافقة " (١) . " ونحن به (بالمركب) منتظرون موافقة الريح " (٢) . " واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام " (٣) . " والبحر فى أثناء ذلك كله هائل ، والريح لاتوافق " (٤) . " وفى يوم السبت ... انقطع عنا بر الجزيرة ونحن نجرى بريح شمالية موافقة " (٥) . " وأقلعنا من المرسى المذكور ... بريح طيبة موافقة " (٦) . " ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة " (٧) . " ورمنا الإقلاع فلم توافق الريح " (٨) . " ثم إن الريح الموافقة ركدت عنا " (٩) . " وأصبحنا يوم الأحد ... بالمرسى المذكور والريح غربية ، ونحن ننتظر تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة " (١٠) .

وهو يكثر من التسبيح والتحميد ، لدرجة أنه ما من موقف تقريبا إلا ويسارع فيه إلى تمجيد الله عز وجل على هذا النحو : " فلما كان ظهر يوم الثلاثاء يسر الله علينا فى عبور البحر ... تيسيرا عجيبا ، والحمد لله " (١١) " وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم

١-ص/١٠.

٢- ص/٢٨٢.

٣- ص/٢٨٥.

٤-ص/٢٨٧.

٥-ص/٢٨٨.

٦-ص/٢٩١.

٧-ص/٢٩٣.

٨-ص/٣١٦.

٩-ص/٣١٨.

١٠-ص/٣١٩.

١١-ص/٨.

عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه ، والحمد لله على ذلك " (١) . " وييسر الله فى التخلص من بحرها .. ، والحمد لله على ذلك " (٢) . " فاستبشر الناس وعاد الأنس وذهب اليأس ، والحمد لله الذى أرانا عظيم قدرته " (٣) . " ونزلنا فى الحادى والثلاثين .. والحمد لله على مامنّ به من التيسير والتسهيل " (٤) . " وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمرا عظيما والحمد لله رب العالمين " (٥) . " فهى تعود عليهم برزق واسع ، فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها ! " (٦) . " فسبحـــان مقدرها لا إله سواه " (٧) . " فسبحان محبب الأوطان إلى أهلها " (٨) . " فسبحان مسخرها على تلك الحال والمسلم فيها ، لا إله سواه " (٩) . "وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن ، فعصمنا الله عز وجل من فأل اسمها المذموم ، وله الحمد والشكر على ذلك " (١٠) . " والحمد لله على ما من به من العصمة وتكفل به من الوقاية والكفاية حمدا يبلغ رضاه ويستهدى المزيد من نعماه ، بعزته وقدرته ، لا إله سواه " (١١) . " فسبحان مغير السنن ومبدلها ! " (١٢) . " ولله الآيات البينات

١-ص/٩.
٢-ص/١٠.
٣-ص/١١.
٤-ص/١٢.
٥-ص/٣٥.
٦-ص/٤٥.
٧-ص/٤٦.
٨-ص/٤٦.
٩-ص/٤٧.
١٠-ص/٥١.
١١- ص/٥٢.
١٢- ص/٥٤.

والبراهيـــــن المعجـــــزات ، سبحانه وتعالى ! " (١) . " فله الحمد والشكر على ما أنعم به علينا " (٢) . " وفى التاســـــع عشر من شعبان كان انصراف هذه القافلة الكبيرة فى كنف السلامة ، والحمد لله " (٣) . " فوصلوا فى عافية وسلامة ، والحمد لله " (٤) . " إنه سميع الدعاء ، كفيل بالرجاء ، سبحانه لا إله سواه " (٥) ." ووصلنا إلى مكة قريب الظهر ، والحمد لله على مامنّ به " (٦) . " وانصرفواعن سلام ، والحمد لله على ذلك " (٧) . " وأطلق سبيل الحاج ، ولله الحمد على ذلك " (٨) . " فهو أهل الحمد والشكر ومستحقه ، لا إله سواه " (٩) . " ولانكاد نمر بحول الله يوما بموضع إلا والماء يوجد فيه ، والشكر لله على ذلك " (١٠) . " والحمد لله على مامنّ به " (١١) . " والحمد لله على ما أنعم به من السلامة " (١٢) . " فحمدنا الله عز وجل على أن منّ علينـــا برؤيته " (١٣) . " فوصلنا مدينة حران مع طلوع الشمس .. والحمد لله علـــى

١-ص/٧٦.
٢-ص/٩٦.
٣- ص/١١٤.
٤-ص/١٢٦.
٥-ص/١٣٤.
٦-ص/١٣٨.
٧-ص/١٤٧.
٨-ص/١٦٢.
٩-ص/١٦٨.
١٠-ص/١٨٥.
١١-ص/١٨٧.
١٢-ص/١٨٧.
١٣- ص/٢١٥.

تيسيره " (١) . " ووصلنا دمشق ... والحمد لله رب العالمين " (٢) . فسبحان خالق الخلق أطوارا " (٣) ." فسبحان المبدع فى حكمته ، المعجز فى قدرته " (٤) . " ولله الحمد والشكر على كل حال " (٥) . " سبحانه ، هو أهل ذلك " (٦) . " ولله الحمد والشكر على كل حال من الأحـــــــوال " (٧) . " والحمد لله على جميل صُنعه " (٨) . " والحمد لله على مامن به علينا من حسن نظره الكفيل بنا " (٩) . " وكان آخر كلامه هو : والحمد لله على الصنع الجميل الذى أولاه ... والحمد لله رب العالمين " (١٠) .

كذلك فابـــن جبير كثير الاستعاذة . إنه يستعيذ بالله من التعذيب الذى يتعرض له الحجاج لاستخراج الضـــرائب منهم : " وربمــــــــا اخترع من أنواع العذاب التعليــق من الأنثيين (الخصيتين) أو غير ذلك من الأمور الشنيعة . نعوذ بالله من سوء قدره " (١١) .

ويستعيذ به سبحانه من اعتقادات العوام وماتجر إليه من الكذب لتعضيدها بالباطل : " نعوذ بالله من غلبات العوام واعتدائها وركوبها جوامح أهوائها " (١٢) . " فياعجبا لهذا الاختراع

١- ص/ ٢١٩.

٢-ص/ ٢٣٤.

٣-ص/ ٢٦٩.

٤-ص/ ٢٨٤.

٥-ص/ ٢٨٥.

٦-ص/ ٢٨٥.

٧-ص/ ٢٩٠.

٨-ص/ ٢٩١.

٩-ص/ ٢٩٦.

١٠-ص/ ٣٢٠.

١١-ص/ ٣١.

١٢-ص/ ١١٩.

الكذب : نعوذ بالله من الفتنة " (١) .

وهو يستعيذ بالله من ضلال الإسماعيليين وإلحادهم : " نعوذ به سبحانه من الفتنة فى الدين ، نسأله العصمة من ضلال الملحدين " (٢) .

ويستعيذ بالله من فتنة تفضيل الحُكْم النصرانى على الحكم الإسلامى حتى لو كان الأول أروح ارفه : " سكانها (أى تبنين) كلهم مسلمون . وهم مع الإفرنج على حال ترفيه . نعوذ بالله من فتنة " (٣) .

ويستعيـــذ بالله من أن تفتنه شهوة النظر إلى العروس الصليبية الجميلة التى كانت ترفل فى الأناقة : " نعوذ بالله من فتنة المناظر " (٤) . " فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر زخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه " (٥) .

وهو يستعيـــذ بالله من صحبة مسلم تنصر : " ومن سوء الاتفاقات المستعاذ بالله من شرها أنه حبنا فى طريقنا إلى مكة من دمشق رجل مغربى ... نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا ...ور " (٦) .

كما يستعيذ بالله لمجرد أنه أورد بيت شعـــر بريئا ظن أن فيه غزلا وليس كذلــــــك : " ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدى إلى أباطيل اللهو ، ونعوذ به من تقييد يؤدى إلى ...يد " (٧) .

...ص/ ١١٩.

...ص/ ٢٢٩.

...ص/ ٢٧٤-٢٧٥.

...ص/ ٢٧٨.

...ص/ ٢٧٩.

...ص/ ٢٨١.

...ص/ ٣٠٧.

ويستعيذ من الردة : " نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتيم الضلالة " (١) .

إن من الواضح مدى قوة تدين ابن جبير وعمقه ، فهو يذكر الله فى كل حين وكل موقف : يذكره راضيا ، ويذكره راجيا ، ويذكره مستعيذا خائفا . وقد قوّى هذه النزعة فى نفسه أنه كان فى رحلة حجية . وكان الحج فى ذلك الوقت عملا شاقا . فكان أثره فى النفس أقوى وأدوم .

ومما ينعكس فيه هذا الشعور الدينى القوى عند ابن جبير أيضا كثرة الأدعية فى رحلته ، فهو يدعو الله فى كل مرحلة من مراحل الطريق بالتيسير والتسهيل ، وهو يدعو الله للبلاد الإسلامية التى مر بها أن يحفظها ، وهو يدعو الله للبلاد التى كانت فى حوزة الإسلام ثم أخذها النصارى أن يعيدها مسلمة كما كانت ، وهو يدعو الله على الممالك غير الإسلامية أن يدمرها ويدمر أهلها .. إلخ . وهذه عينة من ذلك :

" وكان ذلك عند وصول العدوّ ، دمره الله ، بهم (بالأسارى المسلمين) من سواحل البحر ببلاد المسلمين . والله يتداركهم برحمته " (٢) . " عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتمم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته " (٣) . " وجعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " (٤) . " فأوزعنا الله شكر هذه المنة وعرفنا قدر ماخصنا به من نعمة ، وختم بالقبول ، وأجرانا على كريم عوائده من الصنع الجميل ولطيف التيسير والتسهيل " (٥) . " ويقال إن القرمطى ، لعنه الله ، كان الذى كسره (أى الحجر الأسود) " (٦) . " فهن يرتقبنه ارتقاب أشرف

١-ص/٣١٣.

٢- ص/٩.

٣-ص/١٨.

٤-ص/٥٢.

٥-ص/٥٩.

٦- ص/٦٦-١٢.

الأعياد ... ، والله ينفعهن فى ذلك بحسن النية والاعتقاد " (١) . " والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته " (٢) . " والله تعالى يعرّف المسلمين خيرا " (٣) . " والله يصلحه ويوفقه بمنه " (٤) . وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالى الحفيلة فى المسجد الحرام ، زاده الله تكريما " (٥) . " والله تعالى لايخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه " (٦) . " أطلع هلاله على المسلمين بالأمن والإيمان ، والمغفرة والرضوان " (٧) . " نظم الله الشمل ، وتمّم علينا الفضل " (٨) . " نفعنا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله " (٩) . " فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السّنن الصالح " (١٠) . " فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانىء حيث يقول : ... " (١١) . " والله ينفع المسلمين ببركاتهم وصوالح دعواتهم ، بمنه وكرمه " (١٢) . " ذِكْر مدينة السلام بغداد ، حرسها الله تعالى " (١٣) . " ذِكْر مدينة الموصل ،

١-ص/١١٦.

٢- ص/١١٧.

٣-ص/١٢٤.

٤-ص/١٢٦.

٥-ص/١٣٢.

٦-ص/١٤٠.

٧-ص/١٤٠.

٨- ص/١٦٨.

٩- ص/١٩٩.

١٠- ص/٢٠٥.

١١-ص/٢١٤. وهذه أول مرة أرى أحدا يترحم على أبى نواس ولكنه ابن جبير ، يرحمه الله !

١٢- ص/٢٢٠.

١٣- ص/١٩٣.

حرسها الله تعالى " (١) . " ذكر مدينة حران ، كلأها الله " (٢) " ذكر مدينة حماة ، حماها الله تعالى " (٣) . " ذكر جامعها (جامع دمشق) المكرم ، عمره الله تعالى " (٤) . " والله يُعلى كلمة الإسلام بمنه " (٥) . " والله يبقيها (أى دمشق) دار إسلام بمنه " (٦) . " والله يمتع ببقائه (أى صلاح الدين) الإسلام والمسلمين بمنـــــــه " (٧) ." وصبحنا يوم الثلاثاء .. مدينة عكة ، دمرها الله " (٨) . " ذكر مدينة عكة ، دمرها الله وأعادها " (٩) . " وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام .. والله يعيده إلى أيدى المسلمين ، ويطهره من أيدى المشركين " (١٠) . " ولعكّة .. واد يسيل ماء ، ولها مـــــع شاطئـــــه مما يتصل بالبحر بسيط رمل .. وبه يجتمع العسكر ، دمره الله " (١١) . " ولصور عند بابها البرى عين معينة .. والله تعالى يعيد إليها وإلى أخواتها كلمة الإسلام بمنه وكرمه"(١٢) . " والله تعالى يعظم أجورنا على ماكابدناه ، ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه ، ويوزعنا فى كل حالٍ شكرَ ما أولاه " (١٣) . " وذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية ،

١-ص/٢١٢.

٢-ص/٢١٩.

٣-ص/٢٣٠.

٤-ص/٢٣٥.

٥-ص/٢٦١.

٦-ص/٢٦١.

٧-ص/٢٧١.

٨-لأنها كانت حينئذ فى أيدى الصليبيين / ص٢٧٥.

٩-ص/٢٧٦.

١٠-ص/٢٨٢.

١١-ص/٢٨٣.

١٢- ص/٢٨٣.

١٣- ص/٢٦٣.

أعادها الله تعالى " (١) . " ذكر مدينة شفلودى من جزيرة صقلية ، أعادها الله " (٢) . " ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة (صقلية) ، فتحها الله " (٣) . " ذكر المدينة التى هى حضرة صقلية أعادها الله " (٤) . " فاتخذها (ملك صقلية) حضرة ملكه الإفرنجى ، أباده الله " (٥) . " وعلى هذا المثال موضوع قرطبـــــــة ، حرسها الله " (٦) . " وهى (كنيسة بصقلية) من أعجب مايُبصر من البنيان ، شرفها الله عن قريب بالأذان ، بلطفه وكريم منه " (٧) . " ذكر مدينة أطرابنش من جزيرة صقلية ، أعادها الله " (٨) . " ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل بجزيرته بسبب الأسطول الذى يعمره ويعده .. خيب الله سعيه ولاتمم قصده " (٩) . " تكفل الله بعصمته جميعهم (مسلمى صقلية) ، ونجاهم مما هم فيه بفضله وكرمه " (١٠) .

ولقــــد استجاب الله دعاء ابن جبير فى المدن الشامية والفلسطينية التى كان الصليبيون واضعين أيديهم عليها ، وإن كان صليبيو العصر الحديث قد عادوا فاستولوا عليها بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم جلوا عنها بعد أن سلموا لليهود فلسطين ، التى مازالت بأيديهم حتى الآن ، أعادها الله مسلمة كما كانت . أما صقلية فلم تعد للإسلام منذ أن خرجت من يده إلى الآن . ثم تبعتها الأندلس . وأحوال المسلمين حتى هذه اللحظة لاتبشر بالخير كثيرا .. والعواصف

ص/٢٩٦.

ص/٣٠١.

ص/٣٠٢.

ص/٣٠٥.

ص/٣٠٥.

ص/٣٠٦.

ص/٣٠٧.

ص/٣٠٨.

ص/٣١٠.

ص/٣١٥.

والأنواء جمة وفظيعة ، والتقاعس والتباغض بين المسلمين لايزال ذا سلطان جبار .

على أن هناك دعاء جُبَيْريا أحب أن أفرده بكلام خاص لما له من أهمية ، وهو " قدّس اللهُ ... " وهذه أولا شواهده :

قــال في الكلام عن مسجد الحسين ورأسه الذى يقال إنه مدفون فيه : " قدّس الله العضو الكريم الذى فيه بمنه وكرمه " (١) .

وعن الفرقعة بالسوط عقيب أذن المغرب والعشاء فـــى المسجـد الحرام : " وهى لامحالة من جملة البدع المستحدثة فى هذا المسجد المعظم قدّسه الله " (٢) .

وفى الكلام عن غار ثور : " وولجناه من الموضع الذى يعسر الولوج منه على البعض من الناس تبركا بمس بشرة البدن بموضع مسه الجسم المبارك ، قدّسه الله ، لأن مدخل النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كان منه " (٣) .

وعن مكـــة : " فكانت مدة مقامنا بمكة قدّسها الله ، ... ثمانية أشهر وثلث شهر " (٤) .

وعـن أحـــد المسلمين العاملين فى قصر ملك صقلية متخفيا تحت اسم نصرانى : " فسألنا عن مكة ، قدّسها اللــــه ... ، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة ، قدّسهما الله " (٥) .

وعن بعض الحجاج المغاربة : " كنا فارقناهم بمكة ، قدّسها الله " (٦) .

وذلك إلى جانب ورود هذه العبارة فـــــى مقـام الخبر لا فى مقام الدعاء ، وذلك حين بَسْطِه الأسباب التى تجعله يرفض للمسلم البقاء فى بلاد الكفر تحت حكم الصليبيين : " ومنها سماع

١-ص/٢٠.

٢-ص/١٢٣.

٣-ص/١٣٩.

٤-ص/١٦١.

٥-ص/٢٩٩.

٦-ص/٣١٧.

...جع الأفئدة من ذكر من قدّس الله ذكره وأعلى خطره " ، يقصد النبى محمدا عليه السلام فيما ...و (١) .

وسرّ إفرادى هذا الدعاء بكلام خاص هو أن ماسينيون ، المستشرق الفرنسى ، قد اتكأ على ...ارة مثل هذه جاعــــلا إياها دليلا من الأدلة التى لفقها من هنا وهنا على أن المتنبى ...ماعيلى . قال : " إن المعجم الشعرى للمتنبى يحتوى ... على بعض العبارات الشائعة عند ...اسماعيليين : اثنتان منها من إخوان الصفـــا (وهمـــا " قدس الله روحه " ، و " الفلك ...دوار ") ... إلخ " (٢) .

إن ابن جبير سنّى ، أى ليس شيعيا ، فضلا عن أن يكون إسماعيليا . وقد عبر فى أكثر من موضع ...ى رحلته عن رأيه الشديد في الشيعة ، حتى الزيديه منهم (٣) ، وهم معتدلون جدا . كما سمى ...إسماعيليين أكثر من مرة بالملاحدة (٤) ، ولعن القرامطة (٥) . ومع ذلك كله فإنه يستعمل هذا ...دعاء ، مما يدل على أنه ليس دعاء خاصا بالإسماعيلية ولا بإخوان الصفا منهم . ويؤكد ذلك أن ...القاشانى الصوفى (من القرن الثامن الهجرة) قد استعمل " قدس الله روحه " ، و" قدس الله ...سره " (٦) . كما استعمل العبارة الأخيرة الحسن بن محمد البورينى فى الدعاء لأحد المنحدرين

...ص/٢٨٠.

...انظر د إبراهيم عوض / المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام (وهو ترجمة من الفرنسية لبحث ...سينيون عن قرمطية المتنبى ، ودراسة مفصلة لهذه الدعوى وتفنيد لها) / مطبعة الشباب الحر ومكتبتها / ١٩٨٨م/ ...ص٢٠.

...انظر مثلا الرحلة / ص٢٢٤،٢٢٥.

...انظر الرحلة / ص٧٨،٢٢٤،٢٥٢.

...ص/٦٧.

...انظر كتابه " اصطلاحات الصوفية " / تحقيق د محمد كمال إبراهيم جعفر /الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ...١٩م/ص٧٥، ٨٥،١٥٧.

من سلالة عمر بن الخطاب (١) . وفى " النوادر السلطانية " لبهـــاء الدين شداد نراه ، وهو السنّى ، يدعو لوالد صلاح الدين (والأب والابن كما هو معروف سنّيان ، بل إن صلاح الدين هو الذى قضى على دولة الفاطميين الإسماعيليين بمصر نهائيا) ، بقولـــــه : " قدس الله روح والده " (٢) . وقد ترددت هذه العبارات : " قدس الله سرّه " ، و " قدس الله سرّه الصمدانـــى " و " قدس الله روحه " على لسان عبدالغنى النابلسى ، الصوفى الشامى المشهور ، دعاء لبعض الموتى (٣) . ويدعو الزبيدى فى " تاج العروس " لمحى الديـــن بن عربى بقوله : " قدّس سره " (٤) . وجاء فيه أيضا (٥) : " وحكى ابن الأعرابى : لاقدسه الله ، أى لابارك عليه " . وأذكر أنى قرأت هذا الدعاء عند ابن القيم فى القديم ومحمد عبده فى الحديث .

وهناك عبارة تكــــررت كثيرا فى الرحلة وتعقب أحيانا دعاء ابن جبير له ، وهى : " بحمده ومنّه " أو " بعزته وكرمه " أو بحوله وقوته " وما أشبه . وقد مرت بعض الشواهد عليها فى الفقرات السابقة (٦) .

ومن العبارت التى تكررت فى الرحلة قول المؤلف عقب سوقه معلومة أو خبرا مثلا : " والله أعلم " أو " والله أعلم بحقيقة ذلك " أو " والله أعلم بغيبه " أو " والله أعلم بصحة ذلك " ، وما

١-انظر البورينى / تراجم الأعيان من أبناء الزمان / تحقيق د صلاح الدين المنجد / دمشق / ١٩٥٩م / حـ١/ص١٢٠.

٢-- بهاء الدين شداد / النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين / تحقيق د جمال الدين الشيال /ط١/ الدار المصرية للتأليف والترجمة / ١٩٦٤م/ ص١٢٠.

٣- انظر " رحلتان إلى لبنان " لعبد الغنى بن إسماعيل النابلسى ورمضان بن موسى العطيفى / تحقيق د صلاح الدين المنجد وإسطفان فيلد / المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية / بيروت / ١٩٧٩/ ص ٥٨،٥٩،٦٥،٧٤،٧٧،٨٨.

٤- تاج العروس / مادة " دهو " .

٥- مادة " قدس " .

٦-على كل يمكن وجود هذه العبارات فى ص ٢٠، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٨١،٩٩، ١١٠، ١١٣، ١١٦، ١٣٨، ١٤٠،١٩٩، ٢١٢، ٢٨١،٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧،٢٩٣،٣٠٣،٣٠٩،٣١٩، وهذه مجرد أمثلة .

إلى هذا " (١) .

لقد أخذ على ابن جبير أنه فى كثير من الأحيان لايبذل جهده للتثبت مما يقول ، أو على الأقل لايتوقف عن الجزم به (٢) . لكن فى تكـــراره الكثير لعبارة " الله أعلم " ، فى المواقف المختلفة ، أكبر دليل على أنه لم يكن يقبل كل مايقال له ، بل كان يخرج من عهدة ذكره له فى رحلته بهذه العبارة التى تؤكد أنه ليس بمكنته القطع بصحة ماسمع أوبزيفه ، ومن ثم فإنه يفوض العلم بالأمر إلى الله سبحانه وتعالى . ومع ذلك فالطبيعة البشرية هى الطبيعة البشرية ، مهما بذل الكاتب جهده فى عدم القطع بصحة مايسمع فإنه تعتريه عوارٍ من السهو والنسيان تخيل إليه أن مافى ذهنه صحيح ، فينسى الحذر ويتحدث عن الأمر الذى هو بصدده حديث المطمئن . والعبرة على أية حال بالخط الغالب على الشخص لا على الهنات التى لايخلو بشر من الوقوع فى هذه أو تلك منها . ثم ينبغى أن نضع فى حسابنا أنه كان عابر سبيل طوال الرحلة ، أى منقطعا عن كتبه ومراجعه . فضلا عن أن طبيعة الرحلة والحج لايتيحان الوقت الكافى ولا البال الخالى للدرس والبحث والتمحيص ، وبخاصة أنه لقى فى رحلته من متاعب الطريق والإقامة والأهوال ، تلك الأهوال التى بلغت حدّ الإشراف على الهلاك أكثر من مرة ،الشىء الكثير .

وعندما يستطـــرد ، ثم يتنبه إلى استطراده ويريد أن يعود إلى موضوعه الأول فإنه يقول مثلا : " ثم نرجع إلى ذكر كذا "، ويرجع إلى ماكان يتحد ث فيه .

لقد استطرد به الكلام فى أثناء وصفه لمدينة بغداد إلى ذكر بعض الحكايات والمشاهد التى رآها هناك . فلما أراد أن يرتد الى موضوعه الأصلىقال : " ثم نرجع إلى ذكر بغداد . هى كما

١- انظر مثلا ص/٢٨،٣٠ ، ٥٣،٨٩،١٢٢،١٦٦،١٧٠،١٧٢،١٨٨،١٨٩،٢٥٤،٣١٢.

٢- انظر عبدالقدوس الأنصارى / مع ابن جبير فى رحلته / ص٣٥٠-٣٥١.

ذكرناه جانبان : شرقى وغربى ، ودجلة بينهما " (١) .

وفى أثناء وصفه لمراحل الطريق فى طريق العودة عند مدينة دنيصر العراقية استطرد فتحدث عن هذه المدينة وسكانها وحكامها وما إلى ذلك . ثم قال فى نهاية هذا الاستطراد : " ونرجع إلى حديث المراحل ، قربها الله . فكان مقامنا بدنيصر إلى أن صلينا الجمعة .. ورحلنا إثر صلاة الجمعة فاجتزنا على قرية كبيرة .. " (٢) .

وبعد استطـــــــــراد آخــر قال : " وقد خرج الكلام بنا عن مقصده ، فلنعد إلى ماكنا بصدده ، فنقول : .. " (٣) .

وبعد استطراد مشابـــــه نراه يقول : " وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذى نحن فيه والحديث ذو شجون . والله كفيل بحسن العون ، لارب سواه " (٤) ، ثم يعود إلى موضوعه الأصلى الذى كان قد تركه .

ومن العبارات التى تقابلنا عند ابن جبيـــــر قوله : " حسبما تقدم ذكره " وما أشبه :

يقول عن سهر سكان مصر : " على مثل ذلك شاهدنـــــا أحوالهم بمصر والإسكندرية ، حسبما تقدم ذكره " (٥) .

ويقول عن موسى عليه السلام وهو طفل رضيـــــع : " ومنها ألقته أمه فى اليم ، وهو النيل حسبما ذكر " (٦) .

" وجـــــدد بنـــــا الكعـــــبة المقـــدسة وغشاه فضه مذهبة ، وهو الذى فيها الآن حسبما تقدم

١- ص/٢٠٠.

٢- ص/٢١٦.

٣-ص/٢٣٦.

٤-ص/٢٥١.

٥-ص/٣١.

٦-ص/٣٢.

وصفه " (١) .

ويقول عن عبدالله بن الزبير : " وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية إلى المَعْلَى ، التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره " (٢) .

" فكان يومهم أشبه شىء بأيام السرو فى دخولهم البيت حسبما تقدم وصفه " (٣) .

وعـــن غار ثور : " وسعة الباب الثانى المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا ، لأن له بابين حسبما ذكرناه أولا " (٤) .

" ويليهـــا .. المقصورة التى أحدثت عند إضافة النصف المتخذ كنيسة إلى الجامع ، حسبما تقدم ذكره " (٥) .

وعن صيام رمضان فى صقلية :" ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها " (٦).

هذا عن المفردات والصيغ والعبارات . أما التراكيب فقد لاحظـــت منها طائفة مميزة تكررت فى الرحلة .

١-ص/١٠٣.

٢-ص/١١٥.

٣- ص/١٢٦.

٤-ص/١٤٠.

٥-ص/٢٣٨.

٦- ص/٣٠٩.

التراكيب

ومن هذه التـراكيب التركيب التالى : " إن (أو " أن ") + شبه جملة + جملة فعلية (بدلا من اسم إنّ المتأخر) " . وهذه أمثلة على ذلك :

" ويُذْكر أن فيها كان مولد النبى موسى الكليم ، صلى الله على نبينا وعليه " (١) .

" يقصـــد النـــاس إليها ويصلّون فيها ويتمسحون بأركانها ، لأن فى موضعها كان موضع قعود النبى ، صلى الله عليه وسلم " (٢) .

" وممّـا يجب أن يُثْبَت ويؤثر .. أن فى يوم الجمعة .. أنشأ الله بَحْريـــة (أى سحابة آتية من جهة البحر) .. " (٣) .

" وأعلمنـا أحـد الحجاج .. أن فى هذا العام .. استفتح (قلج ارسلان) من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا " (٤) .

" وهم يرون أنّ منه يكون فتح هذه الجزيرة إن شاء الله " (٥) .

" إن المعـــروف أن " إنّ " تحتاج إلى اسم وخبر ، فإذا قلنا إن " شبه الجملة " فى الشواهد السالفة هو الخبر ، فأين اسم " إن " ؟

إننـى أذكر أن أول مرة تنبهت فيها لهذا التركيب كانت منذ نحو خمسة عشر عاما . وقد سألت أحد الأساتذة المطلعين على كتب التراث فى اللغة والأدب عن مدى صحة مثل هذا التركيب ، فقال إنه قد قابله مرارا فى الكتب القديمة . وهأنذا أعود فأقف أمام هذا التركيب فى أسلوب

١-ص/٣٢.

٢-ص/٩٣.

٣-ص/٩٥.

٤-ص/٢٠٧.

٥- ص/٣٠٩.

ابن جبير لما رأيته من تكرره فيه بضع مرات ، ولما تصادف أن عثرت به فى بعض النصوص التى قرأتهـــا أثناء إعداد هذا البحث .

من ذلك قول حاتم الطائى (وإن لم يتوسط بين الحروف الناسخ والفعل شبه جملة) :

أَوْقِدْ ، فإن الليل ليل قرّ . والريح ياواقد ريح صرّ
علّ يرى نارك من يمـــر إن جلبت ضيفا فأنت حرّ

وجاء فى مسند ابن حنبل : " .. أنّ يوم مطر ألقينا تحته بِتّا " (١) .

وقول ابن دراج القسطلى من قصيدة يمدح بها المنصور بن أبى عامر :

لعلّ بما أشجاك من لوعة النوى يعزّ ذليلُ أويفَكّ أسيـــــــــر

وقول ابن حزم فى " طوق الحمامة : " وذكرت بهذه الفعلة مالم يزل يتداول فى أسماعنا من أن فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق ، على أنه إذا قضى وطره ممن أراد ، أن يتوب إلى الله " (٢) .

ومن كلام على بن موسى بن سعيد صاحب " المغرب " : " إلا أن فى هذا الوقت .. عظمت عمارة الفسطاط " (٣) .

وفى " رسالة أبى دلف الثانية : " ويقال إن فيها غُرِقَ بعض ملوك الفرس " (٤) .

وفى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للقاسم بن يوسف التجيبى السبتى : " يؤكدون أن هنالك دُفِن العضو الشريف " (٥) .

وفى " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالـــك " : " .. أن فـــى كـــل شـــىء يقـــول

١- ابن حنبل /٦/٥٨.

٢- رسائل ابن حزم / تحقيق د. إحسان عباس / حـ١/ص٢٧٠.

٣- عن المقرى / نفح الطيب / مجلد ٣/ص١١١.

٤- رسالة أبى دلف الثانية / ص ٧٢.

٥-مستفاد الرحلة والاغتراب / ص٨.

الناس " (١) . " وروى عن مقاتل بن سليمان أن كلّ ليلة ينزل سبعون ألف ملك من السمـــاء " (٢) . "وخلاصة القضية أن فى الحقيقة لايطلق لفظ السلطان إلا لصاحب مصر " (٣) .

ولعبـــــــد الغنى النابلسى : " وأخبرنى جماعة أن مرّةً صعد رجل فوق تلك العمارة " (٤) . " سمعنا .. بأن فى بـــــلاد مصر يعملون من القمح دبسا حلوا " (٥) . " لايُعهد أن فيها دُفِن إنسان " (٦) .

ثم هذا البيت لعبدالله باشا فكرى :

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن بفتح القرم مان لنا الصعـــب

وهـــذا التركيـــب يشيع إلى حد ما فى الكتابات العصرية من ذلك قول أمين الريحـــانى : "إنىمن الموحدين ، وإن فى مرآة توحيدى لتنعكس وجوه الأنبياء والرسل أجمعين " (٧) . وقول أحمد عبدالرحمن السماوى فى كتبه عن الآثار الأندلسية فى إسبانية : " يشاهد المرء تلك الآثار ويتذكر أن هنا كانت مملكة .. ولكنها أصبحت أثرا بعد عين " (٨) . وقول د. إبراهيم دسوقى أباظة عن كتاب الحزب الوطنى فى مصر هذه الأيام : " إن هؤلاء الكتاب لاشك متأكدون أن رئيس الدولة هو رئيس الحزب الوطنى وأن بين قبضته تتجمع كل خيوط السلطة " (٩) . وقول

١- غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى / زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك /ص٢٢.

٢- زبدة كشف الممالك / ص٢٢.

٣- زبدة كشف الممالك/ص٨٢.

٤- النابلسى والعطيفى / رحلتان إلى لبنان / ص ٨٣.

٥- رحلتان إلى لبنان /ص١٠٧.

٦-رحلتان إلى لبنان / ص١٠٩.

٧- أمين الريحانى / وصيتى / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ط١/١٩٨٢م/ ص ٢٥.

٨- أحمد عبدالرحمن السماوى / رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس/ص ١٢٥-١٣٦.

٩- مقال له بعنوان " التقارب والتباعد بين الحكومة والمعارضة " / جريدة " الوفد " القاهرية / الثلاثاء ٢٦ ربيع الأول ١٤١١هـ - ١٦ أكتوبر ١٩٩٠م /ص ٥.

عبدالعزيز صادق : "ويضرب طه حسين مثلا على مايقول بأن فى روايته " دعاء الكروان " تجرى حياة الشعب على لسان خادمة وشقيقتها ومهندس " (١) .

وبعد ، فهل لهذا التركيب توجيه نحوى ؟ إن المعروف أن " إنّ " و " أنّ " إذا خففتا أمكن دخولهما على الجمل الفعلية ، مثل :

شلت يمينك إن قتلت لمسلما   حلت عليك عقوبة المتعمـــد

و :

واعلم فعلم المرء ينفعـــه   أن سوف يأتى كل ماقـــدرا

ويكون اسم " أن " أو " إن " حينئذ ضمير شأن (٢) . لكن قد يقال إن " إنّ " و " أنّ " فى هذه النصوص ليستا مخففتين . فما القول بأن النحاة يقولون إن اسم " إن " فى قوله صلى الله عليه وسلم : " إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون " هو ضمير شأن محذوف ؟ وهو نفس ماقالوه فى بيت الأخطل التالى :

إن من يدخل الكنيسة يوما   يلق فيها جآذرا وظبـــاء

على اعتبار أن الجملة التى دخلت عليها " إن " هنا هى جملة شرطية لاجملة مبتدإ وخبر (٣) . أفلا يمكن من ثمة توجيه التركيب الجبيرى وأشباهه عند الكتاب الآخرين على تقدير ضمير شأن محذوف اسما لـ " إن " وأخواتها ؟

وأنا ، والحق يقال ، لست مستريحا كثيرا لهذا التركيب ، لكنى أحاول ألا أخطئه مادام له باب. ومع ذلك فإننى لاأستطيع أن أغمض عينى عن التمحّل فى التوجيه المقترح .

١- من الحلقة الثامنة من سلسلة مقالات له بعنوان " زيارة إلى الماضى " / صحيفة "الندوة" السعودية / الأحد ١- ربيع الثانى ١٤١١هـ - ٢٨ أكتوبر ١٩٩٠م /ص ١٠.

٢- انظـــــر شـــــرح ابن عقيل / تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد / ط١٤/ دار العلوم الحديثة / بيروت / أكتوبر ١٩٦٤م/ حـ١/ص٣٨٢-٣٨٩.

٣- شرح ابن عقيل / حـ١/ص ٣٤٦-٣٤٧/ هـ٢.

كذلك وجدت التركيب التالى أيضا عند ابن جبير : " ولاشك أن على هذه الصفة هى العين التى ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة " (١) .

وقد وجـدت نفس التركيب عند التجيبى السبتى : " وزعم أن على ذلك هو عيش الساكنين بهذا البير " (٢) .

وهذا التـــركيب يشيع إلى حد ما فى عصرنا هذا ، وبخاصة فى ميدان الصحافة . وقد عثرت وأنا أعد هذه الدراسة على هذا التركيب عدة مرات فى كتابات معاصرة . من ذلك قول مصطفى فروخ ، الفنان التشكيلى اللبنانى : " وذلك أن يقال : إن من بين الروائع التى برزت ولفتت الأنظار هذا العام هى صورة " أستاذى " للفنـــان اللبنانى فروخ " (٣) ، وقول د. عبدالعزيز المقالح : " ولعل من أكثر الأمور تعرضا لسوء الفهم بالنسبة للكتابة للأطفال هو مايسمّى بالنزول إلى مستوى الطفل " (٤) . وقريب من ذلك قول أحمد مهابة (ولكن بغير الحرف الناسخ) : " ومما يعنينا فى هذا الأمر هو أن إيران فى عهد الشاه كانت أبرز الدول التى رُشحت للقيام بهذا الدور " (٥) . كما عثرت ، فى إحدى المقالات الصحفية ، على نفس التركيب ، فيما عدا أن الناسخ هو " ليس " لا " إنّ " ، وذلك فى قول الصحفى السعودى شعاع الراشد : " أليس فى سطو صدام على دولة الكويت والتهديد بتدمير آباره هو انتهاك صارخ لتلك المبادىء التى تهم شريان

رحلة ابن جبير / ص ٢٠٩.

أبو القاسم بن يوسف التجيبى السبتى / مستفاد الرحلة والاغتراب / ص ٩٨.

مصطفى فروخ / طريقى إلى الفن / مؤسسة نوفل / بيروت / ط١/١٩٨٦م/ ص ١٦٨.

من مقال له بعنوان " عبدالتواب يوسف وملاحظات فى أدب الناشئين " فى كتاب " عبدالتواب يوسف وأدب الطفل العربى ، مع قائمة ببليوجرافيا لإنتاجه الفكرى " / الهيئة العامة المصرية للكتاب / ١٩٨٧م/ ص ٥٧.

أحمد مهابة / إيران بين التاج والعمامة / كتاب الحرية رقم ٢٢/دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر / القاهرة / ١٩٩٠م/ص١٤٢.

التقدم العالمى ؟ " (١) . كما عثرت على التركيب ذاته ، ولكن من غير أن يسبقه أى ناسخ ، فى قول صحفى عراقى موجها كلامه إلى رئيس العراق : " إنك قتلت أيضا الدينار الكويتى والاقتصاد الكويتى والإنسان الكويتى ، ثم هدمت بقية العرب ، وبما فى ذلك .. هو الإنسان العراقى " (٢) .

وبالمثـــــل نستطيع تمحل نفس التوجيه لهذا التركيب أيضا . ولم لا ، وقد قيل إنه لايُغْلَب نحوى ؟ فضمير الشأن المحذوف اسم " أنّ " . وشبه الجملة : " على هذه الصفة " خبر . و " هى " مبتدأ ، و " العين " تابع للضمير أو منصوب بفعل محذوف تقديره " أعنى " مثلا ، وأمرنا إلى الله .

وهنـــــاك تركيب من الكلام عند ابن جبير يثير الجدل أيضا ، وهو أنه فى غير قليل من حالات تمييز العدد يُدْخل الألف واللام على المميّز المضاف إلى تمييزه . وهذه هى الشواهد :

" وبين الجزيرتين .. نحو الأربعمائة ميل " (٣) .

" وهو بر طويل جرينا بحذائه نحو المائتى ميل " (٤) .

" وبين البرين المذكورين نحو الأربعمائة ميل " (٥) .

" وبينه وبين الإسكندرية نحو الأربعمائة ميل على ماذكر لنا " (٦)

١- شعاع الراشد/ شروط للحل السياسى مع التحية لمناصريها / صحيفة " الندوة " السعودية / الأحد ١٠ ربيع الثانى ١٤١١هـ - ٢٨ أكتوبر ١٩٩٠م . / الصفحة الأخيرة .

٢- سامى فرج على / قراءة فى الأوراق السرية للقيادة الحزبية والحكومية فى العراق / صحيفة الشرق الأوسط / الأحد ٢٨أكتوبر ١٩٩٠م / ص ٨

٣- ص/ ٨.

٤- ص/١٠.

٥- ص/١١.

٦- ص/١٢.

" والخمسة الأثمان مضافة إلى الوجوه المذكورة " (١) .

" فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر .. " (٢) .

" كـان نزولنا بجدة حامدين لله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ماعايناه فى تلك الثمانية الأيام طول مقامنا فى البحر " (٣).

" وهو نحو الثمانمائة قفير " (٤) .

" مركّبة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش " (٥) .

" وله يتولى هذه الخطة نحو الثمانية أعوام " (٦) .

" ولم يبلغ الخمس عشرة سنة " (٧) .

" واستجلبت .. نحو المائة بعير " (٨) .

" وعيّن أوقافا عظيمة تغل نحو الألف دينار وأربعمائة دينار فى السنة " (٩) .

وبالنظــــر إلى هذه الشواهد نجد أن التمييز المضاف إليه قد أتى فى بعضها معرّفا هو أيضا بالألف واللام ، وفى بعضها غير معرف . فأما البصريون ، وهم أصحاب المذهب النحوى الذى شاع وانتشر وكتبت له السيادة ، فإنهم لايجوّزون مجىء المميّز المضاف إلى تمييزه معرفا بالألف

١- ص/١٦.

٢- ص/١٧.

٣- ص/٥٢.

٤- ص/٥٥.

٥- ص/٧٧.

٦- ص/١٦١.

٧- ص/١٢٧.

٨- ص/١٦٢.

٩- ص/٢٦٣.

واللام ، سواء كان فى التمييز ألف ولام أم لا . وأما الكوفيون فإنهم يجوزون الحالة الأو[ولى] ولايجوّزون الثانية (١) . أى أن ابن جبير ـ حتى على مذهب أهل الكوفة ، وهو المذهب الو[اسع] الصدر ، قد كسر القاعدة فى حالة إبقاء " ال " فى المميز المضاف إلى تمييز غير محلىّ بالأل[ف] واللام .

بيـد أننى منذ أكثر من عشرين عاماً وأنا أعتقد صحـة هذا التركيب الأخير ، بناء على ماقرأ[ت] (فيما أذكر) فى حلقة من الحلقات اللغوية والأدبية التى كان يحررها الأستاذ شوقى أمين [فى] مجلة " الهلال " المصرية تحت عنوان " سلطة أدبية " ، إذ بعد أن عرض القاعدة التى تحـ[ـظر] التركيب الذى نحن بصدده ثنى فأورد عددا من النصوص القديمة تتضمن هذا التركيب . ورأ[ى] فى مثل هذه الأمور أنه مادامت هناك شواهد على استعمال لغوى ما فى نصوص التراث ، حتى [لو] جاءت بعد عصور الاحتجاج ، فإن هذا الاستعمال جائز برغم أنف القاعدة . وعلى هذا الأسا[س] يكون ابن جبير مصيبا .

ويتصل بما نحن فيه هذا التركيب الذى تكرر عند ابن جبير :

" سنّه نحو الخمس وعشرين سنة " (٢) .

١- يرى البصريون أنه لايصح دخول (ال) على المضاف إلا إذا كان عاملا فى المضاف إليه . وفى هذه الحالة لابد أن يكو[ن] المضاف مثنى أو جمع مذكر سالما ، أو توجد " ال " فى المضاف إليه ، أو فى اسم أضيف إليه المضاف إليه ، أو يكون الاسم الذى أضيف إليه المضاف إليه ضميرا . مثال ذلك على الترتيب :

أ- وما لكلام الناس فيما يريبنى ... أصول ولا للقائليه أصول

ب- الآكل الطعام ... جـ- المردد شائنات الأعداء ... د- الرابط رأسه

أما الكوفيون فيجوزون حالة خامسة ، وهى حالة العدد المحلى بـ " ال " المضاف إلى تمييز محلى هو أيضا بـ " ال " ، كقول ابن جبير : " فإن الأربعة الأئمة يصلونها فى وقت واحد مجتمعين " / الرحلة / ص ٧٨- ٧٩. ويمكن الرجوع فى هذه المسألة إلى عباس حسن / النحو الوافى / دار المعارف بمصر / ط ٤/جـ ٢/ ص ١٢- ١٤ .

٢- ص/ ٢٠٢

" استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا " (١)

" وقد كنا مدة الستة وعشرين يوما المذكورة .. نرجم الظنون " (٢) .

ووجـه الغرابة فيـه أن يعامل الكاتب رقم الآحاد معاملة تختلف عن معاملته لرقم العقود ، إذ عرّف الأول ونكّر الأخير . والمفروض أن يعاملا معاملة واحدة .ويبدو أنه عامل جزأى العدد بصفتهما كتلة واحدة ، فأدخل عليهما (ال) مرة واحدة فى أولهما ، كما يفعل الإنسان عند تعامله مع الاسم الواحد .

وليس معنـــــى هذا أن ذلك مطرد عنده . فقد أدخل (ال) على جزأى العدد كليهما فى قوله :

" ويُهْبَط إليه على أدراج عددها نحو الخمسة والعشرين درجا " (٣) .

ومـن التراكيـب الجبيرية التى لفتت نظرى بتكررها هذه الجملة الاستفهامية التى تبدأ بـ " كيف .. ؟ " أو " ماظنك بـ .. ؟ " ويقصد بهاالاستفهام عن أمر أشد من أمر سبق ذكره ، استفهاما يقصد به التأكيد على أن الأمر الثانى أحق من الأمر الأول . وهذه هى الشواهد :

"وقد نهى اللـــه عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يُرجى ستره الصون دونه من حال لايريد صاحبها أن يُطّلع عليها ؟ (٤) .

" واللـــــه قـــــد أوجد الرخصة فيه (فى عدم الحج) على غير هذه الحال ، فكيف وبيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها وضرب الذلة والمسكنة عليهم ؟ " (٥) .

" بكر الشيبيـــــون إلى غسله (أى البيت الحرام) بماء زمزم المبارك بسبب أن كثيرا من

---

١ - ص/ ٢٠٧.

٢- ص/ ٢٨٨.

٣- ص/ ١٧٦.

٤- ص/ ٣٥.

٥- ص/ ٥٥.

النساء أدخلن أبناءهن الصغار والرضع منهم .. فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يبادرون إليه تبركا بغسل أوجههم وأيديهم فيه ، وربما جمعوا منه فى أوان قد أعدوها لذلك ولم يراعوا العلة التى غُسل لها . وكان منهم من توقف عن ذلك ، وربما لحظ الحال لحظة من لايستجيزها ولايصوّب العقل فى ذلك . وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صُبّ داخل البيت الحرام وماج فى جنباته الكرام ، ثم انصب بإزاء الملتزم والركن الأسود المستلم ؟ أليس جديرا بأن تتلقاه الأفواه فضلا عن الأيدى وتغمس فيه الوجوه فضلا عن الأقدام ؟ " (١) .

" لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف النسج لما قبلـه . فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة ؟ " (٢) .

" وفى عشى ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة . فياله وداعا عجبا ذهلت له النفوس ارتياعا حتى طارت شعاعا .. وماظنك بموقف يناجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين ، رسول رب العالمين ؟ إنه لموقف تتفطر له الأفئدة ، وتطيش به الألباب الثابتة المتئدة ؟ " (٣) .

" فلما نفحتنا نوافح هوائها (قرية زريران على دجلة) ..أحسسنا مـن نفوسنا ، على حال وحشة الاغتراب ، دواعى من الإطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغُيّاب بالإياب .. هذا الغريب النازح للوطن ، فيكف للوافد فيها على أهل وسكن ؟ " (٤) .

" وماظنك ببلد حصن الأكراد منه علـى أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذ يطير شراره ، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره ؟ " (٥) .

١- ص/١١٦-١١٧.

٢- ص/١٤٦.

٣- ص/١٨٠

٤- ص/١٩٢.

٥- ص/٢٣٢.

" ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبـل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين (للعبادة) جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم .. وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ؟ " (١) .

" وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين (أى حجاج بيت المقدس النصارى من الأوربيين) فائزين بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعدم الزاد ونفاده . وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس نتقسمه بين أربعة منا نبله بيسير من الماء فنتبلغ به . وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده ، فترفق المسلمون بابتياع ما أمكن منه على غلائه وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص . فماظنك بمدة شهرين على ظهر البحر فى مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها فى عشرة أيام أو خمسة عشر يوما .. ؟ فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما ، وسائر الناس لعشرين يوما ولخمسة عشر يوما " (٢) .

ومما تكرر من التراكيب اللغوية عند ابن جبير قوله : " وكفى بـ/ .. " تعجبا وإعجابا :

" ومن مشاهدها (مشاهد مكة) الكريمة أيضا دار الخيزران ،وهى الدار التى كان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه ، رضى الله عنهم ، حتى نشر الله الإسلام منها على يد الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . وكفى بهذه الفضيلة ! " (٣) .

" وهو (أى مسجد الخيف بمنى) من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة . وكفى بماورد فى الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء ، صلوات الله عليهم ! " (٤) .

" ومـن أسباب خرابها (أى مدينة الكوفة) قبيلة خفاجة المجاورة لها ، فهى لاتزال تضرّ بها .

١- ص/٢٥٩-٢٦٠.

٢- ص/٢٩٢.

٣- ص/٩٢.

٤- ص/١٣٧.

وكفاك بتعاقب الأيام والليالى محييا ومفنيا ! " (١) .

" وأما الشرقية (بغداد الشرقية) فهى اليوم دار الخلافة . كفاها بذلك شرفا واحتفالا ! " (٢) .

" بلد (أى حرّان) لا حُسن لديه ، ولا ظل يتوسط برديه .. قد نبذ بالعراء ، ووضع فى وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة . أستغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا أنه البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم ، صلى الله عليه وسلم ! " (٣) .

" وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة (حمص) : هل فيها مارستان ؟ فقال وقد أنكر ذلك : حمص كلها مارستان . وكفاك تبيينا شهادة أهلها فيها " (٤) .

" ولو لم يكن بهذه الجهات الشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء .. كفى بذلك شرفا لها " (٥) .

" فقال السلطان (صلاح الدين الأيوبى) له : ماعسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ؟ .. وإنما أنا عبد الشرع وشحنته (أى شرطته) .. فالحق يقضى لك أو عليك .. وهذه كلمات كفى بها للسلطان فخرا ! " (٦) .

" وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف . وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة " (٧) .

١- ص/١٨٧.

٢- ص/٢٠٢.

٣- ص/٢٢٠.

٤- ص/٢٣٢.

٥- ص/٢٥٨.

٦-ص/٢٧١.

٧- ص/٢٩٦-٢٩٧.

ومما لا أذكر أنى وجدته بهذه الكثرة الهائلة عند غير ابن جبير من التراكيب اللغوية شغفه الشديد بفك المضاف إليه عن المضاف وتحويله إلى وصف نَسَبى للمضاف ، أو استبدال هذا الوصف النَّسَبى المكوَّن من كلمة واحدة (هى الاسم الملحقة به ياء النسب) بوصف مكون من عدد من الكلمات . وهو مايدل على استيلاء باب النسب على ذهنه وقلمه ، حتى إنه لينسب إلى كلمات يقع النسب إليها فى الأذن موقعا غريبا . وعلى أية حال فهذه بعض الشواهد على هذا الاستعمال :

" النية الحجازية " (١) ، أى نية السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . " الصروح الخوصية " (٢) ، أى الأبنية المتخذة من الخوص . " المرافق المسكنية " (٣) . (بدلا من " السكنية ") . " الجلسة الخطيبية " (٤) . " والفرقعة الخطيبية " (٥) ، بدلا من " جلسة الخطيب " و " فرقعة (أى سوط) الخطيب " . " مبيعات طعامية " (٦) . " تصاوير .. فاكهية " (٧) (أى صور لفواكه مختلفة) . " الوقفة العرفية " (٨) ، أى وقفه يوم عرفة فى عرفات . " قطعا جهليا " (٩) . (أى جزما بالأمر على غير علم أو معرفة) . " المؤذن الزمزمى " (١٠) ، بدلا من " المؤذن القائم عند بئر زمزم " . " التراويح المقامية " (١١) ، أى التى تصلى عند المقام .

١-ص/١٧.

٢- ص/٥٧.

٣- ص/٥٨.

٤- ص/٧٣.

٥-ص/ ١٢٣.

٦- ص/٨٥.

٧- ص/٩٨.

٨- ص/١٠٦.

٩- ص/١١٨.

١٠- ص/١٢٣،١٢٤،١٣٥.

١١- ص/١٣٣.

" هيبة إملمية وسكينة غلامية " (١) .أى هيبة الإمام وسكينة الغلام . " المحراب العُودىّ " (٢) ، أى المحراب المكون من أعواد . " الجمرة العقبية " (٣) ، أى جمـــرة العقبة . " شهادات زورية " (٤) ، أى شهـــادات الـــزور . " كنوز قارونية " (٥) ، بدلا من "كنوز تشبه كنوز قارون " . " كسوة الخليفة السوادية " (٦) ، بـــدلا من " السوداء " . " المزامير الداودية " (٧) ، بدلا من " مزامير داود " . " الحسن الحريمى" (٨) ، بدلا من " النسائى " . " خاتون المسعودية " (٩) ، بدلا من " خاتون بنت الملك مسعـــود " . " المرافـــق السفرية " (١٠) ، التى تكون فى السفر . " أبواب قصريـــة الحســـن " (١١) ، أى فـــى حســـن أبـــواب القصور . " المآثر الصدقيـــة " (١٢) ، نسبـــة إلـــى الصدقـــة . " الألفـــاظ المُحاليـــة " (١٣) ، أى المستحيلـــة ، بمعنـــى الطنانـــة المغالـــى فيها . " الانعكـــاف الركوعـــى " (١٤) .

١- ص/١٢٨.

٢-ص/١٢٩.

٣-ص/١٣٦.

٤-ص/١٤٦ مرتين .

٥- ص/١٤٩.

٦- ص/١٥٧.

٧- ص/١٦٠.

٨-ص/١٩٤.

٩- ص/٢٠٦،٢١٢.

١٠-ص/٢٢٤.

١١-ص/٢٢٧.

١٢-ص/٢٦٤.

١٣- ص/٢٦٨.

١٤- ص/٢٦٨-٢٦٩.

" الآلات اللهوية " (١) ، آلات اللهو . " المذلة والمسكنة النمية " (٢) ، أى مذلة أهل النمة ومسكنتهم . " أسباب نكالية " (٣) ، أى أسباب تجر النكال على صاحبها .

كمـا يلاحظ أن ابن جبير لايتحرج من النّسب إلى جمع التكسير ، فهو يقول مثلا : " الإنذارات الحدثانية " (٤) ، نسبة إلى " حدثان " الدهر ، أى نوائبه ، و " الوظائف المكوسية " (٥) ، نسبة إلى " المكوس " ، جمع " مكس " ، و " الحاج الأنلمـــى والأنعامى " (٦) ، بالنســـب إلـــى " الأنعام " ، و " اللفظ الملوكى النسائى " (٧) ، " المنازل الرفيعة الملوكية " (٨) ، " ورحاب وأبواب وساحات ملوكية " (٩) ، " شارته الملوكية " (١٠) ، " مخايل ودلائل ملوكية " (١١) ، " الهمة الملوكية " (١٢) ، " الأدب الملوكى " (١٣) ، نسبة إلى " ملوك " . وكل هذه الجموع لها واحد من لفظها .

وهذا يذكرنا ببعض صيغ النسب الجمعية التى شاعت فى عصرنا ، فنحن جميعا نقول : " مؤتمر

١-ص/٢٧٨ مرتين .

٢- ص/٢٨٠.

٣- ص/٣١٣.

٤- ص/٢٨.

٥- ص/ ٤٥، وإن كان قد نسب إلى المفرد فى موضع آخر فقال : " الضريبة المكسية "/ ص ٢٧٤.

٦- ص/١٨٢.

٧-ص/١٦٤.

٨- ص/٢٢٦.

٩- ص/٣٠٣.

١٠- ص/٣١١.

١١ -ص/٣١١.

١٢- ص/٣١١.

١٣- ص/٣١٢.

طُلّابى " و "مظاهرات عمّالية " . " ومقاس أولادى " و " حذاء بناتى " و " عجلاتى " و " ساعاتى ".
لايشذ أحد منا عن ذلك وهو مثل قول القدماء : " كتبى " و " قلانسى " و " حُصرى " و " شعوبى ".
وكثير من منيعى نشرات الأخبار الآن يقولون : " أزمة دُوَليـــــة " (نسبة إلى " دُوَل " ، لا إلى " دولة ") . وفى إحدى محاضراتى فى آداب عين شمس قام طالب فقال من كلمة كان كتبها وألقاها على زملائه : " العلاقات الزياراتية " ، يقصد الزيارات " ، ولكنه بدلا من ذلك نسب إليها وجعلها وصفا للعلاقات . وكثير من الناس يقولون " صُحُفى " (نسبة إلـــــى " صُحُــف " لا إلى " صحيفة ") . وشاعت فى عصرنا تسميــــة زائرى الأضرحة والتبرك بها بـ " القبوريين " .. وهكذا . بل إن عالما فى اللغة معروفا كالدكتور عبدالصبور شاهين لايجد حرجا فى أن ينسب إلى قبائل " قائلا : " والعرب فى ذلك الحين كان وجودهم قبائليا " (١) .

والسؤال المطروح هو : " هل النسبة إلى جمع التكسير فى مثل هذه الحالات يصح ؟ " إن القاعدة الصرفية المعروفة لاتقبل هذا ، لأن هذه الجموع لها واحد من لفظها وليست أعلاما . إلا أن قوما من اللغويين يجوزون ذلك (٣) . وعلى هذا فصنيع ابن جبير ومانقوله نحن الآن مـــن " طُلّابى " و " عُمّالى " ... إلخ له وجه .

كما تكرر فى أسلوب ابن جبير التركيب التالى : " فعل أو حرف أو اسم يدل على التشبيه + المشبه والمشبه به + تمييز " أو مايقرب من ذلك ، كما يتضح من الأمثلة الآتية :

١-د عبدالصبور شاهين / فى علم اللغة العام / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٣/١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م/ ص ٢٤٧.

٢- انظر شرح ابن عقيل / حـ ٢/ ص٥٠٥، وأحمد الحملاوى / شذا العرف فى فن الصرف / منشورات المكتبة العلمية الجديدة / بيروت / ١٤٠-١٤١.

٣- انظر السيوطى / همع الهوامع / دار المعرفة / بيروت / حـ ٢/ص١٩٧. وقد نقله عنه محقق شرح الشافية للإستراباذى / دار الكتب العلمية / بيروت / ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م / القسم الأول / حـ٢/ص/٨١/هـ ١. وهناك إشارة إلى أن قوما من الصرفيين يجوزون هذا. فى مقدمــــة " المنجد فى اللغة " / ط ٢٨/ صفحة ن .

" يزاحم (منار الإسكندرية) الجوّ سموا وارتفاعا " (١) . " وحُفّ كله بأمثـــال التفافيـــح (الكُرات) ذهبا " (٢) . " خُيّل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة " (٣) . " وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسنا "(٤) . " ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم فى أتوار تناسبها كبرا " (٥) . " تحف بجانبى طريق كأنه ميـــدان انبســـاطا وانفساحا " (٦) . " تسيران بها سير النسيم سرعة ولينا " (٧) . " ويطيف بهذا البيـــت شمع كأنه جذوع النخل عِظَما " (٨) . " وشاهدنا بها من الخنافس أمثال الغنم كثرة وأنسا بأهلهـــا " (٩) . " فغاية حسن القرى بشرقى الأندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالا " (١٠) . " ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا " (١١) . " وأما قيسارتيها فحديقة بستان نظافة وجمالا " (١٢) . " ولكن قراها عامرة منتظمـــة لأنهـــا علــــى محـــرث عظيـــم مـــدّ البصـــر عرضـــا وطـــولا " (١٣) " قد حفته أعمدة كالجذوع طولا وكالأطواد

١- ص/١٥.

٢- ص/١٩.

٣-ص/٤٣.

٤-ص/٦٣.

٥-ص/١٣١.

٦-ص/١٣٦.

٧-ص/٢٠٦.

٨-ص/٢١٢.

٩-ص/٢١٧.

١٠-ص/١٨.

١١- ص/٢٢٣.

١٢-ص/٢٢٧.

١٣-ص/٢٢٨.

ضخامة " (١) . " وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة " (٢) . " وسرنا فى طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد " (٣) . " لم نر مثل تربتها طيبا وكثرة واتساعا " (٤) .

ومما يبرز من التراكيب فى رحلة ابـــن جبير تفضيله فى كثير من الأحيان حذف الفاعل وبناء الفعل من ثم للمجهول على بنائه للمعلوم . فمثلا بدل أن يقول : " استنزلوه واستنطقوه " ، كما نفعل عادة ، يفضل أن يقول : " استُنزل واستُنطِق " . وهذه هى الشواهد :

" استُحضِر جميع من كان فيه من المسلمين " (٥) . (بدلا من " استحضر رجـــــالُ المكـــس جميعَ .. ") . " فلزّموا أداء زكاة ذلك دون أن يُسأل أحال عليه الحول أم لا . و استُنزِل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان .. وفى كلّ يُستفهم ثم يقيّد قوله . فخُلّىَ سبيله وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم .. فاستُدعوا واحدا فواحدا وأحضر مالكل واحد من الأسباب " (٦) . " ولأحد الكبيرين منها باب يُصْعَد إليه على نحو القامة منه أو أزيــــــد ، ويُدخَل منه إلى بيت كبير " (٧) . " فيُلْقَى فيها من دلاء الوارد مالايحصى كثرة " (٨). " لايغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختُلِس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة " (٩) . (بدلا من " إلا اختلسه أحد اللصوص ") . " فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع فى

١- ص/٢٤٢.
٢- ص/٢٢٨.
٣-ص/٣٠٢.
٤- ص/٣٠٧.
٥-ص/١٣.
٦-ص/١٣.
٧-ص/٢٨.
٨-ص/٤٣.
٩-ص/١٠٠.

ذلك التابوت المبارك يُحجّ به ميتــا ، فسيق إلى عرفـــــات ووُقف به على بعد وكُشِف عن التابوت " (١) . " فلو تسومح فيها بطل السعى " (٢) . " وماظنك بموقف يُناجَى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ؟ " (٣) . " وماظنك ببلد حصن الأكراد منه علـــــى أميال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره ، ويُحرَق إذ يطير شراره ، ويُتَعَهّد إذا شاء كل يوم مغـــــاره ؟ " (٤) . "ومنهايُشرَف على بسيط دمشق وغوطتها " (٥) . " بـــــدل " يشرف الإنسان السائر علـــى .. " (٦) . "وهىطريق قصد ، لكنها لاتُدخَل إلا فى الشتاء " (٧) (أى " لايدخلها المسافرون ") . " فتبادر البحريون إليها . وحُط شراع الصــــــارى الكبيـــــــر . وعُطّل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين .. " (٨) . " ومازالت الريـــح تعصف حتى كادت تنسف وتقصف ، فحطّت الشُرع عن صواريها " (٩) (بدل " فحطّ البحارة الشُرُع ") . " ولولا ذلك لانتُهب جميع مافى المركب انتهابا " (والمقصـــود : " انتهبه أهل مسينة ") . " فاستُحضر عن أمر الملك الصقلى غليام .. ، واستُنطق واستُفهم " (١٠) . " فعُلِم أن الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة " (١١) (أى " فعلم

١-ص/١٠٣.
٢- ص/١٤٦.
٣- ص/١٨٠.
٤-ص/٢٣٢.
٥-ص/٢٣٣.
٦-ص/٢٣٣.
٧-ص/٢٨٥.
٨-ص/٢٩١.
٩-ص/٢٩٥
١٠-ص/٣١١.
١١-ص/٣١١.

الملك والحاضرون .. ") . " فأعلمنـــــــا أنه يكتم إيمانه " (١) (بدل " فأعلمنا الذين يعرفونه .. ") .

وابن جبير ، ككل أدباء العرب القدماء تقريبا ، أحيانا مايلجأ إلى الترادف ، ســـواء أكان مدفوعا بسبب رغبته فى التسجيع أم لا . وإن كان الترادف عنده مع السجع أكثر :

" أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا " (٢) . " جعل أحكامهم إليهم ، ولم يجعل لأحد يدا عليهـــــم " (٣) . " جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الإرهاق وسوء المعاملة " (٤) . " لو وردت نهرا من الأنهار لأنضبته وأنزفته " (٥) . " فمجموعها متناسب فى اختلال البنية ووهنها " (٦) . " فجعلوه سببا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حلّ " (٧) . " وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذى هـــو عبادة " (٨) . " فسبحان من كرّمه وعظمه وخلد له التشريف إلى يوم القيامة " (٩) . " الآثار السّنِيّة والمفاخر العلية " (١٠) . " وهو المجازى على الضمائر وخفيات السرائر " (١١) . " نزفت دمعهـــا العيــــون ، واستنزفت ماءها الشؤون " (١٢) . " يطول وصفه ، ويتسع القـول

١-ص/٣١٣.

٢-ص/٣٦.

٣-ص/٣٦-٣٧.

٤-ص/٣٨.

٥-ص/٤٣.

٦-ص/٤٧.

٧-ص/٥٥.

٨-ص/٥٧.

٩-ص/٧٦.

١٠- ص/١٠٣.

١١-ص/١١٧.

١٢-ص/١٣٩.

فيه " (١) . "وصفها يطول والأخبار عنها لاتنحصر " (٢) . " قدرة الاتساع ، وقوة الاستطـــاع " (٣) . " ليس فيهم من اتسم بسمة تليق ،أو اتصف بصفة هو بها خليق " (٤) . " هذا الاسم لها أصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات " (٥) . " وهى مطهّرة من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة " (٦) . " معاملاتهم صحيحة ، وأحوالهم مستقيمة " (٧) . " تُخطَب بعدهم فلايتعذر ملاكها ، وترام فيتيسر بأهون شىء إدراكها " (٨) . " إذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا ومرأى هائلا " (٩) . " لقد تساوت الأذناب عندهم والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس " (١٠) . " ومازال الشيطان يستهويه ويغريه " (١١) . " وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهـــب لسوء الحساب وسحيق المآب " (١٢) . " نرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل " (١٣) . " فيالها من ليلة يشيب لها سوء الذوائب ، مذكورة فى ليالى الشوائب ، مقدمة فى

١-ص/١٥٤.

٢-ص/١٦٥.

٣- ص/١٨٤.

٤-ص/٢١٦.

٥-ص/٢١٧.

٦-ص/٢٢٤.

٧-ص/٢٢٤.

٨-ص/٢٢٥.

٩-ص/٢٣٧.

١٠-ص/٢٦٩.

١١- ص/٢٨١.

١٢-ص/٢٨١.

١٣-ص/٢٨٧.

تعداد الحوادث والنوائب " (١) . " نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة " (٢) .

والملاحظ أن الترادف يقل جدا فى الرحلة بل ينعـــــدم حيـــن يصف ابن جبير شيئا وصفا موضوعيا ، إذ تشغله دقة التصوير وقياس الأطوال عن ذلك .

١-ص/٢٨٩.

٢- ص/٣١٣.

الصور والمحسنات

هـــذا عـــن التراكيـــب ، أما فى الصّور فإن ابن جبير لايقدم لنا شيئا خاصا متميزا ، فصوره ...دية . وبالنسبة للصور التى قد نشم فيها رائحة جديدة أو شبه جديدة نراه غالبا سُبق إليها.

إن فـــى الصورة التالية مثـــلا شيئا من الطزاجة : " كانت الطبقة العليا منها خُشُبا مستطيلة ...روزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيهم (أى ذكَر القنافذ) نصب ...ها الشمع " (١) . ومع ذلك فقد سبقت هذه الصور عند ابن حزم فى " طوق الحمامة " ، بل فى سياق ...فى عليها حيوية أكثر مما أضفاه سياق ابن جبير الخشبى عليها هنا . يقـــــول ابن حزم : ...لعهدى به مصلوبا فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل " (٢) .

وبالمثل قوله عن قِمّم مدينة من المدن : " طالت صحبتها للزمن " (٣) . الذى يذكـــــرنا ببيت ...تنبى الرائع ، والمتنبى سابق :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ماعنانــــــا

وبالنسبة أيضا لقولـــــه : " علـــى قدم الرحلة " (٤) نرى كتب السيرة تقول إن الرسول ...ه السلام ، عندما أتاه أصحاب مسجد الضرار يرجونه أن يفتتح مسجدهم بالصلاة فيه ، اعتذر بأنه " على جناح سفر " (٥) .

ومن الصور التى قد نشم فيها رائحـــــة طازجة قوله مشيرا إلى عدم وجود أى موضع خال فى

ص/١٣٠.

رسائل ابن حزم / تحقيق د إحسان عباس / حـ١/ص٢٨٤.

الرحلة / ص ٢١٠.

ص/٢٧١.

المقريزى / إمتاع الأسماع / تصحيح وشرح محمود شاكر / حـ١/ط٢/نشر الشئون الدينية بدولة قطر / ص/٤٨٠ ، ود

د محمد أبو شهبة / السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة / حـ ٢/ مطبعة القاهرة الحديثة للطباعة / ص٤١١.

جدران أحد الهياكل الفرعونية : " ومافية مغرز إشفى (أى مخرز) " (١) ، وقوله عن قوة تدفق الماء فى إحدى العيون إلى أعلى :"فربما يروم السابح القوى السباحة الشديد الغوص فى أعماق المياه أن يصل بغوصه إلى قعره فيمجه الماء بقوة انبعاثا من منبعه " (٢) ، وقوله يصف موقفا من مواقف الخطر فى البحر عندما هاجت الأنواء وثارت الأمواج : " كنا .. ننازل المنون " (٣) ، وقوله عن مدينة أطرابنش الصقلية إنها " فى لهوات البحر لإحاطته بها من ثلاث جهات " ، وإن " البحر فاغر فاه لها من سائر الجهات " (٤).

وهناك صورتان لاحظت تكررهما فى الرحلة : أولاهما قوله حين يصف الحسن الباهر لشيء ما إنه " يقيد الأبصار " : " حُفّ أعلاه كلها بأمثال التفافيح (الكرات) ذهبا فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا وجمالا " (٥) . " يبصر الناظر فيها .. مايقيد بصره حسنا " (٦) . " تجتلى منها منظرا ترتاح النفس إليه ، وتتقيد الأبصار لديه " (٧) . " كل موضع .. قيد النظر " (٨) .

والثانية حين يعبّر عن اندفاع الماء أو الريح بشدة وعنف بـ " الانزعاج " : " وفـــــى أعلاها خُصّة (حوض) رخام مثمّنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة " (٩) . " وفـــى وسط الحوض الرخامى أنبوب صُفر (نحاس) يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من

١- ص/٣٧.

٢- ص/٢١٨.

٣- ص/٢٨٨.

٤- ص/٣٠٨.

٥- ص/١٩.

٦- ص/٦٤.

٧- ص/٢٣٠.

٨- ص/٢٢٥.

٩- ص/٢١١.

القامة " (١) . " ونحن من الشوق إلى الأندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح فى حث الرياح (؟) وانزعاجها " (٢).

ويكثر فـــــى رحلة ابن جبير الاقتباس والتضمين . وهو أحيانا ما يقتبس العبارة أو يضمنها كما هـــى . وأحيانا مايحوّر فى العبارة المقتبسة أو المتضمنة . والآن أقدم الشواهد على ما أقول ، مع إرجاع كل عبارة جبيرية إلى أصلها من القرآن أو السنة أو الشعر أو الأقوال المأثورة :

" وجاءنـــــــا المـــوج من كل مكان " (٣) ، وأصلها قوله تعالى : " وجاءهم الموج من كل مكان " (٤) . والسياقان واحد ، وهما عن العواصف والأمواج الهائجة فى عرض البحر والموت المحيط بركاب السفينة .

" فلما جـــنّ الليل " (٥) . " حيث جنّ علينا الليل " (٦) . " والليل قد جنّ " (٧) . وأصلها قوله تعالى : " فلما جن عليه الليل " (٨) .

وكمـــــا ترى لم ينقل ابن جبير عبارة القرآن كما هى ، ففى بعض الحالات لم يستخدم الظرف " فلمّا " ، وفى بعضها الآخر لم يستخدم شبه الجملة . والسياق عند ابن جبير مختلف قليلا عنه فى القرآن . فالقرآن يتحدث عن حلول الظلام على إبراهيم عليه السلام عند تفكيره فى ملكوت

١-ص/٢٤٣.

٢- ص/٣١٧.

٣- الرحلة / ص ٢٨٩،١٣.

٤- يونس /٢٢.

٥- الرحلة / ص ٢٨٩،٥١،١٠.

٦- ص/٤٢.

٧- ص/٢٩٣.

٨- الأنعام ٧٦.

السماوات والأرض، أما فى الرحلة فالسياق سياق هبوط الظلام ومجىء الليل فقط.

" لاخلاق لهم " (١) . وقد نقلها بنصها من القرآن الكريم " (٢) . " و " الخلاق " هو النصيب وتكملة العبارة القرانية ، وهى عن اليهود الذين تلاعبوا بدينهم وكتابهم : "أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة " ، أى لانصيب لهم فى رحمة الله ، ولا أمل لهم فى دخول الجنة . ومع ذلك فقد شاع استخدام " الخلاق " فى الأساليب العربية الحديثة بمعنى " الأخلاق " . أمّا عند ابن جبير فلا أدرى أى معنى استخدمها فيه ، فإن السياق لايساعد على تحديد ذلك . وهذه هى عبارة ابن جبير كاملة . والكلام عن قبيلة البجاة وكيف أنهم لايلتزمون بتعاليم الإسلام ، ورجالهم ونساؤهم يمشون شبـــــه عراة ، وأكثرهم لايستترون : " وبالجملة فهم أمة لاخلاق لهم ، ولاجناح علـــى لاعنهم " (٣).

" جعلنـــــا الله ممن يدين بحب أهل البيت ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " (٤). وهى مأخوذة من قوله تعالى : " يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " (٥). وقد غير ابن جبير ، كما هو واضح ، الضمير من الخطاب إلى الغيبة ، علاوة على التقديم والتأخير . وكلتا العبارتين عن أهل البيت.

" ضَرْب الذلـــة والمسكنة الدنية عليهم " (٦) . " منها المذلة والمسكنة الذمية " (٧) . وأصله

١- الرحلة /ص٤٩.

٢- آل عمران /٧٧.

٣- الرحلة /ص٤٩.

٤- ص/٥٣.

٥- الأحزاب / ٣٣.

٦- ص/٥٥.

٧- ص/٢٨٠.

قوله تعالى : " وضربت عليهم الذلة والمسكنة " (١) . وواضح التغييرات اللفظية التى أحدثها ابن جبير فى العبارة المقتبسة ، فقد زاد فوصف المسكنة بـ " الدنية " فى العبارة الأولى ، وبـ " الذمية " في العبارة الأخرى ، ولاوجود لأى من الوصفين فى القرآن . وهذا فضلا عن أنه ، فى العبارة الثانية قال " المذلّة " بدل " الذلة " . أما من ناحية السياق ، فالآية القرانية تتحدث عن اليهود ، على حين أن المقصود فى عبارتى ابن جبير إنما هم المسلمون : فالعبارة الأولى تتحدث عن المعاملة القاسية التى عاناها الحجاج فى مكس الإسكندرية كأنهم أهل ذمة لامسلمون ، والثانية تتحدث عن حال المسلمين تحت حكم أهل الكتاب ومايلاقونه من هوان يشبه هوان أهل الذمة.

" يعمل غير صالح " (٢) . وهى مأخوذة من قوله سبحانه وتعالى : " إنه عمل غير صالح " (٣). والفرق واضح ، وهو فرق صغير.

" يقرضه قرضا حسنا " (٤) ، من قوله عز وجل : " يقرض الله قرضا حسنا " (٥) ، مع تحويل المفعول من اسم علم إلى ضمير ، كما هو ظاهر للعيان . وهو فى الحالتين الله عز وجل.

" يقلب كفيه ويضرب أصدريـــــه " (٦) . وهـــى من قول رب العزة عن صاحب الجنة المحترقة : " فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها " (٧) . وقد زاد ابن جبير جملة : " ويضرب أصدريه " . ثم إن السياقين مختلفان : فصاحب الجنة يقلب كفيه على ماأنفق على جنته هدرا ، أما مقلب كفيه فى

١-البقرة /٦١.

٢- ص/٥٧.

٣- هود /٤٦.

٤- الرحلة /ص١٠٥.

٥- البقرة /٢٤٥.

٦- ص/١٠٥.

٧- الكهف /٤٢.

نص ابن جبير فهو أمير مكة ، وهو لم ينفق شيئا هدرا ، بل الذى أنفق هو أحد أغنياء العجم الذى عمّر بئر زمزم وأصلحها ، وكان قد وعد الأمير بأنه إذا تركه يقوم بهذه الإصلاحات فسيعطيه . مثل تكلفتها ، وذلك لكى يتركه الأمير يقوم بالإصلاح والترميم المطلوب . ولكنه بعد أن أتم الترميمات اختفى عن الأنظار كأنه لم يكن له وجود ، فأصبح الأمير يقلب كفيه ويضرب أصدريه ، أى عرقيه اللذين تحت صدغيه . " وضرب الأصدرين " معناه الفراغ .

" مؤتى الملك من يشاء ونازع الملك عمن يشاء " (١) . وهى من قوله تعالى : " تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " (٢) . بعد استبدال اسمى الفاعل بالفعلين ، واستبدال ضمير الغائب بالمخاطب . أما فى صفحة ٢٠٧ فقد استخدم الفعل ولكن مسندا إلى الغائب " يؤتى الملك من يشاء "

" وقد حُشـر الناس ضحى " (٣) . وذلك فى أثناء وصفه لطواف أحد الأمراء الأيوبيين وشعبه . وهو من قوله عز من قائل عن الموعد الذى اتفق عليه بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون ، وهو يوم الزينه : " قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى " (٤) . والتغيير منحصر فى استبدال المضارع بالماضى مع زيادة " قد " .

" فرحين بما آتاهم الله من فضله " (٥) . وهى مأخوذة بنصها من القرآن الكريم (٦) .

" تنـوء الشمعة منه بالعصبة " (٧) . من قوله سبحانـه : " إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى

١- الرحلة /ص ١٢٥

٢- آل عمران / ٢٦.

٣- الرحلة / ص ١٢٥.

٤- طه / ٥٩.

٥- الرحلة / ص ١٣٥

٦- آل عمران / ١٧٠.

٧- الرحلة /ص ١٥٥.

القوة " (١) . والفرق هو أن جملة ابن جبير فعليه غير مؤكدة ، على حين جملة القرآن اسميه مؤكدة بـ " إن " و " اللام " . ثم إن العصبة قد وصفت فى القرآن بـ " أولى القوة " . أما ابن جبير فقد اكتفى بها من غير وصف . وحسنا فعل . فإن الحِمْل هنا شمعة ، أما هناك فمفاتيح خزائن قارون . ومفاتيح تلك الأيام لابد أن تكون من الضخامة بمكان .

" نضجت جلودهن طبخا " (٢) . وذلك فى الكلام عن الزحام الذى كان على النساء أن يخضنه لأداء المناسك . وهو من قوله تعالى ، ولكن عن فريق من أهل النار : " كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب " (٣) . وقد تغير الضمير من المذكر إلى المؤنث ، وزيد فى العبارة الجبيرية كلمة " طبخا " . وفيها نكهة فكاهية فيما أحسّ .

" منبوذة بعرائها " (٤) . وهى مأخوذة من قوله عز من قائل عن يونس عليه السلام بعد خروجه من بطن الحوت : " فنبذناه بالعراء " (٥) . وقد استعمل ابن جبير اسم المفعول بدلا من الفعل ، وأضاف العراء إلى ضمير المفعول . ثم إن الضمير فى القرآن مذكر وفى الرحلة مؤنث ، لأن الكلام فيها عن إحدى القلاع .

وعلى هذا قس العبارات التالية : " كـأن لـم تغـن بالأمـس " (٦) . " اركض برجلـك " (٧) . " قناطيـر مقنطـرة " (٨) . " زيـن لـه سـوء عملـه فرآه

١- القصص /٧٦.

٢- الرحلة / ص١٥٩.

٣- النساء /٥٦.

٤- الرحلة / ص ٢٢٤.

٥- الصافات /١٤٥.

٦- الرحلة /ص٢٢٨.

٧- ص/٢٣٤

٨- ص/ ٢٦٦.

حسنا " (١) . " الجوارى المنشآت فى البحـــــر كـــالأعلام " (٢) . " حقت عليه كلمة العذاب " (٣) . " ولعذاب الآخرة أشد وأبقى " (٤) . " تجبى الثمرات إليها " (٥) . " والبحر رهو " (٦) . " صرح ممرد من قوارير " (٦) . " لكل أجل كتاب وميقات " (٧) . " حتى جاء نصر الله والفتح " (٨) . " أهل التقوى وأهل المغفرة " (٩) . " نشرا بين يدى رحمته " (١٠) . ومعظمها منقول بنصه من القرآن الكريم .

ومن الحديث النبوى الكريم يمكن أن نرصد العبارتيـــــن التاليتين : " السفر قطعة من العذاب " (١١) . " وفى جوف الفرا كل الصيد " (١٢) . والأولى أخذت من الحديث كما هى ، أما الثانية فأصلها : " كل الصيد فى جوف الفرا " . بيد أن ابن جبير قد قدم وأخر مراعاة للسجع . وقد صارت مثلا يضرب للرجل الذى يتفوق على غيره من الناس ويسد مسدّهم ، ولايسدّ غيره مكانه .

أما العبارات الآتية فمن الأمثال العربية القديمـــــة والتعبيرات الشائعة المشهورة :

١-ص/٢٦٩.

٢-ص/٢٧٦.

٣- ص/٢٨١.

٤- ص/٢٨٢.

٥- ص/٢٨٣.

٦- ص/٢٨٥.

٧- ص/٢٨٦.

٨- ص/٢٩١.

٩- ص/٢٩٤.

١٠- ص/٣٠٧.

١١- ص/٣١٩.

١٢- ص/١٥٥.

١٣- ص/١٩٦.

" فيالها ليلة كانت فى الحسن بيضة العُقر " (١) . " وبيضة العُقر " مثل للشىء لايكون له مثيل أو يعمل مرة واحدة ثم لايكرر . وقيل فى تفسيرها إنها " بيضة الديك " ، على زعم أن الديك يبيض ، ولكنها بيضة واحدة ليس غير (٢) . كما قيل إنها أول بيضة تبيضها الدجاجة فتعقرها . وقيل غير ذلك (٣) .

" شنشنة أعرفها من أخزم " (٤) ، وذلك أن أحفادا قداعتدوا على جدهم ، وكان أبوهم قد مات ، وكان عاقا لأبيه كثير الإيذاء له . وكان اسمه أخزم ، فقال الجد هذه العبارة التى هى الشطرة الثانية من البيت التالى :

إن بنىّ ضرجونى بالـــدم   شنشنة أعرفها من أخزم (٥) .

" يدعو إليها (إلى داره) كل يوم الجَفَلى من الغرباء " (٦) . وهى مأخوذة من قولهم : " دعـــا الجَفَلى " ، أى دعا الناس إلى الطعام دعوة عامة ولم يخص بها فريقا دون فريق . وعكسها : " دعا النَّقرى " ، أى دعوة خاصة .

" فيعمهـــم شبعا وريّا " (٧) . وهى مأخوذة من البيت الذى أصبح شطره الثانى مثلا يضرب للقناعة والرضا بالقليل .

فتملأ بيتنا أقِطا وسَمْنـــا   وحسبك من غنى شبع وريّ

١- الرحلة / ص ٥٨.

٢- من الطريف أن زميـــــلا لى يابانيا ، وكنا فى الجامعة معا فى النصف الثانـــــى من الستينات ، رأى عبارة " بيضة الديك " ، فظن أن الديك يبيض فعلا . وعبثا حاولت أن أفهمه أنه مثل قائم على زعم .

٣-انظر " تاج العروس " / مادة " عقر " .

٤- الرحلة / ص ٢٢٠.

٥- انظر المثل وشرحه فى " تاج العروس " للزبيدى / مادة " خزم " / و " المنجد " / ط ٢٨/ص ٩٩٥.

٦- الرحلة /ص ١٠٤.

٧- الرحلة / ١٠٤.

وإن كان ابن جبير قد قصد أنه أكرمهم غاية الإكرام ، فأشبعهم وأرواهم ، وقلموا من لدنه راضين مرضيين .

" وأما نثره فيصدع بسحـــــر البيان ، ويعطل المثل بِقُسّ وسحبان " (١) والإشارة إلى قولهم فى الأمثال القديمة : " أخطب من سحبان وائل " ، وهو رجل من باهلة اشتهر بفصاحته فى الخطابة ونظم الشعر (٢). وقد سبق أن أشار ابن جبير إلى هذا المثل قبلا ، وذلك فى قولــه : "فإن كل مخبر عنه ، لو كان قسّا بيانا أو سُحْبانا ، يقف موقف العجز والتقصير " (٣) .

" وقد حيل بني العَيْر والنَّزَوان " (٤) . ومعناه : لاأمل فى المحاولة ، فقد سدت المسالك . وهو الشطرة الثانية من بيت صخر بن عمرو أخي الخنساء المشهور برثائها إياه :

أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعــــــه ‏ ‏ ‏ وقد حيل بين العير والنزوان (٥) .

و" العَيْر " هو " الحمار (الوحشى) " ، و " النَّزَوان " : " الوثوب " .

" تسلوّا عن الغنيمة بإيابهم " (٦) . وهو مأخوذ من قول الشاعر :

وقد طوّفت بالآفاق حتـــــى ‏ ‏ ‏ رضيتُ من الغنيمة بالإياب

ومعناه أن الذى كان يطمع فى إحراز الغنيمة قد انتهى به الحال إلى أن يكتفى بمجرد الرجوع إلى بيته سالما (٧) . ويلاحظ أن ابن جبير قد أجرى فى عبارة الشاعر عدة تغييرات ، فـ " رضيت " أصبحت " تسلّوا " ، و " مِنْ " صارت " عَنْ " و " بالإياب " أضيفت إلى ضمير الذين تسلوا .

---

١ - الرحلة / ص ١٩٧.

٢- انظر هذا المثل فى " تاج العروس " / مادة " سحب " ، و " المنجد " / ص ٩٨٤.

٣- الرحلة / ص ٣٨.

٤- الرحلة / ص ٢٩٤.

٥- انظر البيت فى " تاج العروس " / مادة " نزا " .

٦- الرحلة / ص ٢٩٥.

٧- انظر المثل فى " المنجد " / ص ٩٨٩

" قد نصحتُ إن ألفيت سامعا ، وناديت إن أسمعت مجيبا " (١) . وهذه العبارة الجبيرية تنظر إلى قول الشاعر وقد أصبح مثلا يضرب لمن يوعظ فلايتعظ :

لقد أسمعت لو ناديت حيـــا ‏ ‏ ‏ ولكن لاحياة لمن تنـــادى

" ومازلنا منذ ركبنا البحر نتنسم هذا الأفق الشرقى شوقا إلى ريحه فلايهب منه نسيم حتى خلناه لعدمه عنقا مغربا " (٢) . والمقصود ، كما هو بين ظاهر ، الشىء المستحيل العثور عليه ، لأنه لا وجود له . وهو مأخوذ من قولهم " عنقاء مغرب " ، وبعضهم يقول : " العنقاء المغربة " ، بالتأنيث . وقيل فى شرح معناها إنها طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم لايرى إلا فى الدهور ، ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية " عنقاء مغربا " . وبهذا المعنى الأخير وردت فى قول الشاعر :

ولولا سليمان الخليفة حلّقــت ‏ ‏ ‏ به من يد الحجاج عنقاء مغرب

أى كان الحجاج سيفتك به فتكا لولا سليمان عبدالملك ، الذى حماه وأنقـــذه . وفى الحديث : "طارت به العنقاء المغرب " ، أى ذهبت به الداهية .

فابن جبير إذن قصد المعنى الأصلى ، لا المعنى الذى تطورت إليه العبارة فى الاستعمال (٣)

كذلك أحيانا مايستشهد ابن جبير بالآيات القرآنية والأحاديث النبويـــــــة استشهادا لا اقتباسا (٤) ، وبأبيات الشعر وأشطاره (٥) .

ويشيع السجع فى رحلة ابن جبير ، ولكنه لايغطيها كلها . إنها خليط من الأسلوب المترسل والمسجوع .

١- الرحلة / ٢٥٨.

٢- الرحلة / ص ٣١٨-٣١٩.

٣- انظر شرح هذه العبارة فى " تاج العروس " / مادة " غرب " و " عنق " .

٤- انظر مثلا ص ٦٧، ٩٦، ١٠٦، ١١٢، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٧، ١٧٠، ١٩٧، ٢٤٦، ٣١٣ من الرحلة

٥- انظر مثلا ص ٤٩، ٧٣، ٨٧، ١٨٠، ٢٠٦، ٢١٤، ٢٨٨ من الرحلة .

وقد لاحظت أنه يلجأ إلى السجع فى مواطن الانفعال ، سواء أكان هذا الانفعال وجدا دينيا أو إعجابا أو خوفا أو سخرية ، على قلة السخرية عنده ، وكذلك فى المواضع التى يصف فيها المدن والعمائر الفخمة والمساجد ، وما إلى ذلك .

والملاحظ أن السجع قليل فى أوائل الكتاب ، ثم يكثر كلما أوغلنا فيه حتى ليغطى الصفحة كلها أو أكثر ، ليعود فى أواخر الكتاب فيقل ثانية . ومع ذلك نفاجأ فى الأواخر بصفحة كاملة أو شبه كاملة مسجوعة ، ولكن هذا قليل بالنسبة إلى أواسط الكتاب .

وبوجه عام ، فالسجع فى الرحلة يندر أو ينعدم فى المواضع التى يتوقف فيها ابن جبير ليعطينا أطوال مسجد ما أو نمط عمارته وما إلى هذا .

أما طريقته فىالسجع فإنها تتروح بين إيراده فاصلتين فاصلتين وإيراده ثلاثا ثلاثا أو أكثر . وأحينا يأتى بسجعة واحدة فى وسط مساحة من الأسلوب المترسل ، وأحيانا يزيد عن سجعة ، وقد تصل هذه الزيادة إلىأن يجعل الصفحة كلها مسجوعة . كما قد يكون السجع بين لفظتين متعاقبتين أو بين نهايتى جملتين أو أكثر ، أو بين جزأى الجملة الواحدة .

وبسبب السجع نراه يضطر أحيانا إلى التقديم والتأخير أو إيراد جملة اعتراضية ، ولكن سجعه غير متكلف ، فضلا عن أن تواضعه وسماحة نفسه ورغبته فى إشراك القارىء معه فيما يشاهد ويسمع ويستمتع به أو ينفعل به بوجه عام ، كل ذلك يضفى على أسلوبه جوا طبيعيا يفتقر إليه كثير من أساليب السجّاعين العرب .

وهاك أمثلة على ذلك : " فأقمنا بين هواء ينيب الأجسام ومـــاء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام " (١) . " والله ولى الخيرة فى جميع مايقضيه ويسنيه " (٢) . " فراكب هذا السبيل راكب

١- الرحلة / ص ٤٩.

٢- ص/٥٢.

خطر ومعتسف غرر " (١) . " إنه على مايشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير " (٢) . " والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان ، والألسنة تضج بالدعاء وتبتهل بالثناء ، فتارة تشتد بالتلبية ، وآونة تتضرع بالأدعية . فيالها ليلة كانت فى الحسن بيضة العُقر، فهى عروس ليالى العمر ، وبكر بنيات الدهر " (٣) . " والله يجعل فيه رزقا لمن تشوق بلدته الحرام ، وتمنى هذه المشاهد العظام ، والمناسك الكرام " (٤) . " فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرفاق ، ومُلئت ثناء عليـــه الآفـــاق " . " فبقيت آثاره مخلّدة ، وأخباره بألسنة الذكر مجدّدة ، وقضى حميدا سعيدا " (٥) . " وهى فى هذا العام أحفل جمعا ، وأكثر شمعا " (٧) . " ورأى أن ذلك أفضل مايُغتنَم ، وأشرف عمل يلتزم . وبكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم " (٨) . " فكانت الليلة الغراء ، والختمة الزهراء ، والهيبة الموفورة الكهلاء ، والحالة التى تمكن عند الله تعالى فى القبول والرجاء " (٩) . " أطلقت عليه أيدى الانتهاب ، ولم يكن فى الجماعة من يُستَحَى منه أو يُهاب ، وعند الله تعالى ... الجزاء والثواب . إنه سبحانه الكريم الوهاب . وانتهت ليالى الشهر ذاهبة عنا بسلام . جعلنا الله ممن طهر فيها من الآثام ، ولا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه فـــى جوار الكعبة البيت الحرام . وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنفية بالوفاة على

١- ص/٥٥.

٢- ص/٥٥

٣- ص/٥٨.

٤- ص/٩٩.

٥- ص/١٠٤.

٦- ص/١٠٥.

٧- ص/١٢٢.

٨- ص/١٢٢.

٩- ص/١٣٠.

الإسلام ، وأوزعنا حمدا يحق هذه النعمة وشكرا . وجعلها للمعاد لنا ذخرا ، ووقانا عليها ثوابا من لدنه وأجرا ... إنه لايضيع لديه أيام اتُخذ لصيامها ماء زمزم فطورا . إنه الحنان المنان ، لارب سواه " (١) . " فهى مدرسة ومأنسة " (٢) .

أمـا الصفحات المسجوعة بأكملها فتجد أمثلة منها فى الصفحات رقم ١٩٤ ، ١٩٥ - ١٩٦ ، ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٣٠٥،٢٨٨ .

وهنـاك بعـض الكلمات لاحظت أنه يكرر السجع بينها ، وعلى رأسها كلمتا " الدموع والخشوع " : " ينظرون بعيون دوامع ، وقلوب خواشع " (٣) .

" وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع ، وذابت القلوب الخواشع " (٤) .

" ونفوسهم قد استطارت خشوعا ، وأعينهم قد سالت دموعا " (٥) .

" فمـا رؤى يـوم أكثر مدامع ، ولاقلوبا خواشع " (٦) .

" حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا " (٧) .

وبعد ، فسجع ابن جبير سجع مقبول إذ لاتعمّل فيه ، ولايجرى على نظام صارم ، فهو تارة بين كلمتين متجاورتين أو متقاربتين فى الجملة ، وتارة بين جملتين ، وتارة بين أكثر من ذلك ، وتارة يلتزم السجع فى فقرة بكاملها أو عدة فقرات ، وتارة ينساه تماما . وفى كل الحالات ، فإن سجعه لايربك نظام الجملة ، وهو لايخلطه بالجناس المتقعر ، فإن جناسه ، كما سيتضح من

١- ص/١٣٣.
٢- ص/٢١٦.
٣- ص/٩٥.
٤- ص/١٠٨.
٥- ص/١٣٢.
٦- ص/١٥٢.
٧- ص/١٩٥.

الأمثلة بعد قليل ، جناس سهل أقرب إلى العفو منه إلى القصد بله التكلف .

وهناك إلى جانب السجع فى أسلوب ابن جبير الجناس والطباق ، ولكنهما ليس لهما شيوع السجع . وهذه بعض الشواهد على هذا وذاك . وسوف ترى من خلالها أن جناس ابن جبير وطباقه يتميزان بالبساطة ويقتربان من العفوية .

" فيُتناول بأليم العذاب بعيذاب . فكانت كاسمها مفتوحة العين " (١) . " وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لايعرفه ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ماهو أعظم منه " (٢) . " شهر العجّ والثجّ " (٣) . " فيقوم عجلا وجلا " (٤) . " مع طلاقة وبشر ، وكرم لقاء وبر " (٥) . " زَفرَة قَذِرَة " (٦) . " فخلائقهم أسجح ، ومنازلهم أوسع وأفسح " (٧) . " فيالهـا بشرى ومسرة ، لو لم تعد حسرة فى كرة " (٨) . " ومازالت تعصف ، حتى كادت تنسف وتقصف " (٩) .

" متـرددين بين الرجاء واليأس " (١٠) . " مقدار ثلاثـة أميـال علـوا وسفلا " (١١) . " فركـب الحجـاج الصـادرة والواردة " (١٢) . " لكنهم ببلدة لارطب فيها

١- ص/٣١.
٢- ص/٣٨.
٣- ص/١٤٧.
٤- ص/١٩٠.
٥- ص/٢٢٢.
٦- ص/٢٧٦.
٧- ص/٢٧٧.
٨- ص/٢٩١.
٩- ص/٢٩١.
١٠- ص/١١.
١١- ص/٣٠.
١٢- ص/٤٥.

ولايابس " (١) . " يائسين من فلاح الدنيـــــا ، متحققين أشراط الآخرة . ولله الأمر من قبل ومن بعد " (٢) . " وسيـــرة هذا الأمير بالرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهــــم ، وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم سيرة محمودة " (٣) . " وكل منهم بَعْدُ من سكرتـــه ماصحا " (٤) . " فالناس ليلا ونهارا من تمادى العبور فيها فى نزهة متصلة رجالا ونســـاء " (٥) . " فلاتخلو القـــراءة منـــه صباحا ولا مساء " (٦) . " ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس " (٧) . " فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس " (٨) . " فأقمنا بها نضرب البحر طولا وعرضا " (٩) .

١-ص/٤٦.
٢-ص/١٨٠.
٣-ص/١٩١.
٤-صن/٢٠٠.
٥-ص/٢٠١.
٦-ص/٢٤٤.
٧-ص/٢٦٩.
٨-ص/٢٧٦.
٩-ص/٣١٩.

الفكاهة والوصف

والإحماض فى رحلة ابن جبير قليل ، وهو لايقربه إلا مكرها وعلى استحياء . وهذا راجع إلى طبيعة شخصيته ، فهو شديد التدين والتحرج ، حتى إنه حين انساق عرضا إلى الحديث عن لعب الشطرنج فى أثناء السفر لم يدع الأمر يمرّ هكذا ، بل أشار إلى الحكم الفقهى لهذا اللون من التسلية ، وبين أن بعض المسلمين يجوزونه وبعضهم يحرمونه . قال عن نوع من الهوادج يجلس فيه اثنان متقابلين كل منهما فى ناحية من الجَمَل وتسمى " الشقادف " : " فيكون الراكب فيها مع عديله فى كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحا فى وطائه ومتكئا ، ويتناول مع عديله مايحتاج إليه من زاد وسواه ، ويطالع متى شاء المطالعة فى صحف أو كتاب . ومن يشاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكها وإجماعا للنفس لاعَبَه " (١) .

ومن هنا فالفكاهة عنده قليلة ، وهى لاتعدو أن تكون دعابة هائدة . أما الجنس فهو معدوم . إنه مثلا ليس كأسامة بن منقذ ، الذى يسخر ويتهكم ويصمى بسخريته وتهكمه ، والذى لايتحرج أن يطرق الموضوعات الجنسية ويحكى حكاياتها . وليس كابن فضلان ، وكان فقيها مرسلا فى مهمة سفارية بين الخليفة العباسى وملك البلغار ، ومع ذلك لم يترك شيئا رآه إلا وسجّله ، حتى المرأة التى كانت جالسة معهم برفقة زوجها ، ثم بغتة كشفت عن .. وحكّته أمام الجميع ، وماعلق به على ذلك زوجها ، الذى لم ير أية غضاضة فيما فعلت امرأته .

أما ابن جبير فإنه يحاسب نفسه حسابا شديدا . لقد رأى مثلا فى صور، وكانت تحت يد الصليبيين آنذاك ، عُرْسا صليبيا فوصفه ، ووصف العروس ، وكان وصفه لها على النحو التالى : " خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال .. وهى فى أبهى زى وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب .. وعلى رأسها عصابة ، وهى رافلة فى حليها وحللها ، تمشى

١-الرحلة / ص٤٢.

فتروا فى فتر مشى الحمامة أو سير الغمامة " (١) . ومع أنه وصف بريء لافحش فيه ولا عري ولايستثير الشهوة ولايخرج عن حدود الاحترام فإنه سرعان مايعقب قائلا : " نعوذ بالله من فتنة المناظر " . ولايكتفى بذلك ، بل يعود بعد سطور فيقول : " فأدّانا الاتفاق (أى المصادفة) إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله من الفتنة فيه " (٢) . كما أنه بعد أن وصف ملابس نساء صقلية ، وهى نفسها (كما يقول) زى نساء المسلمين ، وذكر أنهن يلبسن الحرير المذهب ويتنقبن بالنقب الملونة ، وينتعلن الأخفاف المذهبة ويتخضبن ويتعطرن كما تفعل المسلمات ، واستشهد بقول الأخطل :

إن من يدخل الكنيسة يوما ... يلـق فيها جآذرا وظباء

سرعان مايثور ضميره الورع قائلا : " ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو، ويؤدى إلى أباطيل اللهو ، ونعوذ به من تقييد يؤدى إلى تفنيد . إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة " (٣).

لا أمل إذن أن يتطرق ابن جبير إلى أية موضوعات خارجة . أما الفكاهة فليس إلا الدعابة الخفيفة بين الحين والحين البعيد.

ومن ذلك مثلا تصويره فزع من ينام من الحجاج فى الطريق أن يكون الطبل المؤذن بالرحيل قد دق: " فربما كان النائم منهم يهذى بنقر الكُوس (الطبل) فيقوم عجلا وجلا ، ثم يتحقق أنها من أضغاث أحلامه فيعود إلى منامه " (٤).

أما التهكم عنده فهو مجرد لمسة خفيفة . إنه يتهكم مثلا بعقيدة الشيعة فى انشقاق حجر بأحد المساجد قرب دمشق . فانظر ماذا يقول : " وفى المحراب حجر عظيم قد شُقّ بنصفين والتحم

١- ص/٢٧٨.
٢-ص/٢٧٩.
٣-ص/٣٠٧.
٤- ص/١٩٠.

بينهما ولم يبن النصف عن النصف بالكلية ، يزعم الشيعة أنه لعلى ، رضى الله عنه ، إما بضربة سيف أو بأمر من الأمور الإلهية على يديه . ولم يُذكر عن على ، رضى الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم إلا إن زعموا أنه كان فى النوم، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لاتصح لهم جهة اليقظة " (١). فتأمل كيفية هدوء تهكمه بهم ، حتى لكأنه يخشى أن يؤلمهم .

وربما كان أشد فكاهاته هذه القصة التى يرويها عن أحوال مجانين دمشق : " وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسبما كنا نسمع به . ومن أعجب ماحُدّثنا به من ذلك أن رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد ممن أوتى مسحة جمال ، واسمه نصر الله . وكان المعلم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختُبل وأُدّىَ الى المارستان . واشتهرت علته وفضيحته بالصبى . وربما كان يدخله أبوه إليه ، فقيل له : اخرج وعُدْ لما كنت عليه من القرآن . فقال متماجنا تماجن المجانين : وأى قراءة بقيت لى ؟ مابقى من حفظى من القرآن شىء سوى : " إذا جاء نصر الله " . فضُحِك منه ومن قوله " (٢) . ومع ذلك فإنه لاينسى بعد هذا كله أن يعقب بالدعاء له وللمسلمين أجمعين : " ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى تُوُفّى ، سمح الله له ".

على أن السرو اليمنيين هم الفائزون بأكبر نصيب من وصفه المضحك وتعليقاته الفكاهية النزرة . وهؤلاء السرو اليمنيون هم قوم من اليمن فقراء يفدون على مكة موسم الحج ومعهم أنواع الأطعمة التى يتاجرون فيها ويخففون بها عن الحجاج تخفيفا كبيرا لقلة الطعام وغلائه فى الحجاز آنذاك . وهم ، رغم نيتهم السليمة وسذاجة نفوسهم وطواياهم البريئة ، لايكادون يعرفون من أمور دينهم شيئا . فصلاتهم مضحكة وحجهم ومايحدث لهم فيه من الفصول أكثر إضحاكا :

١- ص/٢٥٢.
٢- ص/٢٥٦.

" والقوم عرب صرحاء فصحاء جفاة أصحاء ، لم تغنهم الرقة الحضرية ولاهذبتهم السِّير المدنية ولاسددت مقاصدهم السنن الشرعية ، فلاتجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية . فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها ، فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها .. على أنهم طول مقامهم لايتمكن معهم طواف ولايوجد سبيل إلى استلام الحجر ..

وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام ، فتراهم فى محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون ، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلىأزيد من ذلك ، والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضا . وربما انفصمت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم فيقع الكل لوقوعه ، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدى إلى الضحك .

وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها . وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا . ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا دون تسليم ولا جلوس للتشهد . وربما تكلموا فى أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصّاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده ، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة " (١) .

ويذكرنى هذا بعمل الحجاج التكروريين الآن فىالطواف حول الكعبة ، إذ تكوّن كل طائفة منهم سلسلة بشرية تكتسح من يوقعه حظه السىء فى طريقها ، ولايتورعون عن لكز الحجاج الآخرين ليفسحوا لهم . مثل هذا العمل ينم عن أن صاحبه يظن أن الحج مسابقة بدنية لاتخرج عن المغالبة وليست عبادة ورياضة روحية سلمية .

ونأتى إلى الوصف فى الرحلة . والوصف عند ابن جبير لايكاد يغادر شيئا . فرحالتنا قد وصف البحر وهيجانه ، ووصف الجمارك وقسوة تحصيل الضرائب فيها وكيف أخذوا رفيقه فى

١- ص/١١١-١١٢

الرحلة لاستجوابه ، ووصف البلاد التى مرّ بها منذ نزوله الإسكندرية إلى عودته إلى الأندلس معطيا لها من الوصف والتفصيل حسب أهميتها ومافيها من مناظر وآثار ، ووصف عادات أهل كل بلد وتقاليدهم وأخلاقهم ، ووصف المناخ فى كل بلد حل به ، ووصف الطرق وصهاريج المياه المتناثرة عليها ، ووصف الأهرام وأبا الهول والمعابد الفرعونية ، ووصف المساجد والأضرحة ، ووصف البيت الحرام ومسجد الرسول عليه السلام وقبره ، ووصف مدن الصليبيين فى الشام ومايميزها عن مدن المسلمين ، ووصف العرس الصليبى الذى شاهده فى صور ، ووصف العلاقات السياسية والاجتماعية بين المسلمين والصليبيين ، ووصف الكنائس ، ووصف صقلية ومن فيها من مسلمين ونصارى وسياسة ملكها تجاه الأولين ، ووصف السفينة وبناءها وكيفية قيادة رائسها لها فى الأنواء ، ووصف تحطم سفينة العودة عند صقلية .

وابن جبير فى وصفه دقيق لايهمل شيئا ، بل يورد كل التفصيلات المهمة . ولذلك نراه يستعين بقياس أطوال الشىء الموصوف إن كان مما يقاس ، فيذرع مثلا طول بهوٍ ما وعرضه وارتفاعه ولون بلاطاته ، ويتوقف عند ما فيه من زينة فيصور أشكالها والصنعة التى أنفقت فيها ، وهكذا ..

وابن جبير من دقته يحيط بكل مايساعد على تمثل الموصوف ، فيذكر الأشكال والأضواء والظلال والألوان والأصوات والحركات .

وهو فى أثناء ذلك كله يورد القصص والحكايات والتواريخ والأحداث التى تقع من حوله . وهو يمزج ذلك كله فى كثير من الأحيان بوصف آرائه ومشاعره مدحا أو قدحا ، أو موافقة أو تفنيدا ، أو إعجابا أو خوفا ، أو ابتهاجا أو يأسا ، حسب طبيعة الموقف .

ومحصول ابن جبير اللغوى واسع لايعجز عن وصف أى شىء ، حتى فى مجال العمارة حيث الأقواس ، والقرنصة ، والتعاريج ، والتشجير ، والتقصيب ، والتفصين ، والتوريق ، والتكفيت والتجزيع .. وهلم جرا . فكأن ابن جبير قد وُلد مهندسا معماريا وفنانا تشكيليا .

ولا أدرى هل يمكن لأى مؤرخ أو ناقد أو معمارى فى العصر الحديث أن يزيد على ماقاله ابن جبير ، اللهم إلا بتفسير لفظة هنا أو هنا ؟

ونتيجة لذلك ، فإننى فى كثير من الأحيان كنت أحس أننى جزء من المنظر الذى يصفه : أشاهد الأنوار ، وأسمع الجلبة ، وأحس ضغط الزحام على بدنى ... إلخ .

ذلك ، وقد أثنى على هذا الجانب فى أسلوب ابن جبير كثير ممن كتبوا عنه ، ككراتشكوفسكى وعبدالقدوس الأنصارى (١) .

على أنه قبل إيراد الشواهد المصورة للقدرة الوصفية عند ابن جبير لابد من الإقرار بأن فى كلام كراتشكوفسكى عن الإملال الذى يسببه للقارئ العادى وصفه للأبنية كثيرا من الصحة (٢) . ومع ذلك فينبغى الاحتراز بأن ذلك الإملال مقصور على الجوانب الفنية فى وصفه للأبنية من القياسات والتصميمات وما إلى ذلك . وفيما عدا هذا فليس فى وصفه هذا العيب المشار إليه .

وأخيرا ، هذه شواهد على الوصف عند ابن جبير:

قال عن مكس الإسكندرية : " فمن أول ماشاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ماجُلب فيه . فاستُحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد منهم عما لديه من سلع أو ناضّ (أموال سائلة) ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو مالم يحُل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلُزّموا أداة زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا . واستُنزل أحمد بن حسان ليُسْأل عن أنباء المغرب وسلع المركب ، فطيف به مُرَقَّبا على السلطان أوّلا ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من من حاشية السلطان وفى كل يُسْتَفْهَم ثم يُقَيَّد قولُه . فخُلّى سبيله

١- انظر كراتشكوفسكى/ تاريخ الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول / ٣٠٠-٣٠١، وعبدالقدوس الأنصارى / مع ابن جبير فى رحلته / ٢٩٦ ومابعدها حيث يكثر من الاستشهاد على الوصف عند ابن جبير .

٢- انظر كراتشكوفسكى / تاريخ الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول / ص ٣٠١.

وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم ومافضل من أزودتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان ، فاستُدعوا واحدا واحدا وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب مادق منها وماجل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استُحلِفوا بعد ذلك هل عندهم غير ماوجدوا لهم أوْ لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم . نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك . وهذه لامحالة من الأمور الملبّس فيها على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين . ولو علم بذلك ، على مايؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق ، لأزال ذلك ، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه . ومالقينا ببلاد هذا الرجل ما لم يلمّ به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة التى هى من نتائج عمال الديوان " (١) .

وقال من وصف عمارة المسجد الحرام : " وفى ارتفاع جدار هذا الحِجْر الرخامى خمسة أشبار ونصف ، وسعته أربعة أشبار ونصف . وداخل الحِجْر بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأنه ثلثا دائرة . وهو مفروش بالرخام المجزّع المقطّع فى دور الكف إلى دور الدينار إلى مافوق ذلك ، ثم ألصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الإتقان رائق الترصيع والتجزيع رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف ألوانها وصفاتها مايقيد بصره حسنا ، فكأنه يجيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسى وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة . وبإزائها رخامتان متصلتان بجوار الحِجْر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيها من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب مالايحدثه الصنع اليدين فى الكاغد قطعا بالجلمين ، فمرآهما عجيب أمر بصنعتهما على هذه الصفة إمام المشرق

١- ص/١٣-١٤.

أبو العباس أحمـــــد الناصر بن المستضىء بالله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسى، رضى الله عنه " (١).

وقال واصفا موكب خاتون بنت الملك مسعود (خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود) : " وفى تلك العشيـــة التى رحلنا فيها فجأتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا ، وهى التى استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما الجلال المذهبة ، وهما تسيران بها سير النسيم سرعة ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان ، وهى ظاهرة فى وسطه متنقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق . ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهى يسرن خلف سيدتهن سير السحاب . ولها الرايات والطبول والبوقات تُضرب عند ركوبها وعند نزولها . وأبصرنا من نخوة الملك النسائى واحتفاله رتبة تهز الأرض هزا ، وتسحب أذيال الدنيا عزّا . ويحق أن يخدمها العز ويكون لها هذا الهزّ ، فإن مسافة مملكة أبيها نحو الأربعة أشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدى إليه الجزية . وهو من العدل فى رعيته على سيرة عجيبة ، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية " (٢).

وفـــى موكب الخاتون ذاتها عند دخولها ا لموصل : " دخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جلّلت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلاتكاد تبين من القبة موضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا ، وصخب ذلك الحلى يسد المسلمع ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواريها كذلك . مجموع ذلك الذهب لايحصى تقديره . وكان مشهدا أبهت الأبصار ،

١- ص/٦٤.

٢- ص/٢٠٦-٢٠٧.

حدث الاعتبار ، وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد القهار ، لاشريك له " (١).

وأقسم بالله أننى ملمن مرة ذكرت فيها هذا الوصف إلا تراءت أمام عينى حلى الذهب ، وخيل أننى أسمع وسوستها وصليلها يملأ الآفاق كأنه زقزقة صادرة من مئات العصافير فى شجرة فة الأوراق عند الغروب .

وقال يصور عرسا صليبيا فى مدينة " صور" : " ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدّث بها زفاف وس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند مينائها . وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء طفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات وية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ، كأنهما من ذوى أرحامها ، ى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من سهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفّت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك متنظم ، وهى لة فى حَلْيها وحللها تمشى فترا فى فتر مشى الحمامة أو سير الغمامة . نعوذ بالله من فتنة اظر . وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية تسْحَب أذيالها خلفهم ، راءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ويرفلن فى أرفل لى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى فهم سماطين يتطلعون فيهم ولاينكرون عليهم ذلك . فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، موا يومهم ذلك فى وليمة . فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعاذ بالله الفتنة فيه " (٢).

إننـى لأحسـب نفسى فى حلم وقد وقفت تحت طنف بيت فى نهاية الشارع عند منعطفه ، وموكب وس قادم من بعيد مقبلا على ، وأنا أتطلّع إليه مسحورا مبهورا . وكل ذلك بفضل ابن جبير

ص/٢١٢-٢١٣.

ص/٢٧٨-٢٧٩.

وأسلوبه الحى وقدرته الوصفية الهائلة . إنه لم يترك وضعا أو حركة أو ملبسا أو صوتا إلا صوّره وأبدع فى تصويره . على أن الذى فاق كل شىء جمالا وروعة هو وصفه مشية العروس . هذا مصور سينمائى فى يده آلة التصوير والتسجيل الصوتى لا كاتب ممسك قلما يصف العرس من الذاكرة بعد انقضائه !

وفى وصف بداية رحلة العودة فى البحر المتوسط : " واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة فى وجه المركب ، فأخذ رئيسه ومدبره الرومى الجنوى ، وكان بصيرا بصنعته حاذقا فى شغل الرياسة البحرية ، يراوغها تارة يمينا وتارة شمالا ، طمعا ألا يرجع على عقبه ، والبحر فى أثناء ذلك رهو ساكن . فلما كان نصف الليل أو قريب منه ، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور والسابع والعشرين لأكتوبر ، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قُريّة الصارى المعروف بالأردمون ، وألقت نصفها فى البحر مع ما اتصل بها من الشراع ، وعصم الله من وقوعها فى المركب لأنها كانت تشبه الصوارى عظما وضخامة ، فتبادر البحريون إليها ، وحط شراع الصارى الكبير ، وعُطّل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين الملازمين للُشارى المرتبط بالمركب ، فقصدوا إلى نصف الخشبة الواقعة فى البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها ، وحصلنا فى أمر لايعلمه إلى الله تعالى . وشرعوا فى رفع الشراع الكبير ، وأقاموا فى الأردمون شراعا يعرف بالدلون . وبتنا ليلة شهباء إلىأن وضح الصباح . وقد من الله عز وجل بالسلامة . وشرع البحريون فى إصلاح قُرَيّة أخرى من خشبة كانت معدة عندهم ، والريح الغربية على أول لجاجها ، ونحن بين اليأس والرجاء ، نتردد مغلّبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعلى وحفى لطفه ومعهود فضله ، سبحانه هو أهل ذلك ، جلت قدرته وتناهت عظمته ، لا إله سواه " (١) .

على أن الرحلة ليست هى كل ماوصلنا من نثر ابن جبير ، فقد أورد لسان الدين بن الخطيب

١- ص/٢٨٥.

فى " الإحاطة " له عددا من الأقوال الحكمية ، مثل : " إن شَرُف الإنسان فشرف وإحسان ، وإن فاق فتفضل وإرفاق " ، و " شُغل الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض ، فلجوا فى الصدود عنها والإعراض . آثروا دنيا هى أضغاث أحلام ، وكم خفّت فى حبها من أحلام . أطالوا منها آمالهم وقصروا أعمارهم . مابالهم لم يتفرغ لغيرها بالهم ؟ ومالهم فى غير ميدانها استباق ولاسوى هواها اشتياق " .

وهذه الأقوال تغطى صفحة من القطع المتوسط ، وهى أقوال تتميز بالقصر وحرص كاتبها على التوقيع الموسيقى ، سجعا وجناسا ومطابقة ، وروحها روح وعظ وإرشاد وتزهيد فى الدنيا وحث على العلم والاستعداد للآخرة ، وعليها مسحة من تشاؤم . وقد أراد لها ابن جبير أن تبقى بعده وتحفظها الأذهان ويرددها اللسان . فلذلك أتى بها مركزة تركيزا شديدا ، ووفر لها نصيبا غير قليل من الرنين .

وهاك بضعة أقوال أخرى منها :

" ينبغى أن يحفظ الإنسان لسانه ، كما يحفظ الجفن إنسانه ، فرب كلمة تقال ، تحدث عثرة لاتقال " .

" كم كست فلتات الألسنة الحداد ، من ورائها ملابس حداد " .

" نحن فى زمن لايحظى فيه بنفاق ، إلا من عامل بنفاق " (١) .

وهى ، كما ترى ، حكم علمة يعرفها القاصى والدانى ، ولاخصوصية فيها لابن جبير سوى الصياغة . على أنها ليست صياغة قيمة ، بعكس مايراها عبدالقدوس الأنصارى (٢) ، فقد صيغت فى أسلوب مصطنع ليس له رونق أسلوب الرحلة ، لضيق المجال أمامه عن الانطلاق فى الوصف والتصوير والتعبير عن المشاعر المتباينة فى المواقف المختلفة .

١- يرجع إلى " الإحاطة " للسان الدين بن الخطيب / مجلد ٢/ ص ٢٢٣-٢٢٨.

٢- انظر " الإحاطة " / ص ٣١ و " مع ابن جبير فى رحلته " /ص ٩٢.

الفهرس